Available online at https://faau.journals.ekb.eg/

SCREENED BY iThenticate Professional Plagiarism Prevention

Faculty of Arts Journal

Print ISSN: 2786-0108
Online ISSN: 2786-0116

IMAGES OF LOSS IN ANDALUSIAN POETRY IN THE ERA OF THE UMAYYAD DYNASTY (138 AH - 422 AH)

Mohamed El-S.H. Gomaa, Hend Ragab, Mohamed S. AbdelAal

Dept. Arabic Language and Literature, Fac. Arts, Arish Univ., Egypt.

ABSTRACT

The nature of the study required that it be in an introduction, a preface, and four chapters followed by a conclusion, and a list of sources and references that I relied on. The preface dealt with a brief overview of the political and cultural life in Andalusia during the Umayyad era, and loss in language and terminology. In the first chapter, I talked about loss by death. In the second section, I talked about losing one's home and family. In the third section, I talked about losing one's beloved. In the fourth section, I talked about losing oneself.

Key words: Loss, poetry, Andalusian, Umayyad state.

صور الفقد في الشعر الأندلسي في عصر الدولة الأموية (138هـ - 422هـ)

مُحَمَّد السِّبَاعِي هِدَايَة جُمُعَة، هند رجب، محمد السيد عبدالعال

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب جامعة العريش، مصر.

المُلَخَّصُ:

اقتَضَت طَبِيعَةُ الدِّرَاسَةِ أن تَكُونَ فِي مُقَدِّمَةٍ وتمهيد وأربعة مباحث متبوعة بِخَاتِمَةٍ، وثَبَتٍ لِلمَصَادِرِ والمَرَاجِعِ الَّتِي اعتَمَدتُ عَلَيهَا. تَنَاوَلَ التَّمهِيدُ نُبذَةً عَن الحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ والثَّقَافِيَّةِ فِي الأندَلُس عَصرَ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، وَالفَقدَ لُغَةً وَاصطِلَاحًا. وتَحَدَّثتُ فِي المَبحَثِ الأوَّلِ عَنِ الفَقدِ بِالمَوتِ. وتَحَدَّثتُ فِي المَبحَثِ الثَّانِي عَن فَقدِ المَوطِنِ وَالأهل. وتَحَدَّثتُ فِي المَبحَثِ الثَّالِثِ عَن فَقدِ المَحبُوبَةِ. وتَحَدَّثتُ فِي المَبحَثِ الرَّابِعِ عَن فَقدِ الذَّاتِ.

الكلمات الاسترشادية: الفقد، الشعر، الأندلسي، الدولة الأموية.

المُقدِّمَة

يُعَدُّ الشِّعرُ المُنجَزَ الإبدَاعِيَّ الأوَّلَ، الَّذِي لَا يَسبِقُهُ شَيءٌ فِي مِضمَارِ الأدَبِ، فَقَد رَافَقَ نَشأةَ الإنسَانِ مُنذُ فَتِقَ لِسَانُهُ نَاطِقًا، فَكَانَ الشِّعرُ وَسِيلَتَهُ المُثلَى لِلتَّعبِيرِ عَن خَلَجَاتِ نَفسِهِ الخَافِيَةِ، ومَكنُونَاتِ قَلبِهِ الدَّوقِيَّةِ، يُنشِدُهُ فِي حِلِّهِ وتَرحَالِهِ، لِاشتِمَالِهِ عَلَى الحِكمَةِ العَصمَاءِ، وَالبَلَاغَةِ الشَّمَّاءِ، ويُفَرَّقُ بِهِ بَينَ أهلِ البَيَانِ وَالدَّهمَاءِ، إذ كَانَتِ العَرَبُ تَعُدُّهُ أبَا الفُنُونِ، يُلجَأُ إلَيهِ فِي العِتَابِ، ويُفزَعُ إلَيهِ فِي المُصَابِ، ويُقَدِّمُهُ الإنسَانُ بَينَ يَدَي تَوَسُّلَاتِهِ، ويَتَفَجَّعُ بِهِ فِي فَقدِ أحِبَّائِهِ، ويَتَسَلَّى بِهِ قَبلَ رُقَادِهِ وَفِي سُهَادِهِ، فَهُوَ مِشكَاتُهُ وَسِرَاجُه، وَأنسُهُ وَحُزنُهُ وَابتِهَاجُه، إذ كَانَ يُمَثِّلُ رُوحَهُ وَخَاطِرَهُ، ويُعَبِّرُ بِهِ عَن نَفسِهِ الفَاقِدَةِ، يَسعَى مِنَ الوَهلَةِ الأُولَى لِعِرفَانِهِ وَإتقَانِهِ، وَإلَى بُلُوغِهِ عَبرَ قَنَاةٍ لُغَوِيَّةٍ مُحكَمَةٍ، تُمَكِّنُهُ مِنهُ، لِيَبلُغَ بِهِ فَهمَ مُتَلَقِّيهِ، ومِن ذَلِكَ التَّلَقَّاءِ، أعنِي تِلقَاءَ ضَرُورَةِ تَفسِيرِهِ وَتِبيَانِ مَغَازِيهِ وَتَجلِيَةِ مَرَامِيهِ، انبَرَى النَّقدُ لِلكَشفِ عَن رُمُوزِهِ، وَاستِجلَاءِ خَفَايَاهُ غَيرِ المُعلَنَةِ، عَبرَ مَقُولَاتٍ إجرَائِيَّةٍ خَاصَّةٍ، وَآلِيَّاتٍ شَكَّلَت بِمَجمُوعِهَا مَا يُعرَفُ بِـ(المَنهَجِ)، وَبِاختِلَافِ المَقُولَاتِ وَالآلِيَّاتِ، تَختَلِفُ المَنَاهِجُ، فَإنَّ لِكُلِّ مَنهَجٍ تَوَجُّهًا إجرَائِيًّا خَاصًّا.

لَقَد تَنَاوَلتُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ مَوضُوعَ **(صور الفقدِ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأمَوِيَّةِ) فِي الفَترَةِ مِن (١٣٨هـ – ٤٢٢هـ).**

وَتَهدُفُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إلَى دِرَاسَةِ أسَالِيبِ الشُّعَرَاءِ الأندَلُسِيِّينَ فِي الفَترَةِ المَدرُوسَةِ؛ لِإضَاءَةِ هَذِهِ المِسَاحَةِ مِنَ الإبدَاعِ الشِّعرِيِّ، وَلَيسَ الإبدَاعُ الشِّعرِيُّ مِن جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، بَل جَانِبٌ وَاحِدٌ مِنهُ، وَهُوَ جَانِبُ الفَقدِ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأمَوِيَّةِ.

وتَحمِلُ قِصَّةُ الأندَلُسِ أعظَمَ القَصَصِ التَّارِيخِيَّةِ، فَفِيهَا العِبَرُ وَالعِظَاتُ، بِشَكلٍ يَحمِلُ المَشَاعِرَ إلَى تَضَارُبَاتٍ عَنِيفَةٍ، مَا بَينَ الفَقدِ وَالأسَى وَالفَخرِ بِالكَرَامَةِ وَالاعتِزَازِ، وَهُنَا تَتَجَلَّى حِكمَةُ التَّارِيخِ وَالتَّأرِيخِ، فَقَد دَخَلَ الإسلَامُ بِلَادَ الأندَلُسِ مُنذُ عَامِ **92ه**، وَاستَمَرَّ حُكمُ المُسلِمِينَ بِهَا حَتَّى عَامِ **897ه**، وَهِيَ حِقبَةٌ طَوِيلَةٌ، شَهِدَت أحيَانًا قُوَّةَ المُسلِمِينَ، وَأحيَانًا أُخرَى ضَعفًا وَتَخَاذُلًا، إلَى أن سَقَطَت مُدُنُ الأندَلُسِ وَاحِدَةً تِلوَ الأُخرَى، فِي يَدِ **(فِرنَاندُو)**، وَكَانَت مَدِينَةُ غَرنَاطَةَ آخِرَ مَا سَقَطَ مِنَ الأندَلُسِ، حِينَ استَلَمَ فِرنَاندُو مَفَاتِيحَ المَدِينَةِ مِن آخِرِ مُلُوكِ عَصرِ بَنِي الأحمَرِ، وَهُوَ **أبُو عَبدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الصَّغِيرُ**، الَّذِي بَكَى وَقتَ خُرُوجِهِ مِن غَرنَاطَةَ، فَعَنَّفَتهُ أُمُّهُ **(عَائِشَةُ الحُرَّةُ)**، وَقَالَت لَهُ: "ابكِ بُكَاءَ النِّسَاءِ مُلكًا لَم تَحفَظهُ حِفظَ الرِّجَالِ"، وَسُمِّيَ المَكَانُ إلَى الآنَ فِي إسبَانيَا (بُكَاءُ العَرَبِيِّ)[1].

لَم تَعرِفِ الأندَلُسُ استِقرَارًا إلَّا مَعَ حُكمِ **عَبدِ الرَّحمَنِ الدَّاخِلِ** المُلَقَّبِ بِـــ**(صَقرِ قُرَيشٍ)**، الَّذِي فَرَّ مِن جُيُوشِ العَبَّاسِيِّينَ فِي الشَّرقِ، وَأسَّسَ دَولَةَ الأمَوِيِّينَ فِي الأندَلُسِ، وَأعلَنَ استِقلَالَهُ بِهَا، وَقَد تَمَكَّنَ الأمَوِيُّونَ مِنَ البَقَاءِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَلَكِن مَا لَبِثَ أن تَكَوَّنَتِ الإمَارَاتُ الصَّلِيبِيَّةُ فِي الشَّمَالِ، فَقَامَتِ الحُرُوبُ وَالثَّورَاتُ الدَّاخِلِيَّةُ، الَّتِي تُهَدِّدُ أمنَ البَلَدِ وَاستِقرَارَه، وَاستَطَاعَ عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ، وَأحفَادُهُ مِن بَعدِهِ، إخمَادَ كُلِّ تِلكَ الحُرُوبِ بِالذَّكَاءِ وَالمَكرِ أحيَانًا، وَأحيَانًا أُخرَى بِالقُوَّةِ.

يَأتِي السُّؤَالُ: كَيفَ خَرَجَ المُسلِمُونَ مِنَ الأندَلُسِ؟ وكَيفَ ضَاعَ الفِردَوسُ؟ وكَيفَ فَقَدنَا ثَمانمائَة سَنَةٍ مِنَ الإسلَامِ؟ لَم يَحدُث ذَلِكَ فِي أيِّ بَلَدٍ إسلَامِيٍّ آخَر، ولَا أيِّ بَلَدٍ عَرَبِيٍّ، وَالسِّرُّ هُوَ الوَحدَةُ الوَطَنِيَّةُ، إنَّ الأندَلُسِيِّينَ لَم يَكُونُوا يَعُدُّونَ أنفُسَهُم أهلًا لِهَذِهِ الأرضِ، فَدَائِمًا مَا كَانُوا يُرَدِّدُونَ أَلفَاظَ العُنصُرِيَّةِ بِكُلِّ عُنجُهِيَّةٍ، فَنَسمَعُ: أنَا أُمَوِيٌّ، أنَا يَمَنِيٌّ، أنَا مَغرِبِيٌّ، أنَا بَربَرِيٌّ، أنَا مَسِيحِيٌّ، لَكِنَّهُم أبَدًا مَا قَالُوا: أنَا أندَلُسِيٌّ، إلَّا فَتَرَاتٍ قَلِيلَةٌ مِثلَ أيَّامِ ابنِ حَزمٍ، لَقَد رَأوا أنفُسَهُم طَوَائِفَ، فَمَا جَزَاءُ التَّهَاوُنِ فِي الوَحدَةِ الوَطَنِيَّةِ، إلَّا السُّقُوطُ وَالضَّيَاعُ.

يَقتَصِرُ مَوضُوعُ دِرَاستِي عَلَى عَصرِ الدَّولَةِ الأمَوِيَّةِ فِي الأندَلُسِ، فِي الفَترَةِ مِن (138ه- 422ه) الَّتِي تَأسَّسَت عَلَى يَدِّ (عَبدِ الرَّحمَنِ الدَّاخِلِ)، وَاتَّسَمَت بِكَثرَةِ الثَّورَاتِ وَالنَّفيِ وَالاستِبعَادِ وَالغُربَةِ، وَعَدَمِ الاستِقرَارِ، وَالقَتلِ وَالتَّهجِيرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي مَعنَى الفَقدِ، فَكَانَ ذَلِكَ دَافِعًا قَوِيًّا لِإنشَادِ الشِّعرِ، فَانبَرَى كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ لِلتَّعبِيرِ عَن النَّفسِ وَآلَامِهَا، كَمَا عَبَّرُوا عَن مُعَانَاتِهِمُ الشَّخصِيَّةِ بِمُختَلِفِ أسبَابِهَا، فَخَرَجَت هَذِهِ الصُّورَةُ الأصِيلَةُ، أعنِي الفَقدَ.

[1] نَفحُ الطِّيبِ مِن غُصنِ الأندَلُسِ الرَّطِيبِ، 541/4.

Faculty of Arts, Arish University

مِن بَين هَؤُلاءِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ تَنَاوَلَتْهُم بِالدِّرَاسَةِ والبَحثِ، وكَانَت أشعَارُهُم تَتَمَيَّزُ بِالصِّدقِ الوجدَانِي، ورَتَّبتُهُم تَرتِيبًا تَصَاعُدِيًّا: عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ (صَقرُ قُرَيشٍ) (ت172ه)، يَحيَى بنُ الحَكَمِ الجَيَّانِي (ت250ه)، ابنُ عَبدِ رَبِّهِ (ت328ه)، أبُو بَكرٍ الزُّبَيدِي (ت379ه)، مُحَمَّدٌ القَحطَانِي (ت379ه)، يَحيَى بنُ هُذَيل (ت389ه) يُوسُفُ بنُ هَارُون الرَّمَادِي (ت403ه)، ابنُ دَرَّاجٍ القَسطَلِي (ت421ه)، ابنُ شُهَيد (ت426ه)، ابنُ حَزم (ت456ه)، أبُو إسحَاقٍ الإلبيري (ت459ه)، ابنُ زَيدُون (ت463ه)، ابنُ الحَدَّادِ الأندَلُسِيُّ (ت480ه)، عَبدُ اللهِ بنُ فَرَجٍ اليَحصُبِيُّ المُلَقَّبُ بِـ (ابن العَسَّال) (ت487ه).

تَفِيضُ قَصَائِدُ كَثِيرٍ مِن هَؤُلاءِ الشُّعَرَاءِ، بِالتَّحَسُّرِ وَالتَّفَجُّعِ بِالبُكَاءِ عَلَى فَقدِ الأهلِ وَالأحبَابِ وَالوَطَن، وَفَقدِ أنفُسِهِم، وَمِنَ المَعلُومِ أنَّ المُبدِعَ فِي مَيدَانِ الأدَبِ يَعتَمِدُ عَلَى اللُّغَةِ، بِوَصفِهَا الأسَاسَ الَّذِي يَرجِعُ إلَيهِ فِي وَصفِ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِهِ، وَيَختَمِرُ فِي نَفسِهِ، فَاللُّغَةُ هِيَ الدَّالَّةُ، وَهِيَ الآلَةُ، وَهِيَ المَعبَرُ.

أسبَابُ اِختِيَارِ المَوضُوعِ، مِنهَا:

١- دِرَاسَةُ الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ بِحَاجَةٍ إلَى نَظرَةٍ جَدِيدَةٍ، وَطُرُقٍ مُتَنَوِّعَةٍ مِن حَيثُ البَحثُ وَالدِّرَاسَةُ، تَستَمِدُّ مُنجَزَهَا الدَّلَالِيَّ مِن حُقُولٍ مَعرِفِيَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ، تُعِينُ عَلَى الإلمَامِ بِالبِنَاءِ الشِّعرِيِّ، وَفَهمِ مُحتَوَاهُ النَّصِّيِّ، فَنَحنُ بِحَاجَةٍ إلَى تَحلِيلٍ أُسلُوبِيٍّ، لِدِرَاسَةِ مُكَوِّنَاتِ القَصَائِدِ الشِّعرِيَّةِ، وَحَاجَتَنَا نَفسَهَا إلَى تَحلِيلٍ وَصفِيٍّ، لِفَكِّ شَفَرَاتِ الإبدَاعِ الشِّعرِيِّ المُختَلِفَةِ.

٢- الرَّغبَةُ فِي دِرَاسَةِ هَذَا العَصرِ، وَهَذِهِ الأنوَاعِ مِنَ الفَقدِ، الَّتِي بَرَزَت وَشَكَّلَت هَاجِسًا قَوِيًّا لَدَى نُفُوسٍ كَثِيرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ.

٣- قِلَّةُ الدِّرَاسَاتِ الأدَبِيَّةِ الَّتِي تَنَاوَلَت مَوضُوعَ الفَقدِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، وَبِصِفَةٍ خَاصَّةٍ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ.

أمَّا أهَمِيَّةُ المَوضُوعِ:

فَقَد جَاءَت أهَمِيَّةُ المَوضُوعِ وَفقَ مَجمُوعَةٍ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ، أُوَضِّحُهَا فِي الآتِي:

١- الكَشفُ عَن قَوَانِينِ الإبدَاعِ فِي بِنيَةِ الخِطَابِ الأدَبِيِّ، بِوَصفِهِ نَصًّا ذَا مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ، تَكشِفُ عَن أدَبِيَّةِ النُّصُوصِ الشِّعرِيَّةِ، وَلِلكَشفِ عَنِ المَحَاوِرِ الرَّئِيسَةِ فِي جَسَدِ النَّصِّ، كَمَا تَزدَادُ أهَمِّيَّتُهُ، أيضًا، لِكَونِهِ أدَبًا أندَلُسِيًّا نَفخَرُ بِإبدَاعِيَّتِهِ، وَنَعُدُّهُ مِنَ الكُنُوزِ الثَّمِينَةِ الَّتِي تُثرِي المَكتَبَةَ العَرَبِيَّةَ.

٢- أنَّ الشَّاعِرَ بَعدَ أن قَالَ قَصِيدَتَهُ، لَم يَدرِس الدِّرَاسَةَ الأُسلُوبِيَّةَ الَّتِي ضَمَّت مَزَايَا شِعرِهِ، الأمرُ الَّذِي دَعَانِي لِاختِيَارِ المَوضُوعِ، لِيَكُونَ مَجَالَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ.

أهدَافُ الدِّرَاسَةِ:

١- تَهدِفُ إلَى تَطبِيقِ الدِّرَاسَةِ الأُسلُوبِيَّةِ عَلَى شِعرِ الفَقدِ الأندَلُسِيِّ، وَإظهَارِ خَفَايَا النَّصِّ الشِّعرِيِّ مِن خِلَالِ مَنهَجِ الدِّرَاسَةِ، وَاستِنبَاطِ خَصَائِصِ التَّركِيبِ الشِّعرِيِّ.

2- ظَاهِرَةُ الفَقدِ ظَاهِرَةٌ تَعِيشُ مَعَنَا فِي كُلِّ العُصُورِ، طَالَمَا وُجِدَ الإنسَانُ فَلَا بُدَّ مِن وُجُودِ المَوتِ وَالأحزَانِ.

3- مُحَاوَرَةُ الصُّورَةِ الشِّعرِيَّةِ فِي شِعرِ الفَقدِ الأندَلُسِيِّ، لِبَيَانِ أثَرِهَا فِيهَا، وَتَقَرُّدِهَا بِمَعَانِي الحَسرَةِ، وَالأَلَمِ النَّفسِيِّ.

أمَّا مَنهَجُ الدِّرَاسَةِ:

فَانتَهَجتُ **المَنهَجَ الأُسلُوبِيَّ**، الَّذِي يَهتَمُّ بِالبِنيَةِ اللُّغَوِيَّةِ، وَالرَّكَائِزِ الأُسلُوبِيَّةِ، وَالتَّرَاكِيبِ الإسنَادِيَّةِ، وَالتَّحلِيلِ وَالدِّرَاسَةِ.

الدراسات السابقة:

تَوَصَّلتُ بِالبَحثِ عَنِ الدِّرَاسَاتِ العِلمِيَّةِ حَولَ (صور الفقد فِي الشِّعر الأندَلُسِيِّ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ) إلَى عِدَّةِ دِرَاسَاتٍ هِيَ:

١- **شِعرُ التَّعَازِي وَالقُبُور فِي الأندَلُس-المَحَاورُ وَالسِّمَاتُ الفَنِّيَّةُ**، أنوَر يَعقُوب زَمَان، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، الرِّيَاضُ، جَامِعَةُ أُمِّ القُرَى، كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، 1432ه- 2011م، وَاشتَمَلَتِ الرِّسَالَةُ عَلَى فَصلَين، وَقَد أجرَى البَاحِثُ إجرَاءً لِشِعرِ التَّعَازِي وَالقُبُور، مُطَبِّقًا السِّمَاتِ الفَنِّيَّةِ، وَمُستَخدِمًا المَنهَجَ الوَصفِيَّ، لِإبرَازِ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ شِعرُ العَزَاءِ، وَالشِّعرُ الَّذِي قِيلَ عِندَ القُبُور.

Faculty of Arts, Arish University

٢- **الشِّعرُ العَرَبِيُّ فِي رِثَاءِ الدُّوَلِ وَالأَمصَارِ حَتَّى نِهَايَةِ سُقُوطِ الأَندَلُس**، شَاهِر عَوَض الكَفَاوِين، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، الرِّيَاضُ، جَامِعَةُ أُمِّ القُرَى، كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، 1404ه-1984م، وَقَد تَكَوَّنَتِ الرِّسَالَةُ مِن ثَلَاثَةِ أَبوَابٍ، وَاشتَمَلَ كُلُّ بَابٍ عَلَى ثَلَاثَةِ فُصُولٍ، وَتَتَّسِمُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِاتِّسَاعِ الفَترَةِ الزَّمَنِيَّةِ، لِدَرَجَةِ أَنَّ البَاحِثَ خَصَّصَ الفَصلَ الثَّانِيَ مِنَ البَابِ الأَوَّلِ فَقَط لِتَنَاوُلِ (رِثَاءِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ)، مِن صَفحَةِ 51- 64.

٣- **تَطَوُّرُ فَنِّ الرِّثَاءِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ بَينَ المَشرِقِ وَالأَندَلُس**، خَالِدَةُ مُحَمَّدُ إِبرَاهِيمُ الشَّايِقِي، رِسَالَةُ مَاجِستِير، الخُرطُومُ، جَامِعَةُ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالعُلُومِ الإِسلَامِيَّةِ، كُلِّيَّةُ الدِّرَاسَاتِ العُليَا، 2000م، وَاشتَمَلَت الرِّسَالَةُ عَلَى أَربَعَةِ فُصُولٍ، وَتَحَدَّثَتِ البَاحِثَةُ عَن نَمَاذِجَ مِن شِعرِ الرِّثَاءِ فِي المَشرِقِ وَالأَندَلُس مِن صَفحَةِ 135- 184.

4- **شِعرِيَّةُ الفَقدِ- قِرَاءَةٌ نَقدِيَّةٌ فِي مَرثِيَةِ إِبرَاهِيم بن المَهدِيِّ لِابنِهِ** (ت224ه)، أَحمَد رِزق المُتَوَلِّي، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، جَامِعَةُ المَنصُورَةِ، كُلِّيَّةُ التَّربِيَةِ، 2022م، اشتَمَلَتِ الرِّسَالَةُ عَلَى فَصلين، وَكُلُّ فَصلٍ حَوَى أَربَعَةَ مَبَاحِثَ، وَقَدِ اعتَمَدَ البَاحِثُ فِي دِرَاسَتِهِ عَلَى المَنهَجِ الوَصفِيِّ التَّحلِيلِيِّ، فِي تَحلِيلِ المَرثِيَةِ.

خُطَّةُ الدِّرَاسَةِ:

قُمتُ بِتَقسِيمِ الدِّرَاسَةِ وَفقًا لِمُقتَضَيَاتٍ بِعَينِهَا، وَقَد اِقتَضَت طَبِيعَةُ الدِّرَاسَةِ الأُسلُوبِيَّةِ أَن تَنقَسِمَ الدِّرَاسَةُ إِلى: مُقَدِّمَةٍ، وَتَمهِيدٍ، وَأربعة مباحث وخَاتِمَةٍ، وَثَبَتٍ لِلمَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ.

أَمَّا **التَّمهِيدُ**: فَقَد خُصِّصَ لِتَعرِيفِ الفَقدِ لُغَةً وَاصطِلَاحًا، وَنُبذَةٍ تَارِيخِيَّةٍ عَنِ الحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ فِي الأَندَلُس.

والمَبحَثُ الأَوَّلُ بِعُنوَانِ: الفَقدِ بِالمَوتِ.

وَالمَبحَثُ الثَّانِي بِعُنوَانِ: فَقدِ المَوطِنِ وَالأَهلِ.

وَالمَبحَثُ الثَّالِثُ بِعُنوَانِ: فَقدِ المَحبُوبَةِ.

وَالمَبحَثُ الرَّابِعُ بِعُنوَانِ: فَقدِ الذَّاتِ.

والخاتمة: اشتملت على أهم النتائج.

التَّمهِيدُ

أَوَّلًا: الفَقدُ لُغَةً وَاصطِلَاحًا:

وَرَدَ فِي لِسَانِ العَرَبِ "فَقَدَ الشَّيءَ يَفقِدُهُ فَقدًا وفِقدَانًا وَفُقُودًا، فَهُوَ مَفقُودٌ وفَقِيدٌ: عَدِمَهُ، وَأَفقَدَهُ اللهُ إِيَّاه. والفَاقِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي يَمُوتُ زَوجُهَا أَو وَلَدُهَا أو حَمِيمُهَا"[1]، لَقَد حَمَلَت مَادَّةُ (فَقَدَ) فِي ثَنَايَاهَا مَعَانِي الفِقدَانِ وَالمَوتِ وَالضَّيَاعِ.

وَإِذَا أَرَدنَا تَعرِيفَ الفَقدِ **اصطِلَاحًا**، فَلَن نَجِدَ لِلفَقدِ تَعرِيفًا اصطِلَاحِيًّا فِي مَعَاجِمِ العَرَبِيَّةِ، وَإِن كَانَ هُنَاكَ تَعرِيفَاتٌ مَوجُودَةٌ، لَكِنَّهَا لَم تُشِر إِلَى مَعنَى الفَقدِ اصطِلَاحًا[2]، وَنَذكُرُ بَعضَ التَّعرِيفَاتِ الَّتِي وَرَدَت فِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، حَيثُ وَرَدَ فِي مُعجَمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ: فَقَدَ الشَّيءَ: أَعنِي خَسِرَهُ وَضَاعَ مِنهُ وَعَدِمَهُ، مِثلَ فَقدِ الحُبِّ، وَفَقدِ الصَّدِيقِ، وَفَقدِ الشُّهرَةِ، وَفَقدِ الأَهلِ، وَالأَحبَابِ، وَأَفقَدَهُ الشَّيءَ أَعنِي: خَسَّرَهُ الشَّيءَ، أَي سَبَّبَ لَهُ الخَسَارَةَ، مِثلَ أَفقَدَهُ الصَّبرَ، وَأَفقَدَهُ المَالَ[3]، وَجَاءَ فِي الكُلِّيَّاتِ أَنَّ الفَقدَ هُوَ: "عَدَمُ الشَّيءِ بَعدَ وُجُودِهِ"[4]، فَكَثِيرًا مَا جَاءَت لُغَةُ الضَّادِ بِتَرَادُفَاتٍ لِلفَقدِ، وَلَكِن فِي النِّهَايَةِ المَعنَى وَاحِدٌ.

(1) لِسَانُ العَرَبِ، ابنُ مَنظُورٍ، تَحقِيقُ: عَبدِ اللهِ عَلِي الكَبِيرِ، مُحَمَّد أَحمَد حَسَب الله، هَاشِم مُحَمَّد الشَّاذِلِيِّ، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ج5، مَادَّةُ (فَ قَ دَ)، 3٤٤٣.

(2) يُرَاجَعُ، المُعجَمُ الأَدَبِيُّ، جَبُّور عَبدُ النُّورِ، بَيرُوتُ، دَارُ العِلمِ لِلمَلَايِينِ، ١٩٧٩م، ٢٩. مُعجَمُ المُصطَلَحَاتِ العَرَبِيَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالأَدَبِ، مَجدِي وَهبَة، كَامِلُ المُهَندِسِ، بَيرُوتُ، مَكتَبَة لُبنَان، ط٢، ١٩٨٤م، 318. مُعجَمُ المُصطَلَحَاتِ الأَدَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ، سَعِيد عَلُّوش، بَيرُوتُ، دَارُ الكِتَابِ اللُّبنَانِيِّ، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م. المُعجَمُ المُفَصَّلُ فِي الأَدَبِ، مُحَمَّد التُّونجِي، بَيرُوتُ، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، ط٢، ١٤١٩ه/١٩٩٩م، ٦٧٨/١.

(3) يُرَاجَعُ: مُعجَمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ، أَحمَد مُختَار عُمَر (ت1424ه)، القَاهِرَةُ، عَالَمُ الكُتُبِ، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م، 2/١٧٢٨– ١٧٢٩.

(4) الكُلِّيَّاتُ، الحُسَينُ الكَفَوِيُّ، تَحقِيقُ: عَدنَان دَروِيش، مُحَمَّدٌ المَصرِي، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط٢، ١٤١٩ه/١٩٩٨م، ٦٩٤.

Faculty of Arts, Arish University

ثانيًا: الحيَاةِ السِّيَاسِيَّةَ وَالثَّقَافِيَّةَ فِي الأندَلُس فِي عَصر الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ:

بَلَغَتِ الأنـدَلُسُ ذُروَةَ مَجدِهَا بَينَ سَنَتَي (300– 399ه)، وكَـانَ حُكَّـامُ قُرطُبَـة عَلَـى التَّـوَالِي هُم: عَبـدُ الـرَّحمَن النَّاصِـرُ (ت350ه) ثُمَّ ابنُهُ الحَكَمُ المُستَنصِرُ (ت366ه) ثُـمَّ الحَاجِبُ المَنصُورُ (ت392ه) ثُـمَّ ابنُـهُ عَبدُ المَلِكِ المُظَفَّرُ (ت399ه)، لَقَد تَمَتَّعَتِ الأنـدَلُسُ فِـي تِلـكَ المُـدَّةِ بِـالأمنِ وَالِاستِقرَار وَالرَّخَـاء، فَـازدَهَرَت سِيَاسِيًّا وثَقَافِيًّا وَعِلمِيًّا[1]،غَيـرَ أَنَّ دَوَامَ الحَـالِ مِـنَ المُحَالِ، فَانقَلَبَت رَأسًا عَلَى عَقِبٍ، وَبَدَأَ عَهدٌ جَدِيدٌ عَانَى فِيهِ أهلُهَا مُعَانَاةً شَدِيدَةً، فَقَد بَدَأَ هَذَا العَهدُ بِقَتلِ الحَاجِبِ عَبدِ الرَّحمَن بن الحَاجِبِ المَنصُور[2].

كَمَا أَثَّرَت هَذِهِ الأحدَاثُ عَلَى العُلَمَاءِ وَالأُدَبَاءِ بِالتَّهجِيرِ وَالمَوتِ، مِمَّا أَدَّى إلَـى تَزَعزُعِ قَوَاعِدِ النَّهضَـةِ العِلمِيَّـةِ وَالأدَبِيَّـةِ، الَّتِي ازدَهَرَت فِي عَهدِ النَّاصِرِ وَالمُستَنصِرِ وَالمَنصُور[3]، فَمَا كَـانَ مِـنَ الشُّعَرَاءِ إِلَّـا أن عَبَّرُوا عَن مَأسَاتِهِم بِشِعرٍ كُلُّـه أَلَمٌ وَحَسرَةٌ، عَلَى تِلكَ المُدُنِ الضَّائِعَةِ، لَقَد بَرَعَ الشُّعَرَاءُ فِي هَذَا الفَنِّ بَرَاعَةً مَشهُودَةً، أذكَت عَوَاطِفَهُم، وَمَضَت عَلَى جُرُوحِهِم.

ويُمَثِّـلُ الفَقـدُ صُـورَةً أَصِـيلَةً مِـن صُـوَرِ الحَيَـاةِ، لَـهُ دَلَالَتُـهُ وَرَمزِيَّتُـهُ، فَمِـن خِلَـالِ الشِّـعرِ يُمكِـنُ أَن نَشـعُرَ بِـالمَعنَى الحَقِيقِـيِّ مُتَجَدِّدًا، بِالقَفزِ عَلَى فَجوَةِ الأحزَانِ الَّتِي تَجعَلُ أحزَانَنَا أكثَرَ قَتَامَةً، وَيُعَبِّرَ الفَقدُ عَن صُورَةٍ حَقِيقِيَّةٍ صَـادِقَةٍ، تُرسَمُ عَلَـى وُجُـوهِ الشُّعَرَاءِ، بَل قُلُوبِهِم أوَّلًا، لِأنَّ الشَّاعِرَ يَصِلُ إِلَى حَالَةٍ تَتَجَرَّدُ فِيهَا النَّفسُ مِن جَمِيعِ العَوَائِقِ الَّتِي قد تَمنَـعُ المَشَـاعِرَ مِـنَ التَّعبِيـر بِصِدقٍ وَعَاطِفَةٍ جَيَّاشَةٍ، وَمِن ثَمَّ فَقَد جَاءَ شِعرُ الفَقدِ مُوَضِّحًا تِلكَ المَشَاعِرَ الَّتِي تَأَثَّرَت بِذَلِكَ الخَطبِ الجَلَل[4].

وَتَتَعَدَّدُ أنوَاعُ الفَقدِ وَتَختَلِفُ طَبِيعَتُهُ، فَمِن أنوَاعِ الفَقدِ الَّتِي ذَكَرتُهَا فِي مَوضُوعِي الفَقدُ بِالمَوتِ، وَفَقدُ المَوطِنِ وَالأهلِ، وَفَقدُ المَحبُوبَةِ، وَفَقدُ الذَّاتِ، فَالفَقدُ بِالمَوتِ مِن أعظَمِ المَصَائِبِ الَّتِي تَلحَقُ بِالشَّاعِرِ العَرَبِيِّ، لِأَنَّهُ بِطَبِيعَتِهِ صَاحِبُ مَشَـاعِرَ صَـادِقَةٍ، وَعَاطِفَةٍ جَيَّاشَةٍ، تُرغِمُهُ عَلَى الوَفَـاءِ وَالصِّدقِ، وَالبَقَـاءِ عَلَـى العَهدِ، وَقَد جَـاءَ فِـي الكِنَايَـةِ عَنِ المَـوتِ "أسـعَدَهُ اَللَّـهُ بِجِوَارِهِ" و"استَأثَرَ اَللَّهُ بِهِ"[5]، وَإِذَا مَا استَقرَأنَا شِعرَ الفَقدِ الأندَلُسِيِّ وَجَدنَا أَنَّ الشُّعَرَاءَ يُؤمِنُونَ بِالمَوتِ وحَتمِيَّتِهِ، وَلَـا خِلَـافَ عَلَـى ذَلِكَ بِمَا قَالُوهُ مِن شِعرٍ حَولَ هَذَا الصَّدَدِ[6].

وَيُعَدُّ فَقدُ المَوطِنِ وَالأهلِ شَدِيدَ الِالتِصَاقِ بِالعَاطِفَةِ الَّتِي اصطلَت بِجَمرِ الأسَى، وَاكتَوَت بِنَارِ الفَقدِ، وَوَهَجِ الفَجِيعَـةِ، فَذَلِكَ تَنفِيسٌ عَن تِلكَ المُعَانَاةِ، فَالوَطَنُ عَزِيزٌ لَدَى كُلِّ فَردٍ عَاشَ فِيهِ، لِأَنَّـهُ تَـأَثَّرَ بِـهِ، وَأَثَّرَ فِيـهِ، فَهُـوَ قِطعَـةٌ مِنـهُ مِثلَ الأهلِ وَالأبنَـاءِ تَمَامًا، وقَد يَكُونُ فِقدَانُهُم بِالمَوتِ يُصَدِّعُ القُلُوبَ وَالأوصَالَ وَالأعقَابَ[7].

كَمَا أَنَّ فَقدَ المَحبُوبَةِ يُعَدُّ مِنَ التَّجَارِبِ الإنسَانِيَّةِ الأصِيلَةِ، الَّتِـي تَمتَـازُ بِوَاقِعِيَّـةِ التَّجرِبَـةِ، وَصِدقِ المُعَانَـاةِ، "فَالحُـبُّ أَعَزَّكَ اَللَّهُ أَوَّلُهُ هَزلٌ وَآخِرُهُ جِدٌّ، دَقَّت مَعَانِيهِ لِجَلَالَتِهَا عَن أن تُوصَـف، فَلَا تُدرَكُ حَقِيقَتُهَـا إِلَّـا بِالمُعَانَـاةِ، وَلَـيسَ بِمُنكَـرٍ فِـي الدِّيَانَـةِ وَلَـا بِمَحظُورٍ فِي الشَّرِيعَةِ، إِذِ القُلُوبُ بِيَدِ اَللَّهِ ﷻ" [8].

يَنتَهِي الفَقدُ عِندَ فِقدَانِ الذَّاتِ، وَفَقدِ الشَّاعِرِ نَفسَهُ، فَالمُتَأَمِّلُ فِي تَارِيخِ الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، يَجِدُ أَنَّ مَوضُوعَ فَقدِ الـذَّاتِ مِحـوَرٌ مُهِمٌّ لَدَى كَثِيرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ الأندَلُسِيِّينَ.

---

(1) يُرَاجَعُ، دَولَةُ الإسلَامِ فِي الأندَلُسِ (الخِلَافَةُ الأُمَوِيَّةُ وَالدَّولَةُ العَامِرِيَّة)، مُحَمَّد عَبدُ اَللَّهِ عَنَان، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الخَانجِي، ط٤، ١٤١٧ه/١٩٩٧م، 448/1.

(2) يُرَاجَعُ، جَذوَةُ المُقتَبَسِ فِي تَارِيخِ عُلَمَاءِ الأندَلُسِ، أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّد بنُ فَتُّوح بن عَبدِ اللهِ الحُمَيدِي، (ت٤٨٨ه)، تَحقِيقُ: بَشَّار عَوَّادِ مَعرُوفِ، ومُحَمَّد بَشَّار عَوَّاد، تُونِسُ، دَارُ الغَربِ الإسلَامِيِّ، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م، ٣٨.

(3) يُرَاجَعُ، دَولَةُ الإسلَامِ فِي الأندَلُسِ (الخِلَافَةُ الأُمَوِيَّةُ وَالدَّولَةُ العَامِرِيَّةُ)، 440.

(4) يُرَاجَعُ، شِعرِيَّةُ الفَقدِ (قِرَاءَةٌ نَقدِيَّةٌ فِي مُرثِيَةِ إِبرَاهِيم بن المَهدِيِّ لِابنِهِ) (ت224ه)، أحمَد رِزق المُتَوَلِّي، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، جَامِعَةُ المَنصُورَةِ، 2022م، ٢٣- 24.

(5) الكِنَايَة وَالتَّعرِيضُ، أَبُو مَنصُور الثَّعَالِبِي (ت429ه)، تَحقِيقُ: أُسَامَة مُحَمَّد إِبرَاهِيم البحِيرِي، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الخَانجِي، 1418ه/1997م، 132.

(6) يُرَاجَعُ، المَوتُ فِي الفِكرِ الغَربِيِّ، جَاك شُورُوك، تَرجَمَةُ: كَامِل يُوسُف حُسَين، مُرَاجَعَةُ وَتَقدِيمُ: إِمَام عَبدِ الفَتَّاح إِمَام، الكُوَيتُ، عَالَمُ المَعرِفَةِ، 1984م، ١٩.

(7) يُرَاجَعُ، شَرحُ مَقَامَاتِ جَلَالِ الدِّينِ السُّيُوطِيِّ (ت911ه)، تَحقِيقُ: سَمِير مَحمُود الدُّرُوبِيِّ، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةُ، ١٩٨٩م، ٩٧٢/٢– ٩٧٣.

(8) طَوقُ الحَمَامَةِ فِي الأُلفَةِ وَالأُلَّافِ، اِبنُ حَزمٍ الظَّاهِرِيُّ (ت456ه)، تَحقِيقُ: إِحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشرِ، ط2، 1987م،103.

Faculty of Arts, Arish University

المَبحَثُ الأَوَّلُ: الفَقدُ بِالمَوتِ

يَأتِي فِي لِسَانِ العَرَبِ أَنَّ المَوتَ خَلَقٌ مِن خَلقِ اللَّهِ، وَالمَوتُ ضِدُّ الحَيَاةِ[1]، وَقِيلَ إِنَّ المَوتَ فِي كَلَامِ العَرَبِ يُطلَقُ عَلَيهِ السُّكُونُ، وَقَدَّرَ اَللَّهُ ﷻ المَوتَ عَلَى جَمِيعِ المَخلُوقَاتِ، سَوَاءً كَانَ إِنسَانًا أَو حَيَوَانًا أَو نَبَاتًا أَو جَمَادًا، كَقَولِهِ ﷻ: (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧) [الحَدِيدُ] وَعَلَينَا أَن نَعلَمَ أَنَّ حَيَاتَنَا الحَقِيقِيَّةَ لَم تَبدَأ (تَأَمَّلُوهَا)، لَقَد قَالَ اَللَّهُ ﷻ: (يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤) [الفَجرُ] لَم يَقُلِ اَللَّهُ ﷻ: فِي حَيَاتِي، بَل قَالَ: لِحَيَاتِي، حَيَاتُنَا لَم تَبدَأ، فِيهَا وَقفَةٌ لِلتَّأَمُّلِ فِي كَلَامِ اَللَّهِ ﷻ، لَقَد كَتَبَ اَللَّهُ عَلَى جَمِيعِ مَخلُوقَاتِهِ الفَنَاءَ وَتَفَرَّدَ سُبحَانَهُ بِالبَقَاءِ، قَالَ ﷻ: (كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧) [العَنكَبُوتُ] وَيُعَدُّ المَوتُ مِن أَفجَعِ المَصَائِبِ الَّتِي قَد يُبتَلَى بِهَا الإِنسَانُ بِسَبَبِ فَقدِ عَزِيزٍ لَدَيهِ، وَعَلَى الرَّغمِ مِن مُلَامَسَةِ الفَقدِ لِكُلِّ شُئُونِ الحَيَاةِ، وَوَضعِ بَصمَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا فِي الوُجُودِ، فَفِي كُلِّ يَومٍ نَكتَشِفُ مَا هُوَ مَجهُولٌ وَمَغمُورٌ، إِلَّا ظَاهِرَةً وَاحِدَةً، تُعَدُّ مِنَ الظَّوَاهِرِ الَّتِي وَقَفَ أَمَامَهَا العُلَمَاءُ، عَاجِزِينَ عَنِ الحَلِّ[2]، إِنَّهَا المَوتُ، فَقَد أَعطَوا المُحَاوَلَاتِ الكَثِيرَةَ، وَلَكِن دُونَ جَدوَى، فَلَم تُعطِهِم أَبحَاثُهُمُ الثِّمَارَ المَرجُوَّةَ، فَهُوَ لُغزٌ غَامِضٌ.

اِهتَمَّتِ الدِّيَانَاتُ وَالمِلَلُ بِمَوضُوعِ المَوتِ، لِمَا لَهُ مِن أَهَمِّيَّةٍ كَبِيرَةٍ، لَدَى كُلِّ دِيَانَةٍ سَمَاوِيَّةٍ، وَلَقَد عَرَّفُوا النَّومَ بِأَنَّهُ شَبِيهٌ بِالمَوتِ، أَو أَنَّهُ المَوتُ الأَصغَرُ، فَقَدَّمَ اليُونَانُ النَّومَ بِأَنَّهُ أَخٌ تَوأَمٌ لِلمَوتِ، كَذَلِكَ كِتَابُنَا الكَرِيمُ يَقُولُ بِأَنَّ النَّومَ هُوَ الوَفَاةُ الأُولَى لِلإِنسَانِ فِي الحَيَاةِ، وَلَكِنَّهَا وَفَاةٌ غَيرُ دَائِمَةٍ، يَقُولُ اَللَّهُ ﷻ: (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠) [الأَنعَامُ].

المَوتُ غَيرُ مُرتَبِطٍ بِزَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ مُعَيَّنٍ، فَالإِنسَانُ مِنَّا لَا يَدرِي أَينَ وَكَيفَ سَيَمُوتُ، مِن ذَلِكَ قَولُ اَللَّهِ ﷻ: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤) [لُقمَانُ] فَقَد أَفَاضَ القُرآنُ الكَرِيمُ فِي ذِكرِ المَوتِ، لِمَا لَهُ مِن أَثَرٍ عَظِيمٍ فِي إِجلَاءِ القَلبِ، وَتَهذِيبِ النَّفسِ، وَالخَوفِ مِن اَللَّهِ ﷻ.

وَعَلَينَا جَمِيعًا أَن نُكثِرَ مِن ذِكرِ المَوتِ، فَقَد رَوَى أَبُو هُرَيرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أَكثِرُوا مِن ذِكرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، مُفَرِّقِ الجَمَاعَاتِ..."[3] أَلَا وَهُوَ المَوتُ.

حَيَّرَ المَوتُ الشُّعَرَاءَ، فَجَعَلَهُم يَقِفُونَ بَينَ القُبُورِ حَائِرِينَ، مُتَأَمِّلِينَ المَوتَ، سَائِلِينَ عَن سِرِّهِ، فَالتَزَمُوا مَوقِفَ الشَّكِّ، الَّذِي لَم يَستَطِع عَالِمٌ أَو فَيلَسُوفٌ اكتِشَافَ سِرِّهِ، فَتَأَمَّلُوهُ كَمَا يَتَأَمَّلُونَ الحَيَاةَ الدُّنيَا، فَأَخَذَ حَيِّزًا كَبِيرًا فِي أَشعَارِهِم، لِأَنَّهُ يُنهِي حَيَاتَهُم، وَيُنَغِّصُ عَلَيهِم عِيشَتَهُم، وَيَأخُذُ مِنهُم أَعَزَّ النَّاسِ، وَيُيَتِّمُ الأَبنَاءَ وَيُفَرِّقُ الأَحبَابَ، وَيَهدِمُ اللَّذَّاتِ، وَمُؤَيِّمُ الأَزوَاجَ وَالزَّوجَاتِ[4]، وَالزَّوجَاتِ[4]، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ضَآلَتِهِم وَضَعفِهِم أَمَامَهُ، فَضلًا عَن جَهلِهِم بِحَقِيقَتِهِ.

تَأَثَّرَ الشُّعَرَاءُ بِالقُرآنِ الكَرِيمِ، فَفَهِمُوا مُصِيبَةَ المَوتِ، وَطَرِيقَةَ التَّعَامُلِ مَعَهَا، وَكَيفَ يَستَقبِلُهَا الإِنسَانُ بِالرِّضَا، فَيَقُولُونَ: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦) [البَقَرَةُ] لَقَد وَجَدُوا فِيهِ عَزَاءً عَمِيقًا لِنُفُوسِهِمُ الحَائِرَةِ، فَيَأتِي الوَعدُ الرَّبَّانِيُّ (أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧) [البَقَرَةُ] وَجَاءَ فِي أَشعَارِهِم مَا يَتَحَدَّثُ عَنِ المَوتِ، وَالمَعَانِي الإِسلَامِيَّةِ الَّتِي تُرَسِّخُ وَتُقَوِّي عَقِيدَةَ الوَاثِقِ بِاللَّهِ، وَجَاءَت فِي مَقطُوعَاتٍ مُنفَرِدَةٍ، أَو ضِمنَ أَغرَاضِهِم الشِّعرِيَّةِ، فَلَم يَجعَلُوا المَوتَ مَوضُوعًا رَئِيسًا فِي قَصَائِدِهِم، بَلِ الشَّاعِرُ الأَندَلُسِيُّ يَذكُرُهُ عَرَضًا فِي الرِّثَاءِ، أَو فِي حَالِ البُؤسِ[5].

---

[1] يُرَاجَعُ، لِسَانُ العَرَبِ، مَادَّةُ (م و ت).
[2] يُرَاجَعُ، المَوتُ وَالخُلُودُ فِي الأَديَانِ المُختَلِفَةِ، عِزَّت زَكِي، اَلقَاهِرَةُ، دَارُ النَّشرِ لِلكَنِيسَةِ الأُسقُفِيَّةِ، ١٩٧٣م، ٥٢.
[3] بُلُوغُ المَرَامِ مِن أَدِلَّةِ الأَحكَامِ، الحَافِظُ بنُ حَجَرِ العَسقَلَانِيّ (ت852ه)، تَحقِيقُ: مَاهِر يَاسِين الفَحل، القَاهِرَةُ، دَارُ القُدسِ، 1435ه/2014م، ٣٤.
[4] يُرَاجَعُ، القِيمَةُ الرُّوحِيَّةُ مِنَ الشِّعرِ العَرَبِيِّ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ، ثُرَيَّا عَبد الفَتَّاح مِلحِس، بَيرُوتُ، دَارُ اَلكِتَابِ اللُّبنَانِيِّ، 1950م، ٣٥٨.
[5] السَّابِقُ، ٣٤٩.

Faculty of Arts, Arish University

نُلاحِظُ أنَّ الشَّاعِرَ عِندَمَا تَمتَدُّ بِهِ الحَيَاةُ ويَصِلُ إِلَى أرذلِ العُمُرِ، يَتَحَدَّثُ فِي أَشعَارِهِ عَنِ المَوتِ، حَدِيثَ الوَعظِ، ونَجِدُهُ يَدعُو غَيرَهُ بِأن يُعرِضَ عَنِ اللَّذَّاتِ، ويَتَّبِعَ مَا أَمَرَ اَللَّهُ ﷻ بِهِ، ويَذكُرُ لَهُمُ المَوَاقِفَ، حَتَّى يَأخُذُوا مِنهَا العِبرَةَ وَالعِظَةَ، فَيَعلمُوا أَنَّهُم لَا يَأخُذُونَ مَعَهُم سِوَى مَا يَستُرُهُم وَهُم عَلَى خَشَبَةِ المَوتِ، ولَم يَأخُذُوا مِن أرضِهَا غَيرَ القَبرِ، فَكُلُّ هَذِهِ الأفكَارِ كَانَت كَفِيلَةً لِتَغيِيرِ حَيَاتِهِم وَالنَّظَرِ فِيمَا فَاتَ[1].

الإِنسَانُ بِطَبِيعَتِهِ يُحِبُّ الحَيَاةَ، ويَخَافُ عَلَى نَفسِهِ مِنَ المَوتِ، ولَكِن معَ مَتَاعِبِ الدُّنيَا قَد تَضِيقُ عَلَى الشَّاعِرِ سُبُلُ الحَيَاةِ، مُتَمَنِّيًا إِيَّاهُ أعنِي المَوتَ، لِأَنَّهُ لم يَعُد يَرَى فِي الحَيَاةِ مَا يَجعَلُهُ يَبقَى، فَكَانَ شُعَرَاءُ الأندَلُسِ بَينَ حُبِّ الحَيَاةِ وتَمَنِّي المَوتَ، فَمِنهُم مَن تَمَتَّعَ بِالدُّنيَا وحُبِّ الحَيَاةِ، ومِنهُم مَن تَرَكَ العَيشَ وَالِاستِقرَارَ، حَتَّى آخِرِ ثَانِيَةٍ مِن عُمرِهِ، ومِنهُم مَن يَتَعَرَّضُ لِلظُّلمِ بِكُلِّ أَشكَالِهِ، وَالشُّعُورِ بِالفَقدِ وَالحَسرَةِ مِن أجلِ عَزِيزٍ لَدَيهِ، فَنَجِدُهُم يَتَعَجَّلُونَ المَوتَ، فَلَم يَعُد هُنَاكَ مَا يَعِيشُونَ لِأجلِهِ، لَقَد أصبَحَ المَوتُ حَالَةً مُشتَهَاةً فِي لَحَظَاتٍ تَشتَدُّ فِيهَا الأزمَةُ الرُّوحِيَّةُ، بَينَ مَا يُرِيدُهُ الشَّاعِرُ مِن جِهَةٍ، ومَا يُرغِمُهُ عَلَيهِ الوَاقِعُ الفِعلِيُّ مِن جِهَةٍ أُخرَى[2].

المَوتُ وَدُنُوُّ الأجَلِ:

حِينَمَا يَتَقَدَّمُ الإِنسَانُ فِي العُمرِ، ويَشعُرُ بِدُنُوِّ أجَلِهِ، ونِهَايَةِ حَيَاتِهِ، يَتَقَرَّبُ إِلَى اَللَّهِ ﷻ ويَتَضَرَّعُ إِلَيهِ فِي خُشُوعٍ، طَالِبًا غُفرَانَهُ ورَحمَتَهُ الوَاسِعَةَ، فَلَا حِيلَةَ لَهُ سِوَى الدُّعَاءِ وطَلَبِ الرَّحمَةِ، لِأَنَّ فِكرَةَ المَوتِ أصبَحَت هِيَ المُسَيطِرَةَ عَلَيهِ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** (٢٤٦هـ- ٣٢٨هـ) فِي المَوتِ: [البَسِيطُ]

مَـــن لِـــــي إِذَا جُدتُ بَينَ الأهــلِ وَالوَلَـدِ   وكَـــــانَ مِنِّـــيَ نَحـوَ المَوتِ قِيْـــدُ يَـــــــــــدِ

وَالدَّمــــــعُ يَهمُـــــــلُ وَالأنفَـــــــاسُ صَاعِـــدَةٌ   فَالدَّمــعُ فِـــــــي صَبَبٍ وَالنَّفسُ فِي صُعُدِ

ذَاكَ القَضَاءُ الَّذِي لَا شَــــــيءَ يَصرِفُـــهُ   حَتَّـــــى يُفَـــرِّقَ بَيــــنَ الرُّوحِ وَالجَسَــــــــدِ[3]

تَقَدَّمَ العُمرُ بِابنِ عَبدِ رَبِّهِ وشَعَرَ بِدُنُوِّ أجَلِهِ، وتَذَكَّرَ المَوتَ فَخَفَقَ قَلبُهُ خَوفًا، وانهَارَت دُمُوعُهُ مُتَصَبِّبَةً، فَإِنَّ إِيمَانَهُ العَمِيقَ بِقَضِيَّةِ المَوتِ وحَتمِيَّتِهِ، جَعَلَهُ يَتَيَقَّنُ أَلَّا شَيءَ يَرُدُّ هَذَا القَدَرَ، فَنَجِدُهُ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا أهلَ ولَا ولَدَ ولَا سُلطَانَ يَنفَعُنَا، حَتَّى العُيُونُ لَم تَجُد بِالدُّمُوعِ خَفقًا وحُزنًا، بَل أصبَحَت جَامِدَةً قَاسِيَةً، ولَو جَادَت بِالدَّمعِ لَم يُفِد شَيئًا، عِندَمَا تَأتِي سَكَرَاتُ المَوتِ، فَإِنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ وحدَهُ فَحَسب هُوَ مَا يَنفَعُنَا.

ونُلَاحِظُ أَنَّ هُنَاكَ العَدِيدَ مِنَ التَّأمُّلَاتِ وَالأفكَارِ وَالمَعَانِي وَالصُّوَرِ، يُطَالِعُنَا بِهَا شُعَرَاءُ الأندَلُسِ تُجَاهَ المَوتِ، عَكَسَتهَا ثَقَافَتُهُم الشَّخصِيَّةُ، وتَجَارِبُهُم الخَاصَّةُ الَّتِي عَاشُوهَا، بِحَسَبِ تَوَجُّهَاتِهِم وأفكَارِهِم فِي أشعَارِهِم، كَأن يَكُونُونَ زُهَّادًا أو مُتَصَوِّفَةً أو شُعَرَاءَ مِن أهلِ الدُّنيَا.

الوَفَاءُ حَتَّى بَعدَ المَوتِ:

المَوتُ مِن أعظَمِ المَصَائِبِ الَّتِي تَمُرُّ عَلَى الإِنسَانِ، وَالأدهَى فِي ذَلِكَ أن يَفقِدَ الإِنسَانُ عَزِيزًا لَدَيهِ، ويَكُونَ قَدِ ارتَبَطَ بِهِ، وَأثَّرَ فِيهِ وتَأثَّرَ بِهِ، فَعِندَمَا يَفقِدُهُ، تَنقَلِبُ حَيَاتُهُ رَأسًا عَلَى عَقِبٍ، مُتَمَنِّيًا هُوَ، أيضًا، المَوتَ، بَل يُعَاجِلُهُ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ دَرَّاجٍ القَسطَلِّي** (٣٤٧هـ- ٤٢١هـ) **فِي مَوتِ أُمِّ هِشَامٍ**[4]: [المُتَقَارِبُ]

١- بَقَـــــــاءُ الخَلَائِـــــــــقِ رَهْـــنُ الفَنَـــــــاءِ   وَقَصْـــرُ التَّدَانِـــي وَشِيـــــكُ التَّنَائِـــــــــي

2- لَقَد حَــــــلَّ مَـــــن يَومُــــــهُ لِاقتِــــــرَابٍ   وَقَـــد حَـــــــانَ مَــــــن عُمــــرُهُ لِانتِهَـــــــاءِ

٣-هَــــــلِ المُلــــكُ يَملِكُ رَيـــبَ المَنُـــــونِ؟   أمِ العِــــــزُّ يَصرِفُ صَرفَ القَضَــــاءِ؟

٤- هُــــــوَ المَوتُ يَصــدَعُ شَمَـلَ الجَمِيعِ   وَيَكسُـــــــــــــو الرُّبُـــــــوعَ ثِيَابَ العَفَـــــــــاءِ

---

(1) يُرَاجَعُ، رِثَاءُ الأبنَاءِ فِي الشِّعرِ العَرَبِيِّ، مُخيمر صَالِح، عَمَّان، مَكتَبَةُ المَنَارِ، ١٩٨٠م، ١٥٠.

(2) يُرَاجَعُ، تَمَنِّي المَوتِ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، مَروَة شِحَاتَة مُحَمَّد اَلشّقرقِي، رِسَالَةُ مَاجِستِير، جَامِعَة دَمَنهُور، كُلِّيَّةُ الآدَابِ، ٢٠١٦م، ٣.

(3) دِيوَانُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ، جَمعُ وتَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ١٣٩٩ه/١٩٧٩م، ٥٢.

(4) هِيَ صُبحُ زَوجَةِ الحَكَمِ المُستَنصِرِ، وَأُمُّ وَالِدَة هِشَام المُؤَيَّدِ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ آنَذَاكَ، الدِّيوَانُ، 119.

Faculty of Arts, Arish University

٥- يَبُـــزُّ الحَيَـــاةَ ببَطـــشٍ شَدِيــدٍ وَيَلَقـــى النُّفُـــوسَ بِدَاءٍ عَيَـــاءِ
٦- أَلـــم تَـــرَ كَيـفَ استَبَـاحَـــت يَدَاهُ كَريـــمَ المُلُـوكِ وَعِلـــقَ السَّنَـــاءِ؟
٧- وَوَافَـــى بسَيِّـــدَةِ السَّيِّـــدَا تِ مَـــأوى البِلـــى وَمُنَـــاخ الفَنَـــاءِ
٨- هُـــوَ الرُّزءُ أَلـــوَى بعَـــزمِ القُلُـــوبِ مُصَابــــا، وَأَودى بحُســــنِ العَــزَاءِ
٩- فَمَـــا فِـــي العَـويـــلِ لَـــهُ مِـــن كفِيءٍ وَلَا فِـــي الدُّمُـــوعِ لَـــهُ مِـــن شِفَـــاءِ[1]

يُؤَكِّدُ ابنُ دَرَّاجٍ أَنَّ المَوتَ لَا يَلبَثُ أَن يَأتِيَ وَيُفَرِّقَ الشَّملَ، لَا يَستَطِيعُ أَحَدٌ أَن يَرُدَّهُ، أَو يَتَخَلَّصَ مِنهُ، لَا يَمنَعُهُ مَالٌ، وَلَا جَاهٌ وَلَا سُلطَانٌ، وَلَا يَنفَعُ مَعَهُ بُكَاءٌ أَو عَوِيلٌ، فَالكُلُّ يَشرَبُ مِن كَأسِ المَنُونِ، وَالمُتَأَمِّلُ فِي القَصِيدَةِ، يَجِدُهُ يَذكُرُ المَوتَ وَالحَيَاةَ وَحَوَادِثَ الدَّهرِ، وَيَستَشهِدُ بِحِكَمٍ وَأَمثَالٍ، فَيَظهَرُ الِاتِّجَاهُ الإِسلَامِيُّ وَاضِحًا فِي شِعرِهِ.

وَنَجِدُ ابنَ دَرَّاجٍ يَذكُرُ فِي البَيتِ الأَوَّلِ المَوَاعِظَ وَالحِكَمَ، فَيَقُولُ: إِنَّ المَوتَ أَمرٌ حَتمِيٌّ، لَا مَفَرَّ مِنهُ، وَإِنَّ لِكُلِّ إِنسَانٍ نِهَايَةً، فَإِذَا جَاءَ المَوتُ، لَا تُجدِي الدُّمُوعُ، وَلَكِن مَا عَلَيهِ هُوَ الصَّبرُ وَالتَّجَلُّدُ، فَمِن يَومِ أَن وُلِدَ الإِنسَانُ، وَهُوَ يَقتَرِبُ وَيَدنُو مِنَ المَوتِ خُطوَةً، وَيَبتَعِدُ عَنِ الحَيَاةِ الدُّنيَا خُطُوَاتٍ، فَلَا يَنفَعُ جَاهٌ وَلَا سُلطَانٌ، أَينَ المُلُوكُ وَأَينَ الجُندُ تَحرُسُهُم؟ أَصبَحَ كُلُّ ذَلِكَ كَالصِّفرِ؛ لَيسَ لَهُ قِيمَةٌ.

المَوتُ نَتِيجَةٌ مَنطِقِيَّةٌ، لِتَسَلسُلِ أَحدَاثِ الزَّمَانِ، فَلَا تُجدِي مَعَهُ المُقَاوَمَةُ، وَيَصِفُ ابنُ دَرَّاجٍ الموت، وكيف أنه يجتاح الخلائق فلا يُبقي على أحد منهم، لايمتنع منه أحد بمقامه ومنزله، ويصور هَولَ مُصِيبَةِ المَوتِ العُظمَى، وَالفَاجِعَةِ الَّتِي أَلَمَّت بِالنَّاسِ جَمِيعًا، وَيَصِفُ آثَارَ الفَقدِ فِي النَّاسِ، فَيُصَوِّرُ النِّسَاءَ وَقَد مَزَّقنَ الثِّيَابَ، وَالنَّائِحَةَ الثَّكلَى، وَالنَّائِحَةَ المُستَأجَرَةَ، وَارتَدَينَ لِبسَ الحِدَادِ، وَحَلَلنَ الشَّعرَ، فَكُلُّ هَذَا مِن عَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ، الَّتِي لَم يَعُد لَهَا أَثَرٌ.

ظَهَرَت بَرَاعَةُ ابنِ دَرَّاجٍ فِي اختِيَارِهِ الأَلفَاظَ، **فَنُلَاحِظُ تَأَثُّرَهُ بِآيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ**، فِي البَيتِ السَّادِسِ (أَلَم تَرَ كَيفَ؟)، فَهَذِهِ العِبَارَةُ تُحِيلُنَا إِلَى سُورَةِ الفِيلِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَحَكُّمِ ابنِ دَرَّاجٍ فِي عِبَارَاتِهِ، وَاختِيَارِ الأَلفَاظِ المُنَاسِبَةِ، فَجَاءَت العِبَارَاتُ خَادِمَةً لِلمَعنَى، مُنَاسِبَةً لِلمَوقِفِ الأَلِيمِ، لَم يَأتِ شُعُورُ الفَقدِ وَحِيدًا، أَوِ الإِحسَاسُ بِالفِرَاقِ وَالأَلَمِ بَعدَ المَوتِ مُنفَرِدًا، فَقَد شَارَكَ فِيهِ جَمِيعُ المُحِبِّينَ لِتِلكَ السَّيِّدَةِ، وَقَد خَفَّفَ هَذَا عَلَى شَاعِرِنَا حِملًا ثَقِيلًا، لِأَنَّهُ وَجَدَ مَن يُشَارِكُهُ الحُزنَ، وَيَبُثُّهُ أَلَمَ شَكوَاهُ.

هَاجِسُ الِاقتِرَابِ مِنَ المَوتِ:

تَدُلُّ قَصَائِدُ **ابنِ زَيدُونَ** (٣٩٤هـ- ٤٦٣هـ) عَلَى إِخلَاصِهِ لِنَوَايَاهُ الحَسَنَةِ، فَانعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى طَبِيعَةِ حَيَاتِهِ، وَتَأَثُّرِهِ بِفِكرَةِ الثَّوَابِ وَالعِقَابِ، مِمَّا يَجعَلُهُ دَائِمَ التَّفكِيرِ فِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ، وَالعَمَلِ لِهَذَا اليَومِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ فِي المَوتِ: [الرَّمَلُ]

إِنَّمَـــا يُكسِبُنَـــا الحُـــزنُ عَنَـــاءً لَا غَنَـــاءَ
أَنـــتَ طَـــبٌّ أَنَّ دَاءَ الـــمَـــوتِ قَـــد أَعيَـــا الـــدَّوَاءَ
فَتَـــأَسَّ إِنَّ ذَاكَ الـــخَطـــبَ غَـــالَ الأَنبِيَـــاءَ
وَسَيَفـــنَـــى المَـــلأُ الأَعـــلَـــى إِذَا مَـــا اللهُ شَـــاءَ[2]

يَقِفُ ابنُ زَيدُونَ عَاجِزًا أَمَامَ سُلطَانِ المَوتِ، حَائِرًا فِي تَفكِيرِهِ، مَعَ أَنَّهُ يَمتَلِكُ مَخزُونًا فِكرِيًّا وَثَقَافِيًّا وَدِينِيًّا وَتَجَارِبَ حَيَاتِيَّةً عَالِيَةً، فَإِنَّهُ لَا يَستَطِيعُ أَن يَقُولَ شَيئًا، وَحَاوَلَ أَن يَجِدَ حَلًّا لِحُزنِهِ، فَوَجَدَ أَنَّ المَوتَ لَا يَسلَمُ مِنهُ أَحَدٌ؛ يَنسَلُّ مُتَخَفِّيًا لَا يَدفَعُهُ الحُزنُ أَو دَوَاءُ الطَّبِيبِ، لَا يَستَطِيعُ الوَاحِدُ مِنَّا أَن يَقِفَ أَمَامَهُ صَامِدًا، فَيَقُولُ: إِنَّ المَوتَ لَا يَزِيدُ الإِنسَانَ إِلَّا حُزنًا وَهَمًّا، وَمَن يَظُنُّ غَيرَ ذَلِكَ فَهُوَ لَا يَدرِي بِعَاقِبَةِ الآخِرَةِ، فَمَهمَا فَعَلَ الطَّبِيبُ، وَقَدَّمَ كُلَّ وَسَائِلِ العِلَاجِ، فَإِنَّهُ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ لَا يَدفَع بِهِمَا قَضَاءُ اللَّهِ ﷻ وَقَدَرَهُ، فَحَتمًا الكُلُّ سَيَمُوتُ، حَتَّى المَوتُ نَفسُهُ سَيَمُوتُ، فَفِي الحَيَاةِ الآخِرَةِ؛ حَيَاةٌ بِلَا مَوتٍ، بَقَاءٌ دَائِمٌ لَا يَنقَطِعُ، هَكَذَا كَانَت رُؤيَةُ ابنِ زَيدُونَ فِي المَوتِ بَعدَ أَن تَقَدَّمَ بِهِ العُمرُ، وَأَصبَحَت فِكرَةُ المَوتِ، وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، آخِذَةً كُلَّ تَفكِيرِهِ.

[1] دِيوَانُ ابنِ دَرَّاجٍ القَسطلِي، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيهِ وَقَدَّمَ لَهُ: مَحمُود عَلِي مَكِّي، بَيرُوتُ، المَكتَبُ الإِسلَامِيُّ، ط٢، 1389هـ، 119- 120.
[2] دِيوَانُ ابنِ زَيدُون وَرَسَائِلُهُ، تَحقِيقُ: عَلِي عَبدِ العَظِيم، القَاهِرَةُ، دَارُ نَهضَةِ مِصر، 1957م، ٥٦٠.

Faculty of Arts, Arish University

غَلَبَةُ المَوتِ:

المُعتَضِدُ شَدِيدٌ فَتَّاكٌ غَرِيبُ الأَطوَارِ، لَقَّبَ نَفسَهُ بِأَمِيرِ المُؤمِنِينَ، وَتَشَبَّهَ بِأَبِي جَعفَرٍ المَنصُورِ العَبَّاسِيِّ، حَاوَلَ ابنُهُ وَلِيُّ عَهدِهِ إِسمَاعِيلُ التَّمَرُّدَ عَلَيهِ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَفَتَكَ، أَيضًا، بِمُعظَمِ المُقَرَّبِينَ مِنهُ، فَاستَغرَبَ النَّاسُ، كَيفَ استَطَاعَ وَزِيرُهُ ابنُ زَيدُونَ النَّجَاةَ مِن بَطشِهِ، وَقَد تَحَامَاهُ الأُدَبَاءُ وَأَهلُ العِلمِ لِخَشيَتِهِم مِنهُ[1]، وَفِي ذٰلِكَ **يَقُولُ ابنُ زَيدُونَ** فِي مَوتِ **المُعتَضِدِ بنِ عَبَّاد**: [الطَّوِيلُ]

غُشِيتَ! فَلَم تَغشَ الطِّرَادَ سَوَابِحٌ ... وَلَا جُرِّدَت بِيضٌ وَلَا أُشرِعَت سُمرُ[2]

وَلَا تَنَتِ المَحذُورَ عَنكَ جَلَالَةٌ ... وَلَا عَدَدٌ، دَثرٌ، وَلَا نَائِلٌ غَمرُ[3]

لَقَد دَهَتكَ المَنِيَّةُ يَا ابنَ عَبَّادٍ، فَلَم تَستَطِع دَفعَهَا جُيُوشُكَ بِخَيلِهَا وَرِمَاحِهَا وَسُيُوفِهَا، فَلَا حِيلَةَ فِي رَدِّ القَضَاءِ المَحتُومِ، يَعُدُّ ابنُ زَيدُونَ المَوتَ مُصِيبَةً، وَفَجِيعَةً كُبرَى، وَوَاقِعًا لَابُدَّ مِنهُ، لِأَنَّهُ كَأسٌ لَابُدَّ أَن يَشرَبَ مِنهُ الجَمِيعُ، لِذَا لَم تَكُن أَفكَارُهُ تَحمِلُ تَصَوُّرًا سَلبِيًّا تُجَاهَ المَوتِ، فَهُوَ يُؤمِنُ أَنَّ لِكُلِّ إِنسَانٍ أَيَّامًا مَعدُودَاتٍ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ، مَهمَا طَالَ بِهِ العَيشُ، فَلَابُدَّ وَأَن يَنَالَهُ تَيَّارُ المَوتِ وَيَجرُفَهُ.

الإِيمَانُ بِالموتِ:

يَقُولُ **ابنُ الحَدَّادِ (ت480ه)** فِي نَظرَتِهِ لِلمَوتِ: [الكَامِلُ]

إِنَّ المَنِيَّةَ لَيسَ يُدرَكُ كُنهُهَا ... فَتَوَافِدُ الإِفهَامِ قَد وَقَفَت هُنَا

فِي كُلِّ شَيءٍ لِلأَنَامِ مُحَذِّرٌ ... مَا كَانَ حَذَّرَهُ شُعَيبٌ مَديَنَا

وَحَيَاتُنَا سَفَرٌ وَمَوطِنُنَا الرَّدَى ... لَكِن كَرِهنَا أَن نُحِلَّ المَوطِنَا

وَالعَيشُ أَضنَاكَ إِن تَعَذَّرَ مَطلَبٌ ... كَم مِن ضِنَاكٍ فِي مَطَالِبِهِ ضَنَى

وَلَرُبَّمَا أَعطَى الزَّمَانُ مُقَادَهُ ... لَا تَيأَسَنَّ فَرُبَّ صَعبٍ أَمكَنَا

لَا بُدَّ أَن تَتَلُو الحَيَاةَ مَنِيَّةٌ ... مَن شَكَّ أَنَّ اليَومَ يُزجِي المَوهِنَا؟

لَا تَرجُ إِبقَاءَ البَقَاءِ عَلَى امرِئٍ ... كُلُّ النُّفُوسِ تَحُلُّ أَفنِيَةَ الفَنَا[4]

يَنظُرُ ابنُ الحَدَّادِ الأَندَلُسِيُّ إِلَى المَوتِ بِرُؤيَةٍ خَاصَّةٍ، فَيَرَى أَنَّ الإِنسَانَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا، مَهمَا أُوتِيَ مِن عُلُومِ الدُّنيَا وَمَعرِفَتِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَستَطِيعُ فَهمَ المَوتِ، فَفِي هَذِهِ اللَّحظَةِ يَقِفُ العَقلُ البَشَرِيُّ أَمَامَ حَقِيقَةِ المَوتِ وَجَوهَرِهِ، فَنَجِدُهُ يَقُولُ: إِنَّ المَوتَ خَيرُ مُحَذِّرٍ، لِمَا يَفعَلُهُ الإِنسَانُ، فَيَذكُرُ خَيرَ مِثَالٍ وَيَستَشهِدُ بِسَيِّدِنَا شُعَيبٍ عليه السلام حِينَمَا حَذَّرَ قَومَهُ مِن أَفعَالِهِم، وَذَكَّرَهُم بِعِقَابِ اللَّهِ، فَعَلِمَ ابنُ الحَدَّادِ أَنَّ الحَيَاةَ الدُّنيَا مَا هِيَ إِلَّا سَفَرٌ، وَالمَحَطَّةُ الأَخِيرَةُ هِيَ حَيَاتُنَا الأَبَدِيَّةُ (الحَيَاةُ الآخِرَةُ)، فَإِنَّنَا كَرِهنَا البَقَاءَ فِي هَذَا الوَطَنِ، وَإِنَّ هَذِهِ الحَيَاةَ لَابُدَّ وَأَن يَتلُوهَا المَوتُ، مِثلَمَا يَتلُو اللَّيلُ النَّهَارَ، وَأَصبَحَتِ الحَيَاةُ تَهُونُ فِي عَينِ ابنِ الحَدَّادِ، وَيَشعُرُ بِعَدَمِ جَدوَاهَا، مَهمَا طَالَ العُمرُ، فَبَعدَ انقِضَاءِ أَجَلِ الإِنسَانِ، يَكُونُ المَوتُ، وَهَذَا قَضَاءُ اللَّهِ ﷻ وَقَدَرُهُ.

فَالمَوتُ حَدَثٌ جَلَلٌ وَمَوضُوعٌ يُثِيرُ الأَلَمَ فِي الرُّوحِ الفَاقِدَةِ، وَيُضَيِّقُ النَّفَسَ، وَيُثقِلُ الصَّدرَ المَوجُوعَ عَلَى الفَقِيدِ، هَذَا الأَلَمُ أَظهَرَ صُوَرًا مُختَلِفَةً لِمَشَاعِرِ النَّاسِ، حَتَّى اختَلَفَت صُوَرُ تَعبِيرَاتِهِم عَن أَحزَانِهِم، وَهَذَا لَم يَكُن مُحَدَّدًا بِفَترَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَحِقبَةٍ خَاصَّةٍ، هُوَ بَدَأَ وَاستَمَرَّ عَبرَ العُصُورِ، وَكَانَت أَبرَزُ صُورَةٍ لَهُ هِيَ فَنُّ الرِّثَاءِ، وَخَاصَّةً فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، إِذ كَانَ لِهَذَا

---

(1) الوَافِي بِالوَفَيَاتِ، صَلَاحُ الدِّين الصَّفَدِي (ت 764 ه)، تَحقِيقُ: أَحمَد الأَرنَاؤُوطِ، وَتُركِي مُصطَفَى، بَيرُوت، دَارُ إِحيَاءِ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ، 1420ه/2000م، ٣٣١/١.

(2) غَشِيَهُ الخَطبُ؛ جَلَّلَهُ أَو دَهَمَهُ، الطِّرَادُ: القِتَالُ، السَّوَابِحُ، الخُيُولُ المُسرِعَةُ كَأَنَّهَا تَسبَحُ فِي الهَوَاءِ لِسُرعَتِهَا، البِيضُ: السُّيُوفُ، السُّمرُ: الرِّمَاحُ. الدِّيوَانُ، 564.

(3) نَفسُهُ.

(4) دِيوَانُ ابن الحَدَّادِ، جَمعُ وَتَحقِيقُ: يُوسُف عَلِي الطَّوِيل، بَيرُوت، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، 1990م، ٢٨٠- ٢٨١.

Faculty of Arts, Arish University

الغَرَض صَدًى كَبيرٌ فِي نُفُوسِ الآخَرينَ، لطَالَمَا استَخدَمُوهُ لِلتَّخفيفِ وَالتَّنفِيسِ عَن أَروَاحِهِمُ المُتَوَجِّعَةِ وَأَنفُسِهِمُ الحَزِينَةِ، وَالرِّثَاءُ هُوَ "فَنُّ المَوتِ، وَلُغَةُ الحُزنِ، وَمَجَالُ اليَأسِ، وَمَعرِضُ الوَفَاءِ"[1]، وَهُوَ عَلَى أَنوَاعٍ مُتَعَدِّدَةٍ، أَو خَاضِعٌ لِلتَّنَوُّعِ وَلِقَبُولِ مَعَانٍ أُخرَى مُتَّصِلَةٍ بِهِ، كَوَصفِ الكَارِثَةِ وَتَفخِيمِ آثَارِهَا، وَذِكرِ "فَضَائِلِ المَيِّتِ"[2]، فَهُوَ لَونٌ مِن أَلوَانِ الفَقدِ.

المَوتُ وَالصَّبرُ عَلَى فَقدِ الابنِ:

فَقدُ الِابنِ مُصِيبَةٌ كُبرَى، لَا تَتَحَمَّلُهَا إِلَّا النَّفسُ المُؤمِنَةُ بِقَضَاءِ اللَّهِ ﷻ وَقَدَرِهِ، فَقد قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قومًا ابتَلَاهُم، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ"**[3]، فَالأَبنَاءُ مِن أَعظَمِ النِّعَمِ عَلَى الأَبَوَينِ، لَا يَشعُرُ بِهَا إِلَّا مَن فَقَدَهَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** فِي مَوتِ ابنِهِ: [المُنسَرِحُ]

وَاكَبِدا قَد تَقَطَّعَت كَبِدِي ... وَحَرَّقَتهَا لَوَاعِجُ الكَمَدِ

مَا مَاتَ حَيٌّ لِمَيِّتٍ أَسَفًا ... أَعذَرُ مِن وَالِدٍ عَلَى وَلَدِ

يَا رَحمَةَ اللَّهِ جَاوِرِي جَدَثًا ... دَفَنتُ فِيهِ حُشَاشَتِي بِيَدِي

وَنَوِّرِي ظُلمَةَ القُبُورِ عَلَى ... مَن لَم يَصِل ظُلمُهُ إِلَى أَحَدِ

مَن كَانَ خِلوًا مِن كُلِّ بَائِقَةٍ[4] ... وَطَيِّبَ الرُّوحِ طَاهِرَ الجَسَدِ

يَا مَوتَ يَحيَى لَقَد ذَهَبتَ بِهِ ... لَيسَ بِزُمَّيلَةٍ وَلَا نَكِدِ[5]

يَا مَوتَهُ لَو أَقَلتَ عَثرَتَهُ ... يَا يَومَهُ لَو تَرَكتَهُ لِغَدِ

يَا مَوتُ لَو لَم تَكُن تُعَاجِلُهُ ... لَكَانَ لَا شَكَّ بَيضَةَ البَلَدِ

أَو كُنتَ رَاخَيتَ فِي العَنَانِ لَهُ ... حَازَ العُلَا وَاحتَوَى عَلَى الأَمَدِ[6]

أَيَّ حُسَامٍ سَلَبتَ رَونَقَهُ ... وَأَيَّ رُوحٍ سَلَلتَ مِن جَسَدِ

وَأَيَّ سَاقٍ قَطَعتَ مِن قَدَمٍ ... وَأَيَّ كَفٍّ أَزَلتَ مِن عَضُدِ

يَا قَمَرًا أَجحَفَ الخُسُوفُ بِهِ ... قَبلَ بُلُوغِ السَّوَاءِ فِي العَدَدِ

أَيُّ حَشًا لَم تَذُب لَهُ أَسَفًا ... وَأَيُّ عَينٍ عَلَيهِ لَم تَجُدِ

لَا صَبرَ لِي بَعدَهُ وَلَا جَلَدٌ ... فُجِّعتُ بِالصَّبرِ فِيهِ وَالجَلَدِ

لَو لَم أَمُت عِندَ مَوتِهِ كَمَدًا ... لَحُقَّ لِي أَن أَمُوتَ مِن كَمَدِي

يَا لَوعَةً مَا يَزَالُ لَاعِجُهَا ... يَقدَحُ نَارَ الأَسَى عَلَى كَبِدِي[7]

يَبكِي ابنُ عَبدِ رَبِّهِ وَلَدَهُ يَحيَى، فِي قَصِيدَتِهِ الدَّالِيَّةِ، وَقَدِ استَهَلَّ قَصِيدَتَهُ بِتَعبِيرٍ مُفجِعٍ حَزِينٍ، وَهُوَ (وَاكَبِدَاه)، وَاستَخدَمَ وَاوَ النُّدبَةِ، فَيَندُبُ وَلَدَهُ وَفِلذَةَ كَبِدِهِ، فَبِمَوتِ وَلَدِهِ قُطِّعَت كَبِدُهُ، هَذِهِ الكَبِدُ الَّتِي قَطَّعَهَا وَأَحرَقَهَا حُبُّهُ الشَّدِيدُ لِوَلَدِهِ، وَفَجِيعَتُهُ لِفَقدِهِ، كَمَا وُفِّقَ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ بِذِكرِهِ لَفظَ (الكَبِدِ) لَحظَةَ فَقدِهِ إِيَّاهُ، لِأَنَّ المُتَعَارَفَ عَلَيهِ عِندَ العَرَبِ، أَنَّ الوَلَدَ فِلذَةُ كَبِدِ الأَبِ، كَمَا أَنَّ العُلَمَاءَ

---

(1) الأُسلُوبُ- دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ لِأُصُولِ الأَسَالِيبِ الأَدَبِيَّةِ، أَحمَد الشَّايِب، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ النَّهضَةِ، ط٨، ١٩٩١م، ٨٥.

(2) نَفسُهُ.

(3) السُّنَنُ، التِّرمِذِيُّ (ت 297ه)، تَحقِيقُ: بَشَّار عَوَّاد مَعرُوف، بَغدَادُ، دَارُ الفَرَاهِيدِيِّ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّبرِ عَلَى البَلَاءِ، ١٩٩٦م، ٢٠٢/٤.

(4) بَاقَ فُلَانٌ: جَاءَ بِالشَّرِّ. والبَائِقَةُ مُفرَدُ البَوَائِقِ: الشَّرُّ والظُّلمُ، لِسَانُ العَرَبِ.

(5) الزُمَّيلَةُ: الجَبَانُ الضَّعِيفُ. ورَجُلٌ نَكِدٌ: شُؤمٌ عَسِر، السَّابِقُ.

(6) الأَمَدُ: الغَايَةُ، السَّابِقُ، مَادَّةُ (م د د).

(7) الدِّيوَانُ، ٦١- ٦٢.

Faculty of Arts, Arish University

أثبَتُوا حَديثًا أنَّ الحُزنَ الشَّدِيدَ يَرفعُ فُرَصَ الوَفَاةِ بِأمرَاضِ الكَبِدِ. بعد ذَلِكَ يَنتَقِلُ بِالدُّعَاءِ لَهُ، بِأن يَتَغَمَّدَهُ اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحمَتِهِ، وَيَطلُبُ أن تَكُونَ رُوحُهُ مُجَاوِرَةً لِقَبرِ ابنِهِ[1].

اِختَلَفَت دِرَاسَتِي عَن دِرَاسَةِ (شِعرِ التَّعَازِي وَالقُبُورِ فِي الأندَلُس)، لَقَد تَنَاوَلَ البَاحِثُ مِن هَذِهِ القَصِيدَةِ السَّابِقَةِ بَيتًا وَاحِدًا فَقَط بِالبَحثِ وَالدِّرَاسَةِ، وَهُوَ البَيتُ الثَّالِثُ، أمَّا هَذِهِ الدِّرَاسَةُ فَقَد تَنَاوَلَتُ فِيهَا القَصِيدَةَ كَامِلَةً، كَمَا اعتَمَدَ البَاحِثُ عَلَى المَنهَجِ الوَصفِيِّ التَّحلِيلِيِّ، وَهَذَا لَا يَتَمَاشَى مَعَ مَنهَجِ (الدِّرَاسَةِ الأسلُوبِيَّةِ) الَّذِي اعتَمَدتُ عَلَيهِ فِي دِرَاسَتِي، وَيَأتِي لَاحِقًا تَحلِيلُ هَذِهِ القَصِيدَةِ أسلُوبِيًّا، لِنَكشِفَ عَمَّا تَحمِلُهُ القَصِيدَةُ مِن خَبَايَا مَجهُولَةٍ.

يَنفُضُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ يَدَهُ مِن تُرَابِ قَبرِ ابنِهِ، وَيَعُودُ إلَى دَارِهِ كَمَا يَعُودُ القَائِدُ المُنكَسِرُ مِن سَاحَةِ المَعرَكَةِ، لَا يَملِكُ دَمعَةً يُرسِلُهَا، أو زَفرَةً يُصَعِّدُهَا، لَقَد دَفَنتُكَ اليَومَ يَا بُنَيَّ، وَدَفَنتُ مِن قَبلِكَ رُوحِي، فَيَا لِلَّهِ لِنَفسٍ قَد لَاقَت فَوقَ مَا تُلَاقِي النُّفُوسُ، وَاحتَمَلَت فَوقَ مَا تَحتَمِلُ القُلُوبُ مِن فَوَادِحِ الخُطُوبِ، لَقَد رَزَقَنِي اللَّهُ ﷻ إيَّاكَ دُونَ أن أسألَهُ، ثُمَّ استَلَبَكَ مِنِّي قَبلَ أن أعفِيَهُ مِنكَ، لَقَد أرَادَ اللَّهُ أن يُتَمِّمَ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ، فِي أن يُجَرِّعَنِيَ الكَأسَ حَتَّى ثُمَالَتَهَا، فَحَرَمَنِي دَمعَةً أرسِلُهَا إلَيكَ، أو زَفرَةً أصَعِّدُهَا، فَلَا أجِدُ مَا أتَفَرَّجُ بِهِ مِمَّا أنَا فِيهِ، فَاللَّهُمَّ صَبرًا[2].

يَذكُرُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ شَمَائِلَ ابنِهِ وَمَحَاسِنَهُ الَّتِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهَا فِي الدُّنيَا، فَيَقِفُ مُتَعَجِّبًا مِن ذَلِكَ المَوتِ، كَيفَ أخَذَ مِنهُ ابنَهُ وَفِيهِ تِلكَ الصِّفَاتُ، فَيُحَدِّثُ نَفسَهُ، لِمَاذَا كَانَ مُتَعَجِّلًا فِي تَنفِيذِ حُكمِهِ، فَلَو لَم يُقَدَّر لَهُ المَوتُ لَكَانَ أفضَلَ النَّاسِ وَأحسَنَهُم، استَخدَمَ الشَّاعِرُ(لو)، لِيُؤَكِّدَ استِحَالَةَ عَودَتِهِ، فَهُوَ بِذَلِكَ يَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ (لو قُلتُ...، لو تَرَكتُهُ...)، وَبَعدَ ذَلِكَ يُعَاتِبُ المَوتَ الَّذِي خَطَفَ مِنهُ ابنَهُ، فَكَانَ الشَّاعِرُ يَرَى ابنَهُ فِي المُستَقبَلِ ذَا شَأنٍ عَظِيمٍ، وَيُشَبِّهُ ابنَهُ بِالقَمَرِ الَّذِي عَاجَلَهُ الخُسُوفُ قَبلَ الِاكتِمَالِ، لَقَد نَفَدَ صَبرُهُ، وَضَاقَ صَدرُهُ مِن هَذَا الصَّبرِ، فَقَد مَلَّ الصَّبرُ مِن صَبرِهِ، فَابنُ عَبدِ رَبِّهِ إن لَم يُقَدَّر لَهُ المَوتُ مِن بَعدِهِ، لَمَاتَ حُزنًا وَقَهرًا مِن فِرَاقِ ابنِهِ لَهُ، وَتَكرَارُ كَلِمَةِ (كَبِدِي)، لِيُبَيِّنَ كَمَّ الحُزنِ الَّذِي يَشعُرُ بِهِ فِي غِيَابِ ابنِهِ عَنهُ، فَالشَّاعِرُ فِي حَالَةٍ مِن عَدَمِ الِاستِقرَارِ النَّفسِيِّ وَالفِكرِيِّ، مِن هَولِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ [3].

أجنِحَةُ الصَّدَاقَةِ، وَمَخَالِبُ الوَدَاعِ:

عِندَمَا يَفقِدُ الإنسَانُ صَدِيقًا عَزِيزًا عَلَيهِ، يَبحَثُ عَن كَلَامٍ، لِكَي يُعَبِّرَ عَمَّا يَشعُرُ بِهِ مِن حُزنٍ وَألَمٍ، وَذَلِكَ هُوَ مَا فَعَلَهُ **ابنُ حَزمٍ** (٣٨٤- ٤٥٦هـ) حِينَ مَاتَ صَدِيقُهُ، لَم يَجِد سِوَى الشِّعرِ يَبُثُّ فِيهِ آلَامَهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ: [المُتَقَارِبُ]

لَئِن سِترَتكَ بُطُونُ اللُّحُودِ ... فَوَجدِي بُعَيْدَكَ لَا يَستَتِرْ

قَصَدتُ دِيَارَكَ قَصدَ المَشُوقِ ... وَلِلدَّهرِ فِينَا كُرُورٌ وَفَرّْ

فَأَلفَيتُهَا مِنكَ قَفرًا خَلَاءً ... فَأسكَبتُ عَينِي عَلَيكَ العِبَرْ [4]

مِن خِلَالِ الأبيَاتِ يَتَبَيَّنُ أنَّ ابنَ حَزمٍ يَتَألَّمُ عَلَى فَقدِ صَدِيقِهِ ألَمًا شَدِيدًا، فَرَثَى الفَقِيدَ بِأبيَاتٍ تَفِيضُ أسًى وَلَوعَةً، يَصِفُ فِيهَا وَجدَهُ الَّذِي لَا يُمكِنُ أن يُخفِيَهُ، حَتَّى إن كَانَت غَيبَتُهُ جَعَلَتهُ فِي عَالَمٍ آخَرَ، فَكَانَ الحِوَارُ مَعَ صَاحِبِهِ وَكَأنَّهُ عَلَى قَيدِ الحَيَاةِ، يُصَوِّرُ سَاعَةَ زِيَارَةِ بَيتِهِ بِلَهفَةٍ وَفَرحَةٍ، وَلَكِن هَكَذَا الدُّنيَا، لَم يَبقَ عَلَى حَالٍ لَهَا شَأنٌ، فَقَضَاءُ اللَّهِ وَقَدَرُهُ لَا مَفَرَّ مِنهُ، وَصَارَ المَوتُ حَاجِزًا بَينَ المُحِبِّينَ، وَبَقِيَتِ الدَّارُ خَالِيَةً، سَائِلًا الدَّارَ عَمَّن كَانَ يَسكُنُهَا، حَتَّى انهَالَت دُمُوعُهُ وَسَالَت، وَقَطَعَ الحُزنُ نِيَاطَ قَلبِهِ[5].

---

(1) يُرَاجَعُ، شِعرُ التَّعَازِي وَالقُبُورِ فِي الأندَلُسِ (المَحَاوِرُ وَالسِّمَاتُ الفَنِّيَّةُ)، أنوَرُ يَعقُوبُ زَمَانُ، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، الرِّيَاضُ، جَامِعَةُ أمِّ القُرَى، كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، 1432هـ- 2011م، 43.

(2) يُرَاجَعُ، النَّظَرَاتُ والعَبَرَاتُ، مُصطَفَى لُطفِي المَنفَلُوطِي (ت1924م)، بَيرُوتُ، دَارُ الجِيلِ، 1404هـ/ 1984م، 450- 452.

(3) يُرَاجَعُ، الفِتَنُ وَالنَّكَبَات الخَاصَّة وَأثَرُهَا فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، فَاضِل فَتحِي مُحَمَّد وَالِي، الرِّيَاضُ، دَارُ الأندَلُسِ لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيعِ، ١٤١٦هـ، ٦٣- ٦٤.

(4) دِيوَانُ ابنِ حَزمٍ، تَحقِيقُ: صُبحِي رَشَادِ عَبدِ الكَرِيمِ، طَنطَا، دَارُ الصَّحَابَةِ لِلتُّرَاثِ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٨٨.

(5) يُرَاجَعُ، تَطَوُّرُ فَنِّ الرِّثَاءِ فِي الأدَبِ العَرَبِيِّ بَينَ المَشرِقِ وَالأندَلُسِ، خَالِدَة مُحَمَّد إبرَاهِيم الشَّايِقِي، رِسَالَةُ مَاجِستِير، الخُرطُومُ، جَامِعَةُ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالعُلُومِ الإسلَامِيَّةِ، كُلِّيَّةُ الدِّرَاسَاتِ العُلْيَا، 2000م، 70.

Faculty of Arts, Arish University

فَكَانَ ابنُ حَزمٍ يَحمِلُ فِي قَلبِهِ عَاطِفَةً حَقِيقِيَّةً وَمَشَاعِرَ صَادِقَةً، وَمَن ثَمَّ ظَهَرَ مُحِبًّا وَمُولَعًا بِصَدِيقِهِ، فَحُزنُهُ لَيسَ بِالحُزنِ العَابِرِ وَقتَ مَوتِ صَدِيقِهِ، إِنَّمَا طَالَ الحُزنُ وَالبُكَاءُ حَتَّى تَألَّمَ قَلبُهُ لِفِقدَانِهِ، فَنَجِدُهُ يُحَاوِرُهُ وَكَأَنَّهُ يُحَاوِرُ شَخصًا مِن رَحِمِهِ أَو مِن أَهلِ بَيتِهِ، فَأَحيَانًا قَد يَلِدُ الزَّمَانُ لَكَ أَخًا لَم تَلِدهُ أُمُّكَ، فَكَانَ خِطَابُهُ مَشحُونًا بِعَاطِفَةٍ جَيَّاشَةٍ وَتَعبِيرٍ صَادِقٍ، وَالفَقِيهُ (اِبنُ حَزمٍ) عُرِفَ بِأَنَّهُ شَخصِيَّةٌ عَاطِفِيَّةٌ حَسَّاسَةٌ، لَا يَصطَنِعُ هَذِهِ المَشَاعِرَ، وَهُوَ شَاعِرٌ مُرتَجِلٌ دَائِمًا لِأَبيَاتِهِ وَقَصَائِدِهِ، يُعَبِّرُ عَن حَقِيقَةِ مَشَاعِرِهِ فِي كُلِّ المَوَاقِفِ دُونَ تَزيِيفٍ، إِنَّهُ يَنفَعِلُ مَعَ الحَدَثِ، وَتَنهَالُ عَلَيهِ الكَلِمَاتُ الرَّنَّانَةُ وَكَأَنَّهُ خَازِنٌ لِهَذِهِ الأَبيَاتِ وَالقَصَائِدِ المُعَبِّرَةِ عَنِ المَوَاقِفِ، وَجَاءَت أَبيَاتُهُ مُتَأَثِّرَةً بِكَلِمَاتٍ مِنَ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، تَحمِلُ مَعَانِيَ يَحتَاجُهَا المَوجُوعُ الفَاقِدُ. هَذَا وَإِنَّ فَقدَ الآخَرِ أَخَذَ حَيِّزًا لَيسَ بِالقَلِيلِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، فَكَانَ الشُّعَرَاءُ يُعَبِّرُونَ عَن فَقدِهِم لِأَحبَابِهِم بِلَوعَةٍ وَأَسًى، صَادِقِينَ فِي أَحَاسِيسِهِم وَمَشَاعِرِهِم[1].

حَدِيثُ المَوتِ وَفِقدَانِ الأَحِبَّةِ:

المَوتُ هُوَ نِهَايَةُ الحَيَاةِ المُؤَقَّتَةِ، وَبِدَايَةُ الحَيَاةِ الأَزَلِيَّةِ، فَالمَوتُ هُوَ اِستِقرَارٌ مِن مَتَاعِبِ الدُّنيَا الكَثِيرَةِ الَّتِي تُلهِي الوَاحِدَ مِنَّا عَن ضَرُورِيَّاتِهِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَت بِالدُّنيَا، لِدُنُوِّهَا وَخَيبَةِ آمَالِهَا، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ حَزمٍ الأَندَلُسِيِّ** (٣٨٤هـ- ٤٥٦هـ) فِي حَدِيثِ المَوتِ وَفِقدَانِ ذَاتِهِ: [الطَّوِيلُ]

كَأَنَّكَ بَالزُّوَّارِ لِي قَد تَبَادَرُوا ... وَقِيلَ لَهَا أُودَى عَلِيُّ بنُ أَحمَدِ

فَيَا رُبَّ مَحزُونٍ هُنَاكَ وَضَاحِكٍ ... وَكَم أَدمُعٍ تَذرِفُ وَخَدٍّ مُخَدَّدِ

عَفَا اللهُ عَنِّي يَومَ أُرحَلُ ظَاعِنًا ... عَنِ الأَهلِ مَحمُولًا إِلَى بَطنِ مُلحِدِ

وَأَترُكُ مَا قَد كُنتُ مُغتَبِطًا بِهِ ... وَأَلقَى الَّذِي آنَستُ مِنهُ بِمَرصَدِ

فَوَا رَاحَتِي إِن كَانَ زَادِي مُقَدَّمًا ... وَيَا نَصَبِي إِن كُنتُ لَم أَتَزَوَّدِ[2]

يَتَحَدَّثُ ابنُ حَزمٍ فِي البِدَايَةِ عَن زِيَارَةِ أَحبَابِهِ لَهُ، بَعدَ تَبلِيغِهِم بِأَنَّ عَلِيَّ بنَ أَحمَدَ (ابنَ حَزمٍ) وَافَتهُ المَنِيَّةُ، وَانقَطَعَ عَنِ الحَيَاةِ وَالوُجُودِ، فَكَانَ هَذَا الخَبَرُ مِنَ الصَّعبِ تَلَقِّيهُم إِيَّاهُ، فَفِيهِمُ الحَزِينُ المُتَأَثِّرُ مِن فَجعِ الخَبَرِ وَشِدَّةِ صَدمَتِهِ عَلَيهِ، يُصَوِّرُهُ الشَّاعِرُ وَقَد ذُرِفَت أَدمُعُهُ وَتَسِيلُ مُنهَمِرَةً عَلَى خَدَّيهِ، الَّتِي ذَبُلَت وَضَعُفَت مِن شِدَّةِ الحُزنِ وَالبُكَاءِ، هَؤُلَاءِ هُم مُحِبُّوهُ وَأَصحَابُهُ، يَتَخَيَّلُهُم اِبنُ حَزمٍ وَهُم فَاقِدُوهُ وَمُتَأَثِّرُونَ عَلَيهِ[3].

نُلَاحِظُ صُورَةً فَلسَفِيَّةً بَاتَت فِي البَيتِ الثَّالِثِ، نَجِدُ فِيهَا أُفُقَ ابنِ حَزمٍ يَتَّسِعُ لِيَشمَلَ فَلسَفَةَ الحَيَاةِ وَالمَوتِ، إِذ عَبَّرَ عَن أَمَلِ كُلِّ مَن يَمُوتُ وَيُفَارِقُ الحَيَاةَ، بِأَن يَنَالَ عَفوَ اللَّهِ عِندَمَا تَنتَهِي حَيَاتُهُ.

المُوَاسَاةُ فِي فَقدِ الإِبنِ:

يَقُولُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** فِي مَوتِ اِبنِهِ يَحيَى، الَّذِي يَتَفَجَّعُ بِالبُكَاءِ عَلَيهِ، فَيَهِيمُ عَلَى الأَرضِ لَا يَدرِي بِنَفسِهِ، مَاذَا يَفعَلُ فِي هَذِهِ الدُّنيَا مِن دُونِهِ، لَقَد كَانَ يُمَثِّلُ جُزءًا كَبِيرًا مِن حَيَاتِهِ، بَل حَيَاتَهُ كُلَّهَا: [الكَامِلُ]

قَصَدَ المَنُونُ لَهُ فَمَاتَ فَقِيدًا ... وَمَضَى عَلَى صَرفِ الخُطُوبِ حَمِيدَا

بِأَبِي وَأُمِّي هَالِكًا أَفرَدتُهُ ... قَد كَانَ فِي كُلِّ العُلُومِ فَرِيدَا

سُودُ المَقَابِرِ أَصبَحَت بِيضًا بِهِ ... وَغَدَت لَهُ بِيضُ الضَّمَائِرِ سُودَا

لَم تُرزَهُ لَمَّا رُزِئنَا- وَحدَهُ ... وَإِن استَقَلَّ بِهِ المَنُونُ وَحِيدَا!

---

[1] يُرَاجَعُ، رِثَاءُ النَّفسِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، مِقدَادُ رَحِيم، عَمَّانُ، جُهَينَةُ لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيعِ، 1433ه/٢٠١٢م، ١٢١.

[2] الدِّيوَانُ، ١٥- ١٦.

[3] يُرَاجَعُ، تَطَوُّرُ فَنِّ الرِّثَاءِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ بَينَ المَشرِقِ وَالأَندَلُس، 103.

Faculty of Arts, Arish University

لكِـــن رُزِئنَـــا القَاسِـــمَ بــــنَ مُحمـــدٍ فِـي فَضلِـــهِ والأســـودَ بـــنَ
يَزيــدَا وَابـــنَ المُبارَكِ فِــي الــرَّقَـائِــقِ مُخبِــرًا وَابنَ المُسَيَّــبِ فِـي الحَديــثِ سَعِيــدَا
وَالأخفَشَيــــنِ فَصاحَـــةً وبَلاغَـــةً[1] وَالأعشَيَيـــنِ رِوايَـــةً ونَشِيــدَا
كَـــانَ الوَصِيـــيَّ إذَا أرَدتُ وَصِيَّـــةً وَالمُستَقَـــادَ إذَا طَلَبـــتُ مُفِيــدَا[2]

نُلاحِظُ أنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ استَخدَمَ الفِعلَ المَاضِيَ، مُخبِرًا بِهِ بوقوعِ الفَجِيعَةِ (قَصَدَ، مَضَى، كَانَ، أفرَدتُهُ، أصبَحتُ، غَدَت، رُزِئنَا)، فَالمُصيبَةُ قَد حَلَّت، ولَيسَ هُنَاكَ أيُّ مُحَاوَلَةٍ لِصَدِّهِ، أو تَوَخِّي الحَذَرِ مِن وُقُوعِهِ، فَقَد حَزِنَ عَلَى مَوتِ ابنِهِ حُزنًا شَدِيدًا، وَلَكِنَّهُ لَم يَستَكفِ بِهَذَا الحُزنِ، إنَّمَا استَدعَى كُلَّ أحزَانِهِ السَّابِقَةِ، **وَيُذَكِّرُنَا هَذَا المَوقِفُ بِقَولِ الرَّافِعِي فِي كِتَابِهِ عَلَى السَّفُّودِ:** "إنَّ الإنسَانَ إذَا حَزِنَ استَدعَى كُلَّ أحزَانِهِ السَّابِقَةِ، كَأنَّ حُزنًا وَاحِدًا لَا يَكفِيهِ"[3]، وَيَتَحَدَّثُ عَنِ القَبرِ فَيَقُولُ: إنَّ المَقَابِرَ أو بِالتَّحدِيدِ عَينَ القَبرِ، هِيَ بِطَبِيعَتِهَا سَودَاءُ، وَلَكِن بَعدَ أن دَخَلَ فِيهَا ابنُهُ صَارَت بَيضَاءَ، وَأصحَابُ الضَّمَائِرِ البَيضَاءِ، أي: المُحِبُّونَ لَهُ، فَمِن حُزنِهِم عَلَيهِ أصبَحَت ضَمَائِرُهُم سَودَاءَ، فَقَد أحسَنَ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ فِي استِخدَامِهِ لِلطِّبَاقِ، مَعَ الحَالَةِ الَّتِي عَلَيهَا.

ثُمَّ يَنتَقِلُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ وَيَتَذَكَّرُ أحبَابَهُ مِنَ العُلَمَاءِ، وَأهلِ الحَدِيثِ وَالفُقَهَاءِ وَذَوِي الفَضلِ، فَذَكَرَ القَاسِمَ بنَ مُحَمَّدٍ، وَالأسوَدَ بنَ يَزِيدَ، وَابنَ المُبَارَكِ، وَابنَ المُسَيِّبِ، وَالأخفَشَ.

وَأرَى أنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ باستدعائه هَؤُلَاءِ الأعلَامِ أراد أن يجمع فضائلهم وعلمهم، فكأنه حاز ما حازوه من علم الحديث والفقه واللغة، وحاز ما حازوه من الفضائل التي تحلّوا بها، وَفَضلًا عَن أنَّهُ يَحمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ مَا لا يُتَحَمَّلُ مِنَ الوَجَعِ عَلَى ابنِهِ، فَيَتَذَكَّرُ العُلَمَاءَ، وَكَأنَّه ـ كَمَا ذَكَرتُ سَابِقًا ـ لَا يَكفِيهِ حُزنٌ وَاحِدٌ.

الدَّفِينُ الصَّغِيرُ:

يَستَمِرُّ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** فِي وَصفِ مَحَاسِنِ ابنِهِ وَمَدَى تَأثُّرِهِ بِفِرَاقِهِ؛ إذ يَقُولُ: [الكَامِلُ]

وَلَّـــى حَفِيظًـــا فِـــي الأذِمَّةِ حَافِظًـــا وَمَضَـــى وَدُودًا فِـــي الـــوَرَى مَودُودَا
مَـــا كَـــانَ مِثلِـــي فِـــي الرَّزِيَّةِ وَالِـــدًا ظَفِـــرَت يَـــدَاهُ بِمِثلِـــهِ مَولُـــودَا
حَتَّـــى إذَا بَـــدَّ السَّوَابِقَ فِـــي العُـــلَا وَالعِلـــمِ ضُمِّـــنَ شِلـــوُهُ مَلحُـــودَا
يَـــا مَـــن يُفَنِّـــدُ فِـــي البُكَـــاءِ مُوَلَّهًـــا مَـــا كَـــانَ يَسمَـــعُ فِـــي البُكَـــا تَفنِيدَا
تَأبَـــى القُلُـــوبُ المُستَكِينَـــةُ لِلأسَـــى مِـــن أن تَكُـــونَ حِجَـــارَةً وحَدِيـــدَا!
إنَّ الَّذِي بـــادَ السُّـــرُورُ بِمَـــوتِـــهِ مَـــا كَـــانَ حُزنِـــي بَعدَهُ لِيَبِيـــدَا
الآنَ لَمَّـــا أن حَوَيـــتَ مَآثِـــرًا أعيَـــت عَـــدُوًّا فِـــي الوَرَى وحَسُـــودَا
وَرَأيـــتُ فِيـــكَ مِـــنَ الصَّـــلَاحِ شَمَائِـــلًا وَمِـــنَ السَّمَـــاحِ دَلَائِـــلًا وَشُهُـــودَا
أبكِـــي عَلَيـــكَ إذَا الحَمَامَـــةُ طَـــرَّبَـــت وَجـــهَ الصَّبَـــاحِ وَغَرَّدَت تَغرِيـــدَا
لَـــولَا الحَيَـــاءُ وَأن أظُنَّ بِيـــدعَـــةٍ مِمَّـــا يُعَـــدِّدُهُ الـــوَرَى تَعدِيـــدَا
لَجَعَلـــتُ يَومَـــكَ فِي المَنَائِـــحِ مَأتَمًـــا وَجَعَلـــتُ يَومَـــكَ فِـــي المَوَالِدِ عِيـــدَا![4]

[1] الأخفشُ لَقبٌ لِأكثرِ مِن عَالِمٍ، الدِّيوَانُ، ٥٨.
[2] نَفسُهُ.
[3] عَلَى السَّفُّودِ، مُصطفَى صَادِقُ الرَّافِعِيُّ، القَاهِرَةُ، مُؤَسَّسَةُ هِندَاوِي، ١٩٣١م، ٢١.
[4] الدِّيوَانُ، ٥٨ـ ٥٩.

Faculty of Arts, Arish University

مِن خِلَالِ الأبيَاتِ يُبَيِّنُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ الفَجِيعَةَ الَّتِي حَلَّت بِهِ لَحظَةَ فَقدِهِ ابنَهُ يَحيَى، الَّذِي تَكَامَلَت صِفَاتُهُ، وَتَأثُّرُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ بِآيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ وَاضِحٌ فِي قَولِهِ: (مِن أن تَكُونَ حِجَارَةً وحَدِيدًا)، مرصَادٌ لِقَولِ اللَّهِ ﷺ: (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أوْ حَدِيدًا ٥٠) [الإسرَاءُ] فَقَلبُهُ لَيسَ حِجَارَةً أو حَدِيدًا حَتَّى يُوَاجِهَ هَذِهِ المُصِيبَةَ، فَيُؤَكِّدُ أنَّ حُزنَهُ لا يُمكِنُ أن يَبِيدَ.

يَعُودُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ مَرَّةً أُخرَى، لِيَذكُرَ مَنَاقِبَهُ الَّتِي بَلَغَت مَبلَغًا أعيَا العَدُوَّ، وَسَرَّ الصَّدِيقَ، فَجَاءَت مَعَانِي القَصِيدَةِ صَادِقَةً، مُنبَعِثَةً مِن فُؤَادٍ مَغمُومٍ، وَكَبِدٍ مَكلُومٍ.

لَقَد لَفَتَ انتِبَاهَنَا أُسلُوبُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ، فَجَاءَ سَهلَ التَّعبِيرِ، ذَا جَودَةٍ عَالِيَةٍ فِي الألفَاظِ وَالمَعَانِي، وَفِي هُدُوءِ عَاطِفَتِهِ، حَتَّى أصبَحَ وَكَأنَّهُ ذُو طَابَعٍ يُوهِمُ بِأنَّ التَّيَّارَ العَاطِفِيَّ مَعدُومٌ عِندَهُ أو مُختَنِقٌ[1]، وَلَكِنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ استَطَاعَ التَّحَكُّمَ فِي انفِعَالَاتِهِ، فَالحَيَاةُ وَتَجَارِبُهَا عَلَّمَتهُ الكَثِيرَ، وَأعطَتهُ خِبرَاتٍ، فَمَدرَسَةُ الكَونِ فِيهَا عُلُومُ الحَيَاةِ بِأجمَعِهَا، لِمَن أرَادَ أن يَدرُسَ فِيهَا.

نُلَاحِظُ فِي النِّهَايَةِ أنَّ **ابنَ عَبدِ رَبِّهِ** أنهَى قَصِيدَتَهُ، بَاكِيًا مِثلَمَا افتَتَحَهَا بَاكِيًا، لَقَد أفصَحَ وَأفَاضَ عَن مَرَارَةِ الفَقدِ، الَّتِي لَم يَشعُر بِهَا غَيرُهُ، وَيَستَنِدُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ عَلَى حَرفِ الشَّرطِ غَيرِ الجَازِمِ (لولا)، لِيَدُلَّ عَلَى امتِنَاعِ الوُجُودِ. وَبَعدَ مُضِيِّ سَنَوَاتٍ عَلَى مَوتِ ابنِهِ، مَازَالَ يَتَذَكَّرُهُ، وَيَفتَقِدُهُ بِعِبَارَاتِ الأسَى وَالتَّشَوُّقِ فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

بَلِيَت عِظَامُكَ وَالأسَى يَتَجَدَّدُ ... وَالصَّبرُ يَنفَدُ وَالبُكَا لا يَنفَدُ
يَا غَائِبًا لا يُرتَجَى لإيَابِهِ ... وَلِقَائِهِ دُونَ القِيَامَةِ مَوعِدُ
مَا كَانَ أحسَنَ مَلحَدًا ضُمِّنتَهُ ... لَو كَانَ ضَمَّ أبَاكَ ذَاكَ المَلحَدُ
بِاليَأسِ أسلُو عَنكَ لا بِتَجَلُّدِي ... هَيهَاتَ! أينَ مِنَ الحَزِينِ تَجَلُّدُ؟![2]

فِي الأبيَاتِ الدَّالِيَّةِ يَستَهِلُّ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ كَلَامَهُ بِالأُسلُوبِ الخَبَرِيِّ المُفجِعِ، دُونَ مُقَدِّمَاتٍ (بَلِيَت عِظَامُكَ)، مِمَّا يُؤَكِّدُ مُرُورَ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، قَد تَصِلُ إلَى سَنَوَاتٍ، عَلَى فَجِيعَةِ المَوتِ، ثُمَّ يَستَكمِلُ قَولَهُ: (وَالأسَى يَتَجَدَّدُ)، وَهِيَ مُطَابَقَةٌ وُفِّقَ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ إلَيهَا مَعنًى وَمَبنًى، فَقَدِ استَطَاعَ مُنذُ البَدءِ أن يَلفِتَ الأنظَارَ وَيفجَعَ النُّفُوسَ، إذ يَجعَلُ مِن ابنِهِ شَخصًا مَاثِلًا أمَامَهُ يُخَاطِبُهُ وَيَقُولُ لَهُ: (يَا غَائِبًا)، فَيُفصِحُ هَذَا النِّدَاءُ عَن عَمِيقِ حُزنِهِ، وَلَوعَتِهِ وَشِدَّةِ إحسَاسِهِ بِالفَجِيعَةِ، مَعَ مُرُورِ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ عَلَى وَقعِ المُصِيبَةِ، وَلَكِن مِنَ الوَاضِحِ أنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ مَا زَالَ يُعَانِي، وَلَا يُوجَدُ مَا يُخَفِّفُ حُزنَهُ، أو يُشَارِكُهُ إيَّاهُ.

قَدِ استَطَاعَ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ بِأُسلُوبِهِ أن يُشَكِّلَ أيَّ مَضمُونٍ فِي قَالَبٍ عَرُوضِيٍّ، وَيَأتِي بِتَعبِيرِهِ الصَّادِقِ عَبرَ أسَالِيبَ بَلَاغِيَّةٍ، إذ سَخَّرَ الإنشَاءَ كَالِاستِفهَامِ (هَيهَاتَ أينَ مِنَ الحَزِينِ تَجَلُّدُ؟)، وَقَبلَهُ النِّدَاءُ (يَا غَائِبًا لَا يُرتَجَى لِإيَابِهِ)، وَالتَّمَنِّي (لَو كَانَ ضَمَّ أبَاكَ ذَاكَ المَلحَدُ)، فَإنَّ مَرَدَّ صِدقِ العَاطِفَةِ هُوَ أنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ استَمَدَّ مَعَانِيَهُ مِن حُزنٍ عَانَاهُ، وَهَوَاجِسَ أقَضَّت مَضجَعَهُ، وَكُلَّمَا ذَكَرَ فِقدَانَ فِلذَةِ كَبِدِهِ تَجَدَّدَ الأسَى، وَخَيَّمَ عَلَيهِ شَبَحُ الفَجِيعَةِ، مُحِيلًا أجوَاءَهُ إلَى الاكتِئَابِ وَالوَحدَةِ، وَفَضٍّ فَجِيعَتِهِ فِي إنشَادِ الشِّعرِ.

بِهَذَا الأُسلُوبِ الطَّيِّعِ، تَسِيرُ أبيَاتُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ، لِتُعطِيَنَا صُورَةً عَمِيقَةً، وَابنُ عَبدِ رَبِّهِ فِي فَقدِ وَلَدِهِ يَصِفُ أثَرَ الفَقدِ فِي نَفسِهِ، وَمَا آلَت إلَيهِ دُنيَاهُ مِنَ الفَرَحِ، وَهُوَ يَرَى فِلذَةَ كَبِدِهِ يَكبُرُ وَيَكبُرُ أمَامَهُ يَومًا بَعدَ يَومٍ، إلَى الحُزنِ وَالتَّفَجُّعِ وَالصُّرَاخِ القَلبِيِّ الَّذِي لَا يَهدَأُ أبَدًا، ثُمَّ يَطلُبُ لَهُ الرَّحمَةَ وَالغُفرَانَ، وَيَنتَقِلُ إلَى مُنَاجَاةِ المَوتِ بِحَدِيثٍ رَقِيقٍ مُؤَثِّرٍ، يَا مَوتُ لَا أملِكُ إلَّا دَمعَةً لَا أستَطِيعُ إرسَالَهَا، وَزَفرَةً لَا أستَطِيعُ تَصعِيدَهَا، لَقَد كَتَبَ اللهُ فِي لَوحِهِ المَحفُوظِ هَذَا الشَّقَاءَ. رَزَقَنِي بِكَ يَا بُنَيَّ قَبلَ أن أسألَهُ إيَّاكَ، وَسَلَبَكَ مِنِّي قَبلَ أن أستَعفِيهِ مِنكَ، قَد أرَادَ أن يُتَمِّمَ قَضَاءَهُ فِيَّا، وَأن يُجَرِّعَنِي الكَأسَ حَتَّى ثُمَالَتِهَا[3].

فَقَد اعتَرَفَ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ فِي أبيَاتِ الفَقدِ السَّابِقَةِ بِعَدَمِ قُدرَتِهِ عَلَى مُوَاجَهَةِ الفَجِيعَةِ، وَلَن يَقوَى عَلَى تَحَمُّلِ آهَاتِهَا، فَالأحزَانُ هَائِمَةٌ، بِسَبَبِ عَودَةِ الذِّهنِ إلَى تَذَكُّرِ الحَدَثِ المُفجِعِ، وَقَدِ استَبَدَّت بِهِ عَاطِفَتُهُ الحَزِينَةُ حَتَّى خُيِّلَ إلَيهِ أنَّهُ لَا يَرَى شَيئًا حَولَهُ إلَّا قَبرَ وَلَدِهِ الصَّغِيرِ، وَقَد تَعَمَّقَهُ هَذَا الإحسَاسُ بِالفَجِيعَةِ إلَى الحَدِّ الَّذِي يَرَى كُلَّ مَا حَولَهُ قَد صَارَ قَبرًا لِابنِهِ.

[1] يُرَاجَعُ، تَارِيخُ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ (عَصرِ الطَّوَائِفِ وَالمُرَابِطِينَ)، إحسَان عَبَّاس، عَمَّان، دَارُ الشُّرُوق، ١٩٩٧م، ١٩٤- 195.
[2] الدِّيوَانُ، 57- 58.
[3] يُرَاجَعُ، فَنُّ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ، مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، دَارُ الفِكرِ المُعَاصِر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، 309.

Faculty of Arts, Arish University

يَفقِدُ **ابنُ شُهَيدٍ** (٣٨٢هـ- ٤٢٦هـ) حَسَّانَ بنَ مَالِكٍ (أَحَدُ وُزَرَاءِ عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ)، لَقَد كَانَ يَكُنُّ لَهُ كُلَّ الحُبِّ، فَيُعَبِّرُ بَقَنَوَاتٍ مِنَ الأَسَى، تَتَجَلَّى فِيهَا مُعَانَاةُ الذَّاتِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَصرَعٌ لِعَظِيمِ؟ أَصَابَ المَنَايَا حَادِثِي وَقَدِيمِي

هَوىٰ قَمَرًا قَيسِ بنَ عَيلَانَ آنِفًا وَأَوحَشَ مِن كَلبٍ مَكَانُ زَعِيمِ

فَكَيفَ لِقَائِي الحَادِثَاتِ إِذَا سَطَت؟ وَقَد فُلَّ سَيفِي مِنهُمُ وَعَزِيمِي

وَكَيفَ اهتِدَائِي فِي الخُطُوبِ إِذَا دَجَت وَقَد فَقَدَت عَينَايَ ضَوءَ نُجُومِي؟

مَضَىٰ السَّلَفُ الوَضَّاحُ إِلَّا بَقِيَّةً كَغُرَّةِ مُسوَدِّ القَمِيصِ بَهِيمِ

رَمَيتَ بِهِ الآفَاقَ عَنِّي غَرِيبَةً نَتِيجَةَ خَفَّاقِ الضُّلُوعِ كَظِيمِ

لأُبدِيَ إِلَىٰ أَهلِ الحِجَا مِن بَوَاطِنِي وَأُدلِي بِعُذرٍ فِي ظَوَاهِرَ لُوم

حَتَّى قَالَ:

أَحِلُّوا مَلَامِي لَا أَبَا لِأَبِيهِمُ وَإِنِّي وَرَبِّ المَجدِ غَيرُ مَلُومِ

فَلَا تَعذُلُونِي إِن وَلِهتُ فَإِنَّهَا عِلَاقَةُ حُبٍّ لَا عِلَاقَةُ رِيمِ

أَبَا عَبدَةٍ إِنَّا عَذَرنَاكَ عِندَمَا رَجَعنَا وَغَادَرنَاكَ غَيرَ ذَمِيمِ

أَنَخذُلُ مَن كُنَّا نَرُودُ بِأَرضِهِ؟ وَنَكرَعُ مِنهُ فِي إِنَاءٍ عُلُومِ؟

وَيَجلُو العَمَىٰ عَنَّا بِأَنوَارِ رَأيِهِ إِذَا أَظلَمَت ظَلمَاءُ ذَاتَ غُيُومِ[1]

نُلَاحِظُ أَنَّ ابنَ شُهَيدٍ يَبدَأُ قَصِيدَتَهُ بِأَدَاةِ استِفهَامٍ، مُستَهِلًّا بِالحَدِيثِ عَنِ ابنِهِ، مُحَدِّثًا الدَّهرَ وَمُعَاتِبَهُ، فَيَقُولُ لَهُ: (أَفِي كُلِّ عَامٍ مَصرَعٌ لِعَظِيمٍ؟)، فِي السَّنَةِ المَاضِيَةِ كَانَ ابنِي، وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أَخَذتَ أَعَزَّ عَزِيزٍ لَدَيَّ، وهذا يُظهِرُ مدى مِن إِجلَالِه لِلفَقِيدِ، وَالإِقرَارِ بِفَضَائِلِهِ عَلَيهِ، فَقَد حَبَاهُ بِمَكَانَةٍ اجتِمَاعِيَّةٍ سَامِيَةٍ، وَكَيفَ كَانَ مَنَارَةً لِلعُلُومِ الَّتِي كَانَ يَأوِي إِلَيهَا مِن عَظَمَةِ الأَيَّامِ، لِيُبَيِّنَ حَسرَتَهُ الكُبرَى، وَحُزنَهُ الشَّدِيدَ عَلَى الفَقِيدِ، فَحُزنُهُ مَازَالَ يَتَجَدَّدُ مَعَ الأَيَّامِ، فَلَيسَ مِنَ السَّهلِ عِندَهُ أَن يَفقِدَ عَزِيزًا لَدَيهِ، أَو يَنسَاهُ بِمُرُورِ الأَيَّامِ وَالسِّنِينَ، بَل كَانَ الأَسَى وَالحُزنُ مُتَجَدِّدًا يَومًا بَعدَ يَومٍ، لَقَد كَانَ هَذَا الوَزِيرُ سَنَدًا وَعَونًا لَهُ عَلَى مُوَاجَهَةِ وَنِضَالِ الأَسَى، فَكَانَ لَهُ بِمَنزِلَةِ نُورِ العَينِ، كَمَا كَانَ رَمزًا لِلضِّيَاءِ وَالنُّورِ، لِمَا يَنشُرُهُ بَينَهُم مِن عُلُومٍ مُختَلِفَةٍ.

يَستَعطِفُ ابنُ شُهَيدٍ أَهلَ المَسئُولِيَّةِ بِأَلَّا يَعذِلُوهُ أَي يَلُومُوهُ، فَيَقُولُ لَهُم: لَا تَلُومونِي فِي حُزنِي عَلَيهِ، فَعَلَاقَتِي بِهِ كَعَلَاقَتِي بِحَبرٍ أَي عَالِمٍ، لَا عَلَاقَتِي بِرِيمٍ، أَي بِامرَأَةٍ كَالرِّيمِ (الغَزَالَةُ)، فَهِيَ عَلَاقَةُ إِجلَالٍ وَوَفَاءٍ، فَهُوَ لَا يَستَطِيعُ أَن يَنسَاهُ، فَالأَيَّامُ تَزِيدُ قَسوَةً وَأَلَمًا، وَأَصبَحَ مَشغُولًا بِهِ وَلَم يَنتَبِه إِلَى دُنيَاهُ، وَكَأَنَّهُ كَانَ هُوَ دُنيَاهُ.

وَآخُذُ عَلَى ابنِ شُهَيدٍ ذِكرَهُ لَفظَ العَامِ:

أَفِي كُلِّ **عَامٍ** مَصرَعٌ لِعَظِيمِ؟ أَصَابَ المَنَايَا حَادِثِي وَقَدِيمِي

يُعَبِّرُ ابنُ شُهَيدٍ عَن مَوقِفٍ فَقَدٍ، فَكَانَ مِنَ الأَلِيقِ أَن يَستَبدِلَ بِلَفظِ العَامِ السَّنَة، لِأَنَّ (العَامَ) يَدُلُّ عَلَى أَيَّامِ الرَّخَاءِ وَاليُسرِ وَالفَرَحِ، أَمَّا (السَّنَةُ)، فَتَدُلُّ عَلَى أَيَّامِ العُسرِ وَالشِّدَّةِ وَالقَحطِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى قَولِنَا، قَولُ اللَّهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يُوسُفُ] حِينَمَا فَسَّرَ سَيِّدُنَا يُوسُفُ ﷺ رُؤيَا الجَفَافِ الَّتِي رَآهَا عَزِيزُ مِصرَ آنَذَاكَ، أَتَى بِلَفظِ (سَنَةٍ)، وَحِينَ أَكمَلَ تَفسِيرَ الرُّؤيَا أَتَى بِلَفظِ (عَامٍ) فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ

[1] دِيوَانُ ابنِ شُهَيد، تَحقِيقُ: يَعقُوب زَكِي، رَاجَعَهُ: مَحمُود عَلِي مَكِّي، القَاهِرَةُ، دَارُ الكَاتِبِ العَرَبِيِّ، (د.ت)، ١٤٧- ١٤٨.

Faculty of Arts, Arish University

ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩) [يُوسُفُ] فَبتَفسِيرِ الآيَةِ نَجِدُ أنَّ لفظ عَامٍ دَلَّ عَلَى الرَّخَاءِ، لِذَلِكَ نَقُولُ: (كُلُّ عَامٍ أنتَ بِخَيرٍ، وَلَيسَ كُلُّ سَنَةٍ أنتَ بِخَيرٍ)

إجمَالًا نَقُولُ:

1- إنَّ شُعَرَاءَ الأندَلُسِ تَفَاوَتَت نَظرَتُهُم إلَى المَوتِ، لَكِن فِي النِّهَايَةِ هُوَ الحُزنُ القَاتِلُ المُخَيِّمُ عَلَى قُلُوبِهِم، فَبَعضُهُم، وَهُوَ فِي حَالِ وَقعِ المُصِيبَةِ، تَذَكَّرَ آيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ، وَمَا فِيهَا مِن تَصوِيرٍ لِحَقِيقَةِ المَوتِ، سَوَاءً كَانَ لَهُم، أي: المَوتُ فِي دَارِهِم، أو لِغَيرِهِم، مِمَّا أحدَثَ تَغيِيرًا كَبِيرًا فِي نَظرَتِهِم إلَى المَوتِ، بِفَضلِ الأفكَارِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا كُلُّ شَاعِرٍ.

2- البَعضُ الآخَرُ تَوَارَثَ فِكرَةَ الحَيَاةِ وَالمَوتِ، وَأخَذُوهَا كَمَا هِيَ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأصبَحَت فِكرَةُ المَوتِ عِندَهُم هَدَّامَةً لِشُعَاعِ عَهدِ الصِّبَا وَالشَّبَابِ، وَآخَرُونَ رَأوا أنَّ الرُّوحَ أعظَمُ مِنَ الجِسمِ.

3- لِذَلِكَ أتَى فِي أشعَارِهِم خِطَابُ الرُّوحِ وَفَنَاؤُهَا، وَبَقَاؤُهَا وَخُلُودُهَا، وَاعتَزَلُوا العَقلَ وَالعَاطِفَةَ، وَأحَبُّوا المَوتَ، لأنَّهُ يَنقُلُ الرُّوحَ مِن عَالَمِ الخِزيِ، إلَى عَالَمِ الإنصَافِ، وَفَنَاءُ الجَسَدِ فِي الأرضِ لَا قِيمَةَ لَهُ عِندَهُم، فَإنَّهُم دَعَوا إلَى الاستِعدَادِ لِهَذِهِ السَّاعَةِ الَّتِي لَا مَفَرَّ مِنهَا، فَسَيَتَذَوَّقُهَا كُلُّ جَسَدٍ وَرُوحٍ، سَوَاءً كَانَت حَائِدَةً أو مُستَقِيمَةً.

4- فَقَد نَقَشُوهَا عَلَى جُدرَانِ قُلُوبِهِم، وَسَجَّلُوهَا فِي أشعَارِهِم بِألوَانِهَا المُختَلِفَةِ، فَفِي المَوتِ عِظَةٌ وَإصلَاحٌ لِلنَّفسِ الحَائِدَةِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَتَهذِيبٌ لِلرُّوحِ الَّتِي تَحتَاجُ إلَى وَاعِظٍ يُنَبِّهُهَا، فَالمَوتُ هُوَ خَيرُ وَاعِظٍ لَهَا وَخَيرُ مُنَبِّهٍ.

5- عَلَى الرَّغمِ مِن إدرَاكِ الشُّعَرَاءِ لِهَذِهِ الحَقِيقَةِ، فَإنَّهُم كَرِهُوا المَوتَ وَنَبَذُوهُ لأنَّهُ يَدُكُّ قَوَاعِدَهُم وَيُقَوِّضُ أركَانَهُم.

المَبحَثُ الثَّانِي: فَقدُ المَوطِنِ وَالأهلِ

الوَطَنُ مَفهُومٌ شَامِلٌ لَا يَقتَصِرُ عَلَى البُقعَةِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا الإنسَانُ، فَهُوَ لَيسَ مُجَرَّدَ اسمٍ يُكتَبُ فِي بِطَاقَةِ الهُوِيَّةِ، إنَّمَا هُوَ المَكَانُ الَّذِي نَسكُنُهُ، وَنَعِيشُ فِيهِ، فَنَحنُ مِن دُونِ الوَطَنِ كَالطُّيُورِ بِلَا أعشَاشٍ، وَلِلوَطَنِ حُضُورٌ فَعَّالٌ فِي النَّفسِ الإنسَانِيَّةِ، فَقَدِ اتَّصَلَ الإنسَانُ بِوَطَنِهِ اتِّصَالًا وَثِيقًا مُنذُ صِغَرِهِ، كَيفَ لَا وَهُوَ المَكَانُ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ وَتَرَبَّى فِي رُبُوعِهِ، وَتَعَلَّقَ بِهِ وِجدَانِيًّا وَفِكرِيًّا، وَبِالتَّالِي يَبقَى حَاضِرًا فِي مَخزُونِهِ الذِّهنِيِّ مُخَلِّفًا الكَثِيرَ مِنَ المَشَاعِرِ وَالذِّكرَيَاتِ الَّتِي تَبقَى خَالِدَةً فِي ذَاكِرَتِهِ، سَوَاءً كَانَت سَعِيدَةً، أم تَعِيسَةً، لِيَقُومَ فِيمَا بَعدُ بِتَرجَمَتِهَا، فِي قَوَالِبَ فَنِّيَّةٍ بِطَرِيقَتِهِ الخَاصَّةِ، وَبِالتَّالِي يُمكِنُنَا القَولُ إنَّ الإنسَانَ ابنُ بِيئَتِهِ، يُؤَثِّرُ فِيهَا وَيَتَأثَّرُ بِهَا، وَيَنفَعِلُ بِهَا وَبِكُلِّ مَا يُحِيطُ بِهَا، فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ وَمُرتَبِطٌ بِجَمَالِ بِلَادِهِ وَطَبِيعَتِهَا؛ يَبقَى ذَلِكَ التَّعَلُّقُ وَالِارتِبَاطُ كَامِنَينِ فِي مُخَيِّلَتِهِ مَكبُوتَينِ فِي وِجدَانِهِ، حَتَّى يَجِدَ الوَقتَ المُنَاسِبَ، لِيَبُوحَ بِكُلِّ مَا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ، وَيُنَفِّسَ عَن رُوحِهِ المَكبُوتَةِ[1].

وَيُشَكِّلُ المَوطِنُ هَاجِسًا قَوِيًّا لَدَى الكَثِيرِ مِنَ الشُّعَرَاءِ، فَهُوَ لَا يُمَثِّلُ ذَلِكَ البُعدَ الجُغرَافِيَّ وَالهَندَسِيَّ الَّذِي لَا يَهُمُّ الإنسَانَ، وَلَيسَ سَقفًا أو جُدرَانًا أو أرضِيَّةً، إنَّمَا أصبَحَ يُمَثِّلُ قَضِيَّةً وَجُزءًا مِن حَيَاةِ الإنسَانِ، فَهُوَ مَكَانٌ تَنبَثِقُ عَنهُ وَتَفُوحُ مِنهُ العَدِيدُ مِنَ الدَّلَالَاتِ وَالإيمَاءَاتِ، الَّتِي تُتِيحُ لِلشَّاعِرِ أن يَهِيمَ وَيَسبَحَ فِي عَالَمِهِ الغَامِرِ بِالذِّكرَيَاتِ، لِذَلِكَ كَانَ استِدعَاؤُهُ فَعَّالًا عِندَ جُمهُورٍ مِن الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ تَغَنَّوا بِأوطَانِهِم[2].

وَالفَقدُ ظَاهِرَةٌ إنسَانِيَّةٌ وُجِدَت مَعَ الحَيَاةِ نَفسِهَا، وَهُوَ غَرِيزَةٌ لَا يُمكِنُ رَدُّهَا، وَحَقِيقَةٌ لَا يُمكِنُ إنكَارُهَا، وَعِندَمَا نَفتَقِدُ قَرِيبًا أو عَزِيزًا مِنَ الأهلِ وَالأصحَابِ، نَجِدُ الشَّاعِرَ يَبكِي وَيَندُبُ، وَمَا مِن شَكٍّ فِي أنَّ أقدَرَهُم عَلَى البُكَاءِ وَتَصوِيرِ الفَاجِعَةِ هُمُ الشُّعَرَاءُ، بِمَا يَمنَحُهُمُ الشِّعرُ مِن أدَوَاتٍ تُمَكِّنُهُم مِن تَصوِيرِ الحَادِثَةِ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، وَلَا يَقدِرُ عَلَى ذَلِكَ إلَّا شَاعِرٌ مُحَنَّكٌ، لَيسَ أيَّ شَاعِرٍ[3].

---

[1] يُرَاجَعُ، الحُقُولُ الدَّلَالِيَّةُ فِي دِيوَانِ (البُكَاءِ عَلَى كَتِفِ الوَطَنِ)، يَحيَى السَّمَاوِي، دِرَاسَةٌ فِي الهُوِيَّةِ وَالِانتِمَاءِ، بَغدَادُ، جَامِعَةُ ذِي قَارٍ، مَجَلَّةُ كُلِّيَّةِ الآدَابِ، ع٢٩، 2019م، ١١٦- 117.

[2] السَّابِقُ، ١١٨.

[3] يُرَاجَعُ، رِثَاءُ الأهلِ وَالأصدِقَاءِ فِي شِعرِ مُخَضرَمِي الدَّولَتَينِ الأمَوِيَّةِ وَالعَبَّاسِيَّةِ، صَالِحُ عَلِي سَلِيمٍ، رِسَالَةُ مَاجِستِيرٍ، عَمَّانَ، جَامِعَةُ اليَرمُوكِ، ١٩٨٦م، ١٨.

Faculty of Arts, Arish University

فَيَنطَلِقُونَ فِي نَظمِ المَرَاثِي وَبُكَاءِ الرَّاحِلِينَ، مُعَرِّجِينَ عَلَى وَصفِ الفَاجِعَةِ، وَمُصَوِّرِينَ حَالَ الأهلِ وَالأصحَابِ بِدِقَّةٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّ المُتَلَقِّيَ يَتَخَيَّلُ وَكَأَنَّهُ حَاضِرٌ بَينَهُم، حَتَّى إِنَّ الأصمَعِيَّ يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَولِهِ: قُلتُ لِأَعرَابِيٍّ: "مَا بَالُ المَرَاثِي أَشرَفُ أَشعَارِكُم؟ قَالُوا: "لِأَنَّنَا نَنظُمُهَا وَقُلُوبُنَا مُحتَرِقَةٌ"[1].

يَجِدُ دَارِسُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ شِعرَ الفَقدِ -مُتَمَثِّلًا فِي فَقدِ المَوطِنِ وَالأهلِ- مِن أَهَمِّ المَوضُوعَاتِ الشِّعرِيَّةِ المَاثِلَةِ فِي ثَنَايَاهُ، مُتَضَمِّنَةً آثَارَ التَّقَلُّبَاتِ السِّيَاسِيَّةِ.

لَا نَجِدُ أَثَرًا وَاضِحًا لِهَذَا النَّوعِ مِنَ الفَقدِ عِندَ الجَاهِلِيِّينَ (فَقدِ المَوطِنِ وَالأهلِ)، بِالرَّغمِ مِن أَهَمِّيَّتِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ الجَاهِلِيِّينَ بِطَبِيعَتِهِم يَعتَمِدُونَ عَلَى التَّرحَالِ بَحثًا عَنِ المِيَاهِ وَأَسَالِيبِ العَيشِ الآمِنَةِ، فَالِاستِقرَارُ لَيسَ مِن سِمَاتِ الجَاهِلِيِّ، وَذَلِكَ عَكسُ الشَّاعِرِ الأندَلُسِيِّ الَّذِي بَكَى الدِّيَارَ وَفَقدَ أَهلِهَ، وَأَعَزَّ النَّاسِ عِندَهُ[2].

رَاجَ هَذَا اللَّونُ فِي الأندَلُسِ، وَيُعَزِّزُ ذَلِكَ أَنَّ طَبِيعَةَ التَّقَلُّبَاتِ السِّيَاسِيَّةِ فِي الأندَلُسِ كَانَت أَشَدَّ حِدَّةً وَأَسرَعَ إِيقَاعًا، وَأَنَّهَا اتَّخَذَت شَكلَ المُوَاجَهَةِ بَينَ النَّصَارَى وَالمُسلِمِينَ حِينَ أَرَادَ (فِرنَاندُو) طَردَ المُسلِمِينَ وَإِخرَاجَهُم مِنَ الأندَلُسِ.

وَعَلَى صَعِيدٍ آخَرَ نَجِدُ شُعَرَاءَ المَشرِقِ يَعرِضُونَ لِهَذَا الغَرَضِ، فَالتَّفَوُّقُ حَاصِلٌ كَمًّا وَكَيفًا، فَالأندَلُسِيُّونَ لَم يَتَوَقَّفُوا عِندَ مَا أَخَذُوهُ مِن شُعَرَاءِ المَشرِقِ، لَقَد استَطَاعُوا أَن يَجعَلُوهُ اِتِّجَاهًا قَائِمًا بِنَفسِهِ، وَبَابًا مِن أَبوَابِ الشِّعرِ، فَأَبدَعُوا فِيهِ القَولَ، وَأَجَادُوا فِيهِ الصِّيَاغَةَ، لِيَخرُجَ لَنَا نَصًّا مُحكَمًا[3].

وَيَعكِسُ شِعرُ الفَقدِ الأَسَى وَالحُزنَ فِي بِلَادِ الأندَلُسِ، وَاحتَذَى فِيهِ شُعَرَاؤُهَا نُظَرَاءَهُمُ المَشَارِقَةَ، وَأَضَافُوا فِيهِ مَا تَمَيَّزُوا بِهِ وَتَفَرَّدُوا، وَلَم يَقِفُوا بِهَذَا الفَنِّ عِندَ حَدِّ فَقدِ المَوطِنِ وَالأهلِ، مِنَ المُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالأَقَارِبِ وَالأَحبَابِ، وَإِنَّمَا نَرَاهُم، وَلِأَسبَابٍ خَاصَّةٍ بِهِم، يَتَوَسَّعُونَ فِيهِ، وَيُطَوِّرُونَ مَفهُومَهُ، وَذَلِكَ بِبُكَاءِ مُدُنِهِم وَمَمَالِكِهِم، تِلكَ الَّتِي غَلَبَهُم عَلَيهَا أَعدَاؤُهُمُ المُحتَلُّونَ، وَأَخرَجُوهُم مِنهَا مُشَرَّدِينَ فِي أَنحَاءِ البِلَادِ[4].

لَم يَنسَ أَهلُ الأندَلُسِ بَعدَ ظُهُورِ النَّصَارَى، الأَخذَ بِالثَّأرِ مِنَ المُلُوكِ وَالسُّوقَةِ، فَلَم يَنفَعهُم ذَلِكَ حَتَّى اِتَّسَعَ الخَرقُ، وَأَعضَلَ الدَّاءُ أَهلَ الغَربِ وَالشَّرقِ، فَقَالَ شُعَرَاءُ الأندَلُسِ الشِّعرَ، وَرَثَوا مُدُنَهُم وَمَمَالِكَهُم وَدَولَتَهُم، حَتَّى صَارَ رِثَاءُ المُدُنِ وَالمَمَالِكِ، فَنًّا شِعرِيًّا قَائِمًا بِذَاتِهِ فِي أَدَبِهِم، فَأَبدَعَ فِيهِ الشُّعَرَاءُ القَولَ، فَمِنهُم عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ، ابنُ زَيدُونَ، ابنُ عَبدِ رَبِّهِ، ابنُ شُهَيدٍ، المُعتَمِدُ بنُ عَبَّادٍ[5].

وَمِن ثَمَّ فَقَد كَانَ لِلبِيئَةِ الأندَلُسِيَّةِ دَورٌ كَبِيرٌ فِي ارتِبَاطِ الأندَلُسِيِّ بِأَرضِهِ، فَعَاشَ فِي بِيئَةٍ خَلَّابَةٍ تَمتَازُ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ، مِنَ الأَشجَارِ المُثمِرَةِ، وَالظِّلَالِ الوَارِفَةِ، وَالينَابِيعِ المُتَدَفِّقَةِ وَالخُضرَةِ الدَّائِمَةِ، فَلَم يَكُن أَمَامَ الشَّاعِرِ إِلَّا أَن يَتَعَلَّقَ بِهَا، وَيَزدَادَ شَوقًا إِلَيهَا، فَلَيسَ سَهلًا عَلَيهِ أَن يَرَاهَا تَنأَى عَنهُ، وَيَقِفَ مَكتُوفَ الأَيدِي، فَجَادَ بِقَرِيحَةِ شِعرِهِ.

لَا يَعرِفُ الوَطَنَ إِلَّا مَن عَرَفَ الغُربَةَ:

العِرضُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الجَسَدُ، فَمَن فَرَّطَ فِي جَسَدِهِ فَقَد فَرَّطَ فِي عِرضِهِ، وَالأَرضُ جَسَدُ البِلَادِ، فَمَن فَرَّطَ فِي جُزءٍ مِنهَا فَقَد فَرَّطَ فِي عِرضِ بِلَادِهِ، وَمَن حَمَى جُزءًا مِنهَا فَقَد حَمَى عِرضَ بِلَادِهِ، لِذَا يَعِزُّ عَلَى كُلِّ إِنسَانٍ تَركُ وَطَنِهِ مهمَا كَلَّفَهُ الأَمرُ، فَالأَرضُ عِرضٌ، فَكَيفَ يَترُكُهَا وَقَد قَوِيَت عِظَامُهُ مِنهَا، وَلَكِنَّهُ قَد يَأتِيَ العَدُوُّ مَسعُورًا، فَيَسلُبُ مِنَّا القَلبَ وَالرُّوحَ، وَفِي ذَلِكَ الصَّدَدِ يَقُولُ **ابنُ زَيدُونَ** فِي فَقدِ مَدِينَةِ قُرطُبَةَ: [الطَّوِيلُ]

أَقُرطُبَةُ الغَرَّاءُ هَل فِيكِ مَطمَعُ؟ وَهَل كَبِدٌ حَرَّى لِبَينِكِ تُنقَعُ؟

---

(1) نِهَايَةُ الأَرَبِ فِي فُنُونِ الأَدَبِ، شِهَابُ الدِّينِ النُّوَيرِي، تَحقِيقُ: يَحيَى الشَّامِيِّ، بَيرُوتُ، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، 1424هـ، ١٦١/٥.
(2) يُرَاجَعُ، رِثَاءُ المُدُنِ بَينَ الأندَلُسِ وَالمَشَارِقَةِ، مُحَمَّد رَجَب البَيُّومِي، مَجَلَّةُ الأَدِيبِ، ع5، م1965، ١٦/٥.
(3) يُرَاجَعُ، اتُّجَاهَاتُ الشِّعرِ فِي عَصرِ المُرَابِطِينَ بِالمَغرِبِ وَالأندَلُسِ، الجِيلَانِي بن سُلطَانِي، رِسَالَةُ مَاجِستِير، جَامِعَة دِمَشق، كُلِّيَّةُ الآدَابِ، إِشرَافُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، ١٩٨٧م، ١٢١.
(4) يُرَاجَعُ، الأَدَبُ العَرَبِيُّ فِي الأَندَلُسِ، عَبد العَزِيز عَتِيق، بَيرُوتُ، دَارُ النَّهضَةِ العَرَبِيَّةِ، ١٩٩٥م، ٣١٩.
(5) يُرَاجَعُ، نَفحُ الطِّيبِ مِن غُصنِ الأَندَلُسِ الرَّطِيبِ، ٤٧٩/٤.

Faculty of Arts, Arish University

وَهَل لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرجِعُ؟   إِذَا الحُسنُ مَرأى فِيكِ وَاللَّهوُ مَسمَعُ [1]

يُعَبِّرُ البَيتَانِ عَمَّا يَجُولُ بِخَاطِرِ الشَّاعِرِ، فَيَجعَلُ مِن قُرطُبَةَ شَخصًا مَاثِلًا أَمَامَهُ وَيَسأَلُهُ، وَيَتَعَجَّبُ مِن كُلِّ الجَمَالِ الَّذِي تَضُمُّهُ قُرطُبَةُ، وَيَسأَلُ نَفسَهُ: (مَا حَلَّ بِهِ؟)، ولِدَرَجَةِ أَنَّ الطَّامِعِينَ يَتَهَافَتُونَ عَلَيهَا، كَانَت قُرطُبَةُ فِي هَذَا العَصرِ حَاضِرَةَ الخِلَافَةِ، فِيهَا القُصُورُ الشَّاهِقَةُ وَقَنطَرَةُ الحَاجِبِ المَنصُورِ، وَالجِبَالُ الخَضرَاءُ، وَالأَشجَارُ الشَّامِخَةُ المُثمِرَةُ، أَلَيسَ كُلُّ ذَلِكَ يَلفِتُ نَظَرَ الطَّامِعِينَ!، ثُمَّ يَنتَقِلُ وَيَتَذَكَّرُ أَيَّامَهُ، وَلَيَالِيَهُ مَعَ أَحبَابِهِ، وَأَصدِقَائِهِ، وَهُوَ بَينَ أَهلِهِ، فَيَفتَقِدُهَا وَيَتَحَسَّرُ عَلَيهَا، وَيَستَمِرُّ فِي حَدِيثِهِ مَعَ قُرطُبَةَ الخِلَافَةِ، وَيَسأَلُهَا مُستَخدِمًا الأَدَاةَ (هَل)، وَكَأَنَّهُ يَنتَظِرُ إِجَابَةً مِن وَطَنِهِ بِالعَودَةِ، وَرُجُوعِ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ الهَنِيئَةِ، وَلَكِن هَيهَاتَ، حَيثُ شَوقُهُ وَهَوَاهُ لِوَطَنِهِ مَازَالَ مُستَمِرًّا.

قَرَّرَ ابنُ زَيدُونَ الرُّجُوعَ إِلَى قُرطُبَةَ، بِصُحبَةِ حَملَةٍ عَسكَرِيَّةٍ، أَرسَلَهَا المُعتَمِدُ بنُ عَبَّادٍ، وَكَانَ شَاعِرُنَا مَرِيضًا آنذَاكَ، وَاشتَدَّت بِهِ العِلَّةُ، فَشَاءَ القَدَرُ أَن يَمُوتَ وَيُدفَنَ غَرِيبًا، وَهُوَ دُونَ السَّبعِينَ مِن عُمرِهِ.

بَعدَ اتِّسَاعِ رُقعَةِ الدَّولَةِ الإِسلَامِيَّةِ، بِالفُتُوحَاتِ وَالنَّصرِ، بَدَءُوا بِتَعمِيرِهَا وَتَشيِيدِ القُصُورِ وَالقَنَاطِرِ، مِثلَ قَنطَرَةِ الحَاجِبِ المَنصُورِ، وَأَقَامُوا الحُصُونَ، لِمُقَاوَمَةِ الأَعدَاءِ وَالخُصُومِ، فَأَصبَحَت هَذِهِ المُدُنُ جُزءًا مِنهُم، لِأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَجدِهِم وَحَضَارَتِهِم، فَعَبَّرُوا عَنهَا بِصِدقِ الأَحَاسِيسِ وَالمَشَاعِرِ الجَيَّاشَةِ، وَحِينَ سَقَطَ بَعضُهَا بِأَيدِي الأَعدَاءِ بَكَوهَا بُكَاءً حَارًّا، يُعَبِّرُ عَن صِدقِ المَشَاعِرِ وَالوِجدَانِ.

وَطَنٌ جَرِيحٌ يَستَعِدُّ لِلرَّحِيلِ:

يَقُولُ **أَبُو إِسحَاقَ الإِلبِيرِي** (٣٧٥هـ- 460هـ) فِي فَقدِ مَدِينَةِ إِلبِيرِيةَ: [الطَّوِيلُ]

يُضَيَّعُ مَفرُوضٌ وَيُغفَلُ وَاجِبُ   وَإِنِّي عَلَى أَهلِ الزَّمَانِ لَعَاتِبُ

أَتُندَبُ أَطلَالُ البِلَادِ وَلَا يُرَى   لِإِلبِيرَةٍ مِنهُم عَلَى الأَرضِ نَادِبُ

عَلَى أَنَّهَا شَمسُ البِلَادِ وَأُنسُهَا   وَكُلٌّ سِوَاهَا وَحشَةٌ وَغَيَاهِبُ

وَكَم مِن مُجِيبٍ كَانَ فِيهَا لِصَارِخٍ   تُجَابُ إِلَى جَدوَى يَدَيهِ السَّبَاسِبُ

وَكَم مِن نَجِيبٍ أَنجَبَتهُ وَعَالِمٍ   بِأَبوَابِهِم كَانَت تُنَاخُ الرَّكَائِبُ

وَكَم بَلَغَت فِيهَا الأَمَانِي وَقُضِّيَت   لِصَبٍّ لُبَانَاتٌ بِهَا وَمَآرِبُ

وَكَم طَلَعَت مِنهَا الشُّمُوسُ وَكَم مَشَت   عَلَى الأَرضِ أَقمَارٌ بِهَا وَكَوَاكِبُ

وَكَم فَرَسَت فِيهَا الظِّبَاءُ ضَرَاغَمًا   وَكَم صَرَعَت فِيهَا الكُمَاةَ كَوَاعِبُ لَعَهدِي

بِهَا مُبيَضَّةَ اللَّيلِ فَاغتَدَت   وَأَيَّامُهَا قَد سَوَّدَتهَا النَّوَائِبُ وَمَا كَانَ

فِيهَا غَيرُ بُشرَى وَأَنعُمٍ   فَلَم يَبقَ فِيهَا الآنَ إِلَّا المَصَائِبُ [2]

بَدَأَ أَبُو إِسحَاقِ الإِلبِيرِيُّ قَصِيدَتَهُ مُعَاتِبًا أَهلَ زَمَانِهِ عَلَى مَا ضَيَّعُوهُ مِن أَيدِيهِم، فَيَذكُرُ مَآثِرَ المَدِينَةِ، وَفَضلَهَا عَلَى غَيرِهَا مِن بَاقِي البِلَادِ، وَفَضلَ أَهلِهَا وَعُلَمَائِهَا، فَوَصَفَهَا كَالشَّمسِ لِلدُّنيَا، أُسوَةً بِقَولِ الإِمَامِ أَحمَد بنِ حَنبَلٍ الشَّيبَانِيِّ فِي الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، فَيَقُولُ: "كَانَ الشَّافِعِيُّ كَالشَّمسِ لِلدُّنيَا، وَكَالعَافِيَةِ لِلنَّاسِ"[3]، وَيُصَوِّرُ حُسنَ نِسَائِهَا، فَأَخرَجَت هَذِهِ الأَرضُ العَظِيمَةُ العُلَمَاءَ وَالنُّجَبَاءَ، فَيُصَوِّرُهَا بِحُرقَةٍ، مُستَرجِعًا صُوَرَ مَاضِيهِ فِيهَا، وَيُسَجِّلُ أَسَاهُ وَأَسَفَهُ، وَيُثنِي عَلَى أَهلِ إِلبِيرِيةَ العُلَمَاءِ، الأَحيَاءِ مِنهُم وَالأَموَاتِ.

اللَّافِتُ لِلنَّظَرِ هُوَ تَكرَارُ الشَّاعِرِ (كَم الخَبَرِيَّةِ)، وَذَلِكَ لِعَظِيمِ شَأنِ الأَرضِ، وَكَثرَةِ الحَوَادِثِ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى حُرقَةِ قَلبِ أَبِي إِسحَاقِ الإِلبِيرِي، فَقَد أَنجَبَتِ الأَرضُ عُلَمَاءَ وَنُجَبَاءَ، وَفِيهَا تَصَاعَدَت أَحلَامُ الشَّبَابِ وَأَمَانِيُّهُ، وَدَبَّت فِيهَا الظِّبَاءُ، وَالبَنَاتُ

---

(1) الدِّيوَانُ، 133.
(2) دِيوَانُ أَبِي إِسحَاقِ الإِلبِيرِي، تَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، دَارُ الفِكرِ، 1411ه/1991م، 85- 87.
(3) الرِّسَالَةُ، مُحَمَّدُ بنُ إِدرِيسِ الشَّافِعِيِّ المَطلَبِيِّ القُرَشِيِّ (ت204ه)، تَحقِيقُ: أَحمَد مُحَمَّد شَاكِر، القَاهِرةُ، دَارُ الحَدِيثِ، 1357ه/ 1938م، 3.

Faculty of Arts, Arish University

الصَّغِيرَاتُ الكَاعِبَاتُ، أي الأنثى دُونَ العَشرِ سَنَوَاتٍ، الَّتِي ليسَ لَهَا صَدرٌ، يقول الله ﷺ: (وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) [النَّبَأُ ٣٣] فَهُوَ بَاقٍ عَلَى العَهدِ، لكِنِ الآنَ أَصبحَت خَربَةً، فَيَتَحَسَّرُ عَلَى فِقدَانِهِم.

بَكَى أَبُو إِسحَاقِ الإلبيريُّ مَدِينَتَهُ إلبيرية، التي عَاشَ فِيهَا وتَرَبَّى عَلَى أَرضِهَا، فَيَتَعَصَّبُ لَهَا وَيَبكِيهَا، لَقد أَصَابَهَا مَا أَصَابَ المُدُنَ الأُخرَى مِن دَمَارٍ وَخَرَابٍ.

وَنَعلَمُ أَنَّ طُلَيطِلَة هِيَ أَوَّلُ مَا سَقَطَ مِن مُدُنِ الأَندَلُس، لَقَد كَانَت حِصنَ الإِسلَامِ وَالمُسلِمِينَ فِي الأَندَلُس، وَذَلِكَ لِمَوقِعِهَا الجُغرَافِيِّ المُتَمَيِّزِ، وَلِوُجُودِهَا بِجِوَارِ حُدُودِ المَمَالِكِ النَّصرَانِيَّةِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **عَبدُ اللهِ بنُ فَرَجٍ اليَحصُبِيُّ، المَشهُورُ بـ (ابنِ العَسَّالِ)** (٤٠٠هـ- ٤٨٧هـ)، فِي سُقُوطِ طُلَيطِلَةَ: [البَسِيطُ]

يَا أَهلَ أَندَلُسٍ، حُثُّوا مَطِيَّكُمُ   فَمَا المُقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الغَلَطِ
الثَّوبُ يَنسِلُ مِن أَطرَافِهِ وَأَرَى   ثَوبَ الجَزِيرَةِ مَنسُولًا مِنَ الوَسَطِ
وَنَحنُ بَينَ عَدُوٌّ لَا يُفَارِقُنَا   كَيفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ فِي سَفَطِ؟[1]

يُعَدُّ سُقُوطُ طُلَيطِلَة صَدمَةً كُبرَى أَصَابَتِ المُسلِمِينَ فِي الأَندَلُس بِالذُّهُولِ، فَمَا لَبِثَ أَنَّ تَرجَمَهُ الشَّاعِرُ عَبدُ اللَّهِ بنُ فَرَجٍ اليَحصُبِيُّ تَعبِيرًا مُثقَلًا بِالشُّؤمِ مُتَنَبِّئًا بِغُرُوبِ شَمسِ الأَندَلُس، نَجِدُ أَنَّ مَدِينَةَ طُلَيطِلَةَ كَسَابِقَتِهَا تَعَرَّضَت لِلغَزوِ مِن قِبَلِ المُستَعمِرِ، كَمَا عَانَت مِن غَدرِ أَصحَابِهَا، لِذَلِكَ تَحَوَّلَ النَّاسُ إِلَى أَشخَاصٍ جَشِعِينَ مُحِبِّينَ لِلمَالِ وَالمَلَذَّاتِ، مَا جَعَلَهُم يَحِيدُونَ عَن شُئُونِ الدَّولَةِ السِّيَاسِيَّةِ، مِمَّا زَادَ الوَضعَ سُوءًا، وَهَكَذَا انتَهَتِ الدَّولَةُ.

تَنَاوَلَ الأُدَبَاءُ وَالدَّارِسُونَ دَلَالَةَ هَذِهِ الأَبيَاتِ، بِصُوَرٍ مُختَلِفَةٍ عَبرَ العُصُورِ، تَرَاوَحَت بَينَ القَبُولِ وَالإِنكَارِ، فَبَعضُ الدَّارِسِينَ المُتَأَخِّرِينَ رَأَوا فِيهَا شَيئًا مِنَ الاعتِرَافِ بِالفِرَارِ يَومَ الزَّحفِ، فَابنُ العَسَّالِ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الفِرَارِ وَالهُرُوبِ وَالتَّخَلِّي عَن وَاجِبِهِمُ الوَطَنِيِّ، وَرَأَى آخَرُونَ أَنَّهُ ضَربٌ مِنَ المُجَازَفَةِ الَّتِي لَا تُحمَدُ عُقبَاهَا، فَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَصدُرُ عَن رُوحٍ مَهزُومَةٍ، وَيُعَبِّرُ عَن يَأسٍ دَاخِلِيٍّ طَغَى عَلَى مَشَاعِرِهِ، وَاستَحوَذَ عَلَى تَفكِيرِهِ[2]، وَفِي **رَأيِي المُوجَزِ** أَقُولُ: بِأَنَّهُ جَاءَ بِهَذَا المَطلَعِ الغَرِيبِ، لِيَلفِتَ الانتِبَاهَ، لِأَنَّ الغَرَابَةَ تُنَبِّهُ وَتُوقِظُ لَا مَحَالَةَ.

فِقدَانُ الأُمِّ وَغُصَّةُ القَلبِ:

كُلُّ مُرٍّ سَيَمُرُّ، وَكُلُّ أَلَمِ فِرَاقٍ سَيُنسَى إِلَّا أَلَمَ فقد الأُمِّ، يَتَجَدَّدُ بِاستِمرَارٍ، كَأَنَّهُ البَارِحَةَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ زَيدُونَ** فِي فَقدِ وَالِدَتِهِ المَكلُومَةِ: [الطَّوِيلُ]

أَمَقتُولَةَ الأَجفَانِ، مَالَكِ وَالِهَا   أَلَم تُرِكِ الأَيَّامُ نَجمًا هَوَى قَبلِي؟
أَقِلِّي بُكَاءً لَستِ أَوَّلَ حُرَّةٍ   طَوَت بِالأَسَى كَشحًا عَلَى مَضَضِ الثُّكلِ[3]
وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبرَةٌ إِذ رَمَت بِهِ[4]   إِلَى اليَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعتَبِرِي وَاسلِي
وَللهِ فِينَا عِلمُ غَيبٍ وَحَسبُنَا   بِهِ عِندَ جُورِ الدَّهرِ مِن حَكَمٍ عَدلِ[5]

يَصِفُ ابنُ زَيدُونَ وَالِدَتَهُ، فَقَد أَصبَحَت وَاهِيَةَ الجُفُونِ، كَأَنَّهَا قَد نَضَبَت فِيهَا الحَيَاةُ، وَذَلِكَ لِكَثرَةِ مَا زَرَفَتهُ مِنَ الدُّمُوعِ، وَأَنَّ عَقلَهَا قَد ذَهَبَ مِن شِدَّةِ الحُزنِ وَالفَقدِ، فَيُنَاجِي أُمَّهُ، دَاعِيًا اللَّهَ أَن يُصَبِّرَهَا، وَأَن تَتَحَمَّلَ مَا ابتَلَاهَا اللَّهُ بِهِ، وَيُخَفِّفُ عَن أُمِّهِ فَيَقُولُ لَهَا: "قَلِّلِي يَا أُمِّي بُكَاءَكِ، فَلَستِ أَوَّلَ أُمٍّ ضَمَّت جَوَانِحُهَا آلَامَ الثُّكلِ"، وَفِي الوَقتِ نَفسِهِ كَانَ ابنُ زَيدُونَ يَحمِلُ أَلَمًا

(1) نَفحُ الطِّيبِ مِن غُصنِ الأَندَلُسِ الرَّطِيبِ، 121/4.
(2) يُرَاجَعُ، تَلَقِّي رِثَاءِ ابنِ العَسَّالِ لِطُلَيطِلَة بَينَ التَّفَهُّمِ وَالإِنكَارِ، مليكة حيمَر، الجَزَائِرُ، جَامِعَةُ مَنتُورِي قُسَنطِينَة، مَجَلَّةُ العُلُومِ الإِنسَانِيَّةِ، ع٤٧، ٢٠١٧م، ٢٣٦- ٢٣٧.
(3) الكَشحُ: الجَانِبُ مَا بينَ الخاصِرَةِ إِلَى الضِّلعِ الخَلفِ، وَطَوى كَشحَه عَلَى الأمرِ: أي أضمَرَهُ، وسَتَرَهُ، المَضَضُ: الوَجَعُ، لِسَانُ العَرَبِ.
(4) رِوَايَةُ الوَافِي وَتَمَامُ المُتُونِ، وَفِي الأُصُولِ، (أَن رَمَت بِهِ)، الدِّيوَانُ، ٢٦٤.
(5) نَفسُهُ.

Faculty of Arts, Arish University

دَفِينًا، لَكِنَّهُ يُضمِرُهُ وَيَستُرُهُ، خَوفًا مِن أن تَتَألَّمَ أُمُّهُ أكثرَ مِن ذٰلِكَ، فَيُعَانِي ابنُ زَيدُونَ مَرَارَةَ الفِرَاق، وَيُكَابِدُ لَوَاعِجَ الحَنِين، فَكَم أرَّقَهُ طَيفُ أُمِّهِ، وَشُغِلَت عَينَاهُ بِالدُّمُوعِ عِندَ المَنَامِ، حَقًّا أنَّ الشَّوقَ إِلَى الأُمِّ، هُوَ مَوضُوعٌ اقتَضَتهُ غُربَةُ السِّجن، فَابنُ زَيدُونَ يَبحَثُ عَن مَكَانٍ يَلُوذُ بِهِ، وَيَعبُرُ خِلَالَهُ إِلَى الطُّمَأنِينَةِ وَالرَّاحَةِ مِن عَذَابِ الشَّوقِ وَالحَنِينِ وَالفِرَاق.

وَيَتَّخِذُ ابنُ زَيدُونَ مِن أُمِّ مُوسَى عِبرَةً، حِينَمَا قَذَفَت بِهِ فِي البَحر، امتِثَالًا لِأمرِ اللَّهِ ﷻ، فَيَأمُلُ ابنُ زَيدُونَ أنَّ الحَلِيمَ القَادِرَ، سَيَشمَلُهُ بِعَطفِهِ، وَيُسدِي إِلَيهِ أيَادِيَهُ، فَاللَّهُ ﷻ لَهُ حُكمُهُ فِيمَا يَقضِيهِ، مِن أحدَاثٍ قَد يَتَكَشَّفُ غَيبُهَا، وَحَسبُنَا عَدَالَتُهُ وَإِنصَافُهُ، إِذَا جَارَ عَلَينَا الدَّهرُ.

يُوَدِّعُ **ابنُ حَزمٍ** الأندَلُسِيِّ أرضَهُ الَّتِي أصبَحَت خَرِبَةً، لَا أهلَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ، فَيَتَحَسَّرُ عَلَى الحَالَةِ الَّتِي آلت إِلَيهَا، وَلَكِنَّنَا نَجِدُهُ يَتَذَكَّرُ اللَّهَ ﷻ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَيَعلَمُ يَقِينًا أنَّ هَذَا مِن عِندِ اللَّهِ، فَلَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

سَلَامٌ عَلَىٰ دَارٍ رَحَلنَا وَغُودِرَت ... خَلَاءً مِنَ الأهلِينَ مُوحِشَةً قَفرَا

تَرَاهَا كَأَن لَم تَغنَ بِالأمسِ بَلقَعًا ... وَلَا عُمِرَت مِن أهلِهَا قَبلَنَا دَهرَا

وَلَكِنَّ أقدَارًا مِنَ اللهِ أنفِذَت ... تُدَمِّرُنَا طَوعًا لِمَا حَلَّ أو قَهرَا

فَيَا خَيرَ دَارٍ قَد تُرِكتِ حَمِيدَةً ... سَقَتكِ الغَوَادِي مَا أجَلَّ وَمَا أسرَىٰ

وَيَا دَهرَنَا فِيهَا مَتَىٰ أنتَ عَائِدٌ ... فَنَحمَدُ مِنكَ العَود أن عُدتَ وَالكَرَّا

سَأندُبُ ذَاكَ العَهدَ مَا قَامَتِ الخَضرَا ... عَلَىٰ النَّاسِ سَقفًا وَاستَقَلَّت بِنَا الغَبرَا[1]

يَصِفُ ابنُ حَزمٍ مَا حَلَّ بِمَدِينَتِهِ، بِصَوتٍ شِعرِيٍّ مَهزُومٍ، مُظهِرًا العِبرَةَ وَالعِظَة، مُعَبِّرًا عَنِ الدَّمَارِ الَّذِي حَلَّ بِمَدِينَتِهِ، وَالخَرَابِ الَّذِي لَحِقَ بِهَا، وَهَلَاكِ السَّادَةِ، وَالنَّغَيُّرِ السَّلبِيِّ، وَالمَآلِ الَّذِي آلت إِلَيهِ، وَتَبَدُّلِ حَالِهَا، فَخَلَت مِن قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا وَرِجَالِهَا الَّذِينَ كَانُوا يُحسِنُونَ الدِّفَاعَ عَنهَا، فَكَانَت أيَّامُهُم بَهِيجَةً، فَقَد تَغَيَّرَتِ الأحوَالُ وَسَاءَتِ الأوضَاعُ، وَيُخَاطِبُ الدَّهرَ مُستَعطِفًا إِيَّاهُ: مَتَى العَودَةُ إِلَى أوطَانِنَا؟ فَقَد زَادَ الشَّوقُ أَلَمًا، فَعَلَى أيِّ حَالٍ نُرِيدُهَا، حَتَّى وَإِن كَانَت قَفرًا.

تُصَوِّرُ الأبيَاتُ إِنسَانًا يَعِيشُ فِي بَحرٍ مِنَ الأحزَانِ هَائِمًا مُضطَرِبًا، كَثِيرَ البُكَاءِ، شَدِيدَ الوَجدِ وَالصَّبَابَةِ، يَبحَثُ كَيفَ الخَلَاصُ مِن هَذِهِ الحَالَةِ، فَإِنَّهُ لَا يَعرِفُ لَهَا عِلَّةً أو سَبَبًا.

يَتَذَكَّرُ **عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ (صَقرُ قُرَيشٍ)** (١١٣هـ- ١٧٢هـ) الحَنِينَ إِلَى وَطَنِهِ الشَامَ، فَيَفتَقِدُهَا قَهرًا وَأَلمًا، لَقَد أتَى الأندَلُسَ فِرَارًا مِن بَطشِ العَبَّاسِيِّينَ الَّذِينَ أكثَرُوا القَتلَ فِيمَن كَانَ مُؤَهَّلًا مِنَ الأمَوِيِّينَ لِتَولِّي الخِلَافَةِ، فَقَتَلُوا الأمَرَاءَ وَأبنَاءَ الأمَرَاءِ، وَكَانَ فِي الوَقتِ نَفسِهِ عَبدُ الرَّحمَنِ مَطلُوبًا، فَأخَذَ أخَاهُ هِشَام وَتَرَكَ النِّسَاءَ وَالأطفَالَ، وَخَرَجُوا هَارِبِينَ نَحوَ نَهرِ الفُرَاتِ، فَنَعِبَ أخُوهُ هِشَامُ مِنَ السِّبَاحَةِ، فَنَادَاهُمَا العَبَّاسِيُّونَ أن يَعُودُا وَلَهُمَا الأمَانُ، فَعَادَ هِشَامُ، وَذَبَحُوهُ أمَامَ أخِيهِ، وَهَرَبَ عَبدُ الرَّحمَنِ إِلَى أخوَالِهِ فِي المَغرِبِ، وَمِنهَا إِلَى الأندَلُس، وَتَوَلَّى فِيهَا الإِمَارَةَ وَعَاشَ فِي قُرطُبَةَ عُمرًا مَدِيدًا، إِلَى أن تَبَدَّلَ بِهَا الحَالُ[2]، فَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ صَقرُ قُرَيش: [الكَامِلُ]

يَا نَخلَةً أنتِ غَرِيبَةٌ مِثلِي ... فِي الغَربِ نَائِيَةٌ عَنِ الأصلِ

فَابكِي وَهَل تَبكِي مُكَيِّسَةٌ ... عَجمَاءُ لَم تُطبَع عَلَىٰ خَيلِ

لَو أنَّهَا تَبكِي إِذًا لَبَكَت ... مَاءَ الفُرَاتِ وَمَنبَتَ النَّخلِ

لَكِنَّهَا ذَهِلَت وَأذهَلَنِي ... بُغضِي بَنِي العَبَّاسِ عَن أهلِي[3]

---

[1] تَارِيخُ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ (عَصرِ سِيَادَةِ قُرطُبَة)، إِحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، دَارُ الثَّقَافَةِ، ط2، 1969م، ١٣٩.

[2] يُرَاجَعُ، الشِّعرُ وَالشُّعَرَاءُ، ابنُ قُتَيبَة (ت276ه)، تَحقِيقُ: أحمَد مُحَمَّد شَاكِر، القَاهِرَةُ، دَارُ الحَدِيثِ، ٢٠٠٧م، 512/1.

[3] السَّابِقُ، ١٤٤– ١٤٥.

Faculty of Arts, Arish University

يَستَهِلُّ عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ أبيَاتَهُ بِمُنَادَاتِهِ النَّخلة، ويَقُولُ لَهَا: حَالُهَا كَحَالِهِ، فِي التَّغَرُّبِ فَهِيَ غَرِيبَةٌ عَنِ الأرض، وَهُوَ غَرِيبٌ عَنِ الأهلِ وَالوَطَنِ، فَقَد جَعَلَ النَّخلةَ إنسَانًا يَغتَرِبُ وَيَنأَى.

استَشهَدَ عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ بالنَّخلةِ، لِأنَّ النَّخلةَ العَرَبيَّة مِثلُ النَّاقةِ، كِلتَاهُمَا رَمزٌ شَامِخٌ لِلتَّارِيخِ العَرَبِيِّ، تَكمُنُ قِيمَةُ عَبدِ الرَّحمَنِ الدَّاخِلِ فِي التَّعبيرِ عَن ضَعفِ النَّفسِ الإنسَانِيَّةِ، وَرَصدِ مَا يُؤثِّرُ فِيهَا مِن عَوَامِلَ مَعنَوِيَّةٍ وَمَادِّيَّةٍ وَإحسَاسٍ عَامٍّ، وَيَستَمِرُّ فِي حَدِيثِهِ مَعَ النَّخلةِ وَكَأنَّهُ عَقَدَ مَعَهَا مُشَارَكَةً وِجدَانِيَّةً، فلو بَكَوا مَاءً تَفِيَّضَ بِنَهرِ الفُرَاتِ، وَوَصَلَ حَتَّى مَنبَتِ النَّخلِ، مَا تَغَيَّرَ مِنَ الأمرِ شَيءٌ، لقد خُذِلَت، كَمَا خَذَلَهُ بَنو العَبَّاس، فَجَعَلُوهُ يَترُكُ أهلَهُ وَبَلَدَهُ رَغمًا عَنهُ، وَاستَبَاحُوا دِمَاءَ أخِيهِ غَدرًا، بَعدَ أن أعطوهُ عَهدَ السَّلامِ، فقد قُتِلَ أمَامَ عَينَيهِ، وَهُوَ عَاجِزٌ عَنِ الدِّفَاعِ، فَجَاءَت تَعبِيرَاتُ عَبدِ الرَّحمَنِ صَادِقَةً حَارَّةً مِنَ القَلبِ، تُلهِبُ النُّفوسَ، مُستَعطِفَةً القُلُوبَ، بِالرُّجُوعِ إلى وَطَنِهِ الحَبِيبِ.

قولُهُ، أيضًا: [الطَّوِيلُ]

تَبَدَّت لنَا وَسطَ الرُّصَافَةِ نَخلَةٌ ... تَنَاءَت بِأرضِ الغَربِ عَن بَلَدِ النَّخلِ
فَقُلتُ شَبِيهِي فِي التَّغَرُّبِ والنَّوَى ... وَطُولِ التَّنَائِي عَن بَنِيَّ وَعَن أهلِي
نَشَأتِ بِأرضٍ أنتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ ... فَمِثلُكِ فِي الإقصَاءِ وَالمنتَأى مِثلِي
سَقَتكِ غَوَادِي المُزنِ مِن صَوبِهَا الَّذِي ... يَسِحُّ وَيَستَمرِي السِّمَاكَينِ بِالوَبلِ(1)

يُكَرِّرُ عَبدُ الرَّحمَنِ الدَّاخِلُ تَغرُّبَ النَّخلةِ وَتَشبِيهَ حَالِهِ بِحَالِهَا، فَيَدعُو لَهَا أن تَسقِيَهَا الغُيُومُ وَأن يَسِحَّ عَلَيهَا المَطَرُ، فَقَد رَآهَا مُفرَدَةً فِي الرُّصَافَةِ، فَأهَاجَت شَجَنَهُ وَتَذَكَّرَ وَطَنَهُ الجَرِيحَ.

أمَّا الرُّصَافةُ فَهُوَ حَيٌّ فِي قُرطُبَةِ، عَلَى شَطِّ النَّهرِ الكَبِيرِ، وقَد سَمَّاهَا عَلَى اسمِ الرُّصَافَةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ، تِلكَ الَّتِي بَنَاهَا جَدُّهُ هِشَامُ، ويُلَاحَظُ أنَّ تَأثُّرَ المَغَارِبَةِ بِالمَشَارِقَةِ كَانَ إلى حَدٍّ بَعِيدٍ، فقد سَمَّى الأندَلُسِيُّونَ بَعضَ مُدُنِهِم بأسمَاءِ مُدُنٍ فِي الشَّرقِ، بَل لَقَّبَ شُعَرَاءُ أنفُسَهُم بِألقَابِ شُعَرَاءَ مَشَارِقَةٍ.

فَصَقرُ قُرَيشٍ عَاشَ فِي بِيئَةٍ يَكثُرُ فِيهَا النَّخِيلُ، تَضطَرُّهُ الظُّرُوفُ السِّيَاسِيَّةُ آنَذَاكَ إلى الرَّحِيلِ إلَى الغَربِ، حَيثُ بِلَادُ الأندَلُسِ، وَهُنَاكَ يَنزِلُ بِقَصرِ الرُّصَافَةِ الَّتِي بَنَاهَا عَلَى غِرَارِ رُصَافَةِ جَدِّهِ هِشَامِ بنِ عَبدِ المَلِكِ، فَتَعتَرِضُهُ ضِمنَ مَشَاهِدِ الحَيَاةِ المُتَنَوِّعَةِ صُورَةُ نَخلَةٍ شَامِخَةٍ، فَيَتَذَكَّرُ أرضَ آبَائِهِ وَأجدَادِهِ، وَتَنبَعِثُ فِي نَفسِهِ ذِكرَيَاتُ مَسقَطِ رَأسِهِ، فَيَستَقِي مِن صُورَةِ النَّخلةِ مَادَّتَهُ الشِّعرِيَّةَ، عَاقِدًا بَينَهُ وَبَينَهَا عَلَاقَاتٍ وِجدَانِيَّةً مُبتَكَرَةً، لِيَرسُمَ لَنَا لَوحَةً بَلِيغَةً مِن مَشَاعِرِ الحَنِينِ وَالِاغتِرَابِ.

مَا بَينَ اللَّهفَةِ واللِّقَاءِ:

يَقُولُ **ابنُ حَزمٍ فِي** فَقدِ أهلِهِ وَوَلَدِهِ وَهُوَ فِي السِّجنِ: [البَسِيطُ]

مُسَهَّدُ القَلبِ فِي خَدَّيهِ أدمُعُهُ ... قَد طَالَمَا شَرِقَت بِالوَجدِ أضلُعُهُ
دَانِي الهُمُومِ بَعِيدُ الدَّارِ نَازِحُهَا ... رَجِيعُ الأنِينِ سَكِيبُ الدَّمعِ مُفزَعُهُ
يَأوِي إلَى زَفَرَاتٍ لَو يُبَاشِرُهَا ... قَاسِي الحَدِيدِ فَوَاقًا ذَابَ أجمَعُهُ
إذَا تَخَلَّلَ فِي أرجَائِهَا فَرَجًا ... ظَلَّت قَوَاصِفُهَا بِاليَأسِ تَقرَعُهُ(2)

فِي الأبيَاتِ السَّابِقَةِ شَكوَى مُوجِعَةٌ مِمَّا آلت إليهِ حَالَتُهُ مِن ضَعفٍ وَنُحُولٍ، ثُمَّ فِي حَنِينٍ عَارِمٍ إلَى أهلِهِ وَوَلَدِهِ، يُنَادِي ذَاكَ الرَّاحِلِ بَعِيدًا، نَحوَ دِيَارِهِ، حَيثُ يُوجَدُ رَمَقُهُ وَقَلبُهُ، وَيَقُولُ: إنَّ قَلبَهُ سَهرَانُ لَا يَنَامُ، وَأدمُعَهُ تَنهَمِرُ عَلَى خَدِّهِ، لَقَد تَثَاقَلَت عَلَيهِ الدُّمُوعُ، وَأصبَحَ الهَمُّ ثَقِيلًا عَلَيهِ قَرِيبًا مِنهُ، لَا يَستَطِيعُ تَحَمُّلَهُ، بَعدَ أن كَانَ لَا يَعرِفُ لِلحُزنِ سَبِيلًا، فَقَد قَرُبَ الهَمُّ وَبَعُدَتِ الدِّيَارُ، وَعَادَتِ الدُّمُوعُ تَنزِرِفُ رَغمًا عَنهُ.

(1) نَفسُهُ.
(2) الدِّيوَانُ، ٦٩.

Faculty of Arts, Arish University

الحق أن فَاقِدُ الأخّ مُرتَـابُ الحَـال، شَـارِدُ الذّهن، لَقَد فَقَدَ عَضُدَهُ، فَالعَاقِلُ مَن كَـانَ رَادًّا لِهَوَاهُ، مُتَّبِعًا لِهُدَاهُ، فَهُوَ امتِحَـانٌ صَعبٌ لَا يَجتَازُهُ إِلَّا مِن هَدَاهُم اللَّهُ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **يُوسُفُ بنُ هَارُونَ الرَّمَادِيُّ** (٤٠٣هـ) فِي فَقدِ أَخِيهِ: [الوَافِرُ]

أَخِـــي، حَالِـــي لِفَقـــدِكَ عَن جُفُـونِي ... كَحَـــالِ الشَّمـــسِ فِـــي فَـــقـــدِ الشُّعَاعِ

عَـدَانِـــي عَنـــكَ تَعجِـيـــزٌ وَعُـــذرٌ ... طَرِيـــفٌ أَن أَصَخـــتَ إِلـــىٰ استِمَـــاعِ

وَذَلِـــكَ أَن جَـــرَىٰ دَمعِـــي نَجِيـــعًـــا ... وَفَـــاضَ مِـــنَ الصُّـــدُورِ بِـــلَا انقِطَـــاعِ

فَصِـــرتُ إِلَيـــكَ مُجتَلِـــبًـــا بِفَصـــدِي ... دَمِـــي مِـــن مُقلَتَـــيَّ إِلَـــىٰ ذِرَاعِـــي

فَسَالَـــت كُلُّـــهَـــا تَجـــرِي اشتِيَـــاقًـــا ... وَسَحًّـــا كَـالشَّـــآبِيـــبِ[1] السِّـــرَاعِ

وَلَـــم يَمـنَـــعِ مَسِيـــلٌ عَـــن مَسِـــيـــلٍ ... وَكَـــادَ الجُـــرحُ يَرغَـــبُ فِي انتِجَـــاعِـــي

فَكُـنـــتُ كَـمَـــن يُـــدَاوَىٰ مِـــن صُـــدَاعٍ ... فَخَـــفَّ وَلَـــم يَـــزُل أَلَـمُ الصُّـــدَاعِ[2]

يَتَفَجَّـعُ الرَّمَـادِيُّ لِفَقـدِ أَخِيـهِ، فَـالأَخُ هُـوَ السَّـنَدُ وَالقُـوَّةُ، لَقَـد قَـالَ اللهُ ﷻ: (سَنَشُـدُّ عَضُـدَكَ بِأَخِيـكَ وَنَـجۡعَـلُ لَكُمَـا سُلۡطَٰنٗا٣٥) [القَصَصُ] فَلَا يَأخُذُ بِيَدِكَ لِبَرٍّ الأَمَانِ سِوَى أَخِيكَ، لِأَنَّهُ مَصدَرُ القُوَّةِ وَالأَمَانِ، فَاللَّهُ لَم يَقُل: بِأُمِّكَ وَلَا أَبِيكَ، إِنَّمَا قَالَ: بِأَخِيكَ، بِفَقدِهِ يَفقِدُ الكَائِنُ مِنَّا الِاستِقرَارَ وَالأَمَانَ، وَيُوسُفُ الرَّمَادِيُّ أَمَامَ فَجِيعَةٍ كُبرَى وَوَاقِعِ مُؤلِمٍ وَصَدمَةٍ قَوِيَّةِ التَّأثِيرِ، فَكَانَ أَخُوهُ عِندَهُ كَشُعَاعِ الشَّمسِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ لِلشَّمسِ بِدُونِهِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى شِدَّةِ حُبِّ الرَّمَادِيِّ لِأَخِيهِ، فَقَد استَخدَمَ الصُّوَرَ البَلَاغِيَّةَ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ أَخَاهُ هُوَ مَصدَرُ قُوَّتِهِ، وَأَنَّ الحَيَاةَ بِدُونِهِ سَتُصبِحُ مُظلِمَةً.

نُلَاحِظُ أَنَّ عَاطِفَةَ الأَسَى وَالحُزنِ مُسَيطِرَةٌ عَلَى الرَّمَادِيِّ، وَعُيُونُهُ لَا تَسكُتُ عَنِ البُكَاءِ، لَقَد جَاءَت تَعبِيرَاتُهُ صَادِقَةً، مُعَبِّرَةً عَن مُعَانَاةِ الفَقدِ وَالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا، (جَرَى دَمعِي نجيعًا، فَاضَ مِنَ الصُّدُورِ بِلَا انقِطَاعٍ، دَمِي مِن مُقلَتَيَّ، تَجرِي اشتِيَاقًا، وَسَحًّا كَالشَّآبِيبِ) فَكُلُّهَا تَعبِيرَاتٌ تُبَيِّنُ الحُزنَ الَّذِي خَيَّمَ عَلَى الرَّمَادِيِّ.

إِنَّ شَوقَهُ لِرُؤيَةِ أَخِيهِ قَد فَاقَ الوَصفَ، جَاعِلًا مِنَ الدُّمُوعِ إِنسَانًا يَجرِي مُتَلَهِّفًا إِلَى اللِّقَاءِ بَعدَ الفِرَاقِ، (فَسَالَت كُلُّهَا تَجرِي اِشتِيَاقًا)، فَهَذِهِ الصُّورَةُ البَلَاغِيَّةُ تُبَيِّنُ مَدَى قَسوَةِ مَا يُعَانِيهِ مِن فِرَاقٍ بَعدَ المَوتِ، فَإِنَّ شَوقَهُ لِأَخِيهِ يَزدَادُ يَومًا بَعدَ يَومٍ، فَقَد أَصبَحَ وَحِيدًا.

إِذن، تَتَجَلَّى فِي قَصَائِدِ فَقدِ المَوطِنِ وَالأَهلِ، مُعَانَاةُ الذَّاتِ، فَتُظهِرُ لَنَا صِدقَ التَّجرِبَةِ، وَحَقِيقَةَ المَوقِفِ، فَالمَوتُ حَقِيقَةٌ لَا مَفَرَّ مِنهَا، فَمَن مِنَّا لَم يَذُق نَارَ الفِرَاقِ الدَّائِمِ، إِلَى أَن يَأذَنَ اللَّهُ ﷻ لَنَا بِالرَّحِيلِ، فَتَتَبَدَّلُ عِندَهَا الدُّمُوعُ الحَزِينَةُ إِلَى دُمُوعٍ بَارِدَةٍ مِن عِوَضِ اللَّهِ ﷻ، فَأَصدَقُ مَشَاعِرَ وَأَصدَقُ كَلِمَاتٍ تَكُونُ عِندَ رَحِيلِ الأَحِبَّةِ، لِأَنَّ القَلبَ فِي هَذَا الوَقتِ هُوَ المُتَحَكِّمُ وَالنَّاطِقُ، فَنَجِدُ تَلَعثُمًا فِي الكَلِمَاتِ أَحيَانًا، لَكِنَّ القَلبَ وَقتَهَا يُرِيدُ أَن يَبُوحَ بِكُلِّ مَا بِدَاخِلِهِ، وَلَكِنَّ العِبَارَاتِ تَتَزَاحَمُ بِسَبَبِ شِدَّةِ انطِلَاقِهَا لِلجَهرِ بِأَصدَقِ عَاطِفَةٍ.

المَبحَثُ الثَّالِثُ: فَقدُ المَحبُوبَـــةِ

الحُبُّ هُوَ مَجمُوعَةُ المَشَاعِرِ العَاطِفِيَّةِ الَّتِي تَتَرَاوَحُ مِن أَسمَى الأَخلَاقِ إِلَى أَبسَطِ العَادَاتِ، لَيسَ الحُبُّ مَقصُورًا عَلَى الزَّوجَةِ، بَل هُوَ مَفهُومٌ مُتَّسِعٌ، يَشمَلُ الأُمَّ أَوَّلًا، ثُمَّ الأَبَ، وَالأَخَوَاتِ، والزوجةِ، والأولاد.

وَلَم يَمُر بِالأَدَبِ العَرَبِيِّ عَصرٌ مِنَ العُصُور إِلا وكَانَ الحُبُّ فِيهِ يَنبُوعًا مِن يَنَابِيعِهِ، بَدءًا مِنَ الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ بِصُوَرِهِ التَّقلِيدِيَّةِ، وَلُغَتِهِ المُتَقَنِّنَةِ وَتَشبِيهَاتِهِ، إِلَى العَصرِ الأَندَلُسِيِّ، فَقَد كَانَت كُلُّ قَصِيدَةٍ مِن قَصَائِدِهِ تَقرِيبًا تُفتَتَحُ بِاسمِ حَبِيبَةٍ يُتَغَنَّى بِاسمِهَا، أَو وَصفِ دِيَارِهَا، أَو الوُقُوفِ لِوَدَاعِهَا، أَو البُكَاءِ لِفِرَاقِهَا[3].

---

(1) الشَّآبِيبُ: أي يَنزِلُ المَطَرُ دُفعَاتٍ، يُرَاجَعُ: لِسَانُ العَرَبِ، مَادَّة (ش أ ب).

(2) شعرُ يُوسُفَ بن هَارُونَ الرَّمَادِيِّ، تَحقِيقُ: مَاهِر زُهَير جرَّار، بَيرُوتُ، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشر، 1400ه/1980م، ٨٢– ٨٣.

(3) يُرَاجَعُ، المَرأَةُ فِي الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ، عَلِي هَاشِم، بَغدَاد، مَطبَعَةُ المَعَارِفِ، ١٩٦٠م، ١١٦.

Faculty of Arts, Arish University

يَنتَشِرُ هَذَا النَّوعُ مِنَ الشِّعرِ فِي العَصرِ الأُمَوِيِّ، فِي الدَّولَةِ الأندَلُسِيَّةِ، وَمِنَ المُلَاحَظِ أنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الشِّعرِ لَم يَكُن مَقصُورًا عَلَى فِئَاتِ الشُّعَرَاءِ، إنَّمَا شَارَكَ فِيهِ الكُتَّابُ وَالفُقَهَاءُ وَالفَلَاسِفَةُ وَالأطِبَّاءُ، ذَلِكَ بِسَبَبِ الطَّبِيعَةِ الأندَلُسِيَّةِ، الَّتِي عُرِفَت بِجَمَالِهَا الجَذَّابِ، مِمَّا كَانَ يَبعَثُ الرَّغبَةَ فِي نُفُوسِ الشُّعَرَاءِ، لِنَظمِ الشِّعرِ، بِمَا يَستَثِيرُهُ مِن عَوَاطِفِهِمُ الجَيَّاشَةِ، فَيُحَرِّكُ خَيَالَهُم، وَعَاطِفَتَهُمُ الصَّادِقَة، وَيُلهِمُهُم قَولَ الشِّعرِ[1].

وَقَد امتَازَ المُجتَمَعُ الأندَلُسِيُّ بِطَبِيعَتِهِ الاجتِمَاعِيَّةِ المُنفَتِحَةِ عَلَى ثَقَافَاتٍ وَأعرَاقٍ وَأجنَاسٍ عِدَّةٍ، وَبِجَمَالِ بِيئَتِهِ، مُوَفِّرًا جَوًّا مِن رَغَدِ العَيشِ لِلمُحِبِّينَ، حِينَ أسبَغَ عَلَيهِم نِعمَةَ التَّمَتُّعِ بِلَحَظَاتِ الأُنسِ مَعَ أحِبَّتِهِم، وَاللَّذَّةِ بِقُربِهِم، فَقَد عَرَفَ الأندَلُسِيُّونَ الحُبَّ وَعَاشُوهُ بِوُجُوهٍ اختَلَفَت بِاختِلَافِ الظُّرُوفِ وَالمُنَاسَبَاتِ، فَتَارَةً نَجِدُ اللَّهوَ وَالعَبَثَ، وَتَارَةً نَجِدُ العِفَّةَ فِي الحُبِّ[2].

وَوَاقِعُ الحَالِ لَا يَضُمُّ بَينَ طَيَّاتِهِ شَوقَ المُحِبِّينَ وَلَذَّةَ اللِّقَاءِ فَحَسبُ، إنَّمَا يَحمِلُ فِي جَانِبِهِ الآخَرِ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ بِاستِحَالَةِ الوَصلِ وَتَبَدُّلِ الأحوَالِ بِرَحِيلِ الأحِبَّةِ، وَتَفَرُّقِ شَملِ العُشَّاقِ وَسَطوَةِ النَّجَافِي، فَشَبَحُ الفِرَاقِ لَابُدَّ أن يَحِلَّ بَينَهُم لِأسبَابٍ مَعرُوفَةٍ لَهُم، وَمَجهُولَةٍ أحيَانًا أُخرَى، وَمِن هُنَا فَإنَّ الشَّاعِرَ الَّذِي عُرِفَ بِرِقَّةِ الإحسَاسِ وَعَدَمِ التَّحَرُّجِ فِي التَّعبِيرِ عَن مَشَاعِرِهِ عِندَ فِرَاقِ أحِبَّتِهِ، عَمَدَ إلَى البُكَاءِ وَإرَاقَةِ دَمعِ العَينِ وَسِيلَةً لِإظهَارِ تَأثُّرِهِ، وَالكَشفِ عَن خَبَايَا رُوحِهِ، فَكَمَا أنَّ العَينَ لَا تَكذِبُ فَإنَّ الدُّمُوعَ لَا تُنَافِقُ، فَالبُكَاءُ تَعبِيرٌ إنسَانِيٌّ صَادِقٌ يَلجَأُ إلَيهِ الشَّاعِرُ، لِتَأثِيرِهِ وَقُوَّتِهِ فِي التَّعبِيرِ عَنِ المُعَانَاةِ الإنسَانِيَّةِ الَّتِي تَختَلِجُ فِي نَفسِهِ وَحِيدًا بَعِيدًا عَمَّن أحَبَّ، عِندَهَا يُثبِتُ البُكَاءُ وُجُودَهُ، بِوَصفِهِ ظَاهِرَةً إنسَانِيَّةً مُثقَلَةً بِشِحنَاتِ القَلَقِ وَالتَّوَتُّرِ وَالإحبَاطِ، لِيَعكِسَ الوَاقِعَ النَّفسِيَّ الحَزِينَ، وَيَمنَحَ لُغَتَهُ مَلَامِحَ التَّعبِيرِ الإنسَانِيِّ مُحَوِّلًا إيَّاهَا إلَى أقسَى اللُّغَاتِ وَقعًا وَتَأثِيرًا[3].

وَشِعرُ الفَقدِ مِنَ الأغرَاضِ البَارِزَةِ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، فَقَد شَغَلَ حَيِّزًا كَبِيرًا مِن دِيوَانِهِم، وَقَد اِستَأثَرَتِ المَحبُوبَةُ مِنهُ بِنَصِيبٍ وَافِرٍ لَا يُمكِنُ إغفَالُهُ، وَأبدَى الأندَلُسِيُّونَ وَجدًا عَظِيمًا عَلَى فَقدِهِنَّ، تَمَثَّلَ فِي دَوَاوِينَ نُظِمَت فِي فَقدِهِنَّ، إضَافَةً إلَى الأشعَارِ الَّتِي نُظِمَت فِي فَقدِ قَرِيبَاتِ مُلُوكِهِم وَأمَرَائِهِم وَوُزَرَائِهِم، تَعزِيَةً لَهُم.

وَعِندَ تَتَبُّعِي لِشِعرِ فَقدِ المَحبُوبَةِ وَالبُكَاءِ عَلَيهَا فِي شِعرِ الأندلس في عصر الدولة الأموية، وَجَدتُ أنَّ هَذَا اللَّونَ قَد كَثُرَ حَتَّى غَدَا أمرًا لَافِتًا يَستَحِقُّ النَّظَرَ وَالتَّمحِيصَ، وَقَد أطلَقَ عَلَيهِ إحسَان عَبَّاس "البُكَاء عَلَى زَوَالِ الرِّقَّةِ وَالجَمَال"[4].

وَلِهَذَا اللَّونِ مِنَ الرِّثَاءِ تَفسِيرَاتٌ اِجتِمَاعِيَّةٌ، تَتَمَثَّلُ فِي شُعُورِ الأندَلُسِيِّ بِقِيمَةِ المَرأةِ، وَتَقدِيرِهِ لِدَورِهَا، وَكَذَلِكَ الإحسَاسِ المُرهَفِ لَدَى الشَّاعِرِ الأندَلُسِيِّ، وَشُعُورِهِ الدَّائِمِ بِالحَاجَةِ إلَى سَكَنٍ يَأوِي إلَيهِ، وَقَد كَانَتِ المَحبُوبَةُ بِمَثَابَةِ هَذَا السَّكَنِ، الَّذِي يُشعِرُهُ بِالطُّمَأنِينَةِ، وَيُشَارِكُهُ صُعُوبَاتِ الحَيَاةِ كُلِّهَا.

وَشِعرُ الفَقدِ مِن أهَمِّ أسبَابِهِ، فَقَدُ المَحبُوبَةِ، فَمَوقِفُ الوَدَاعِ مِنَ المَوَاقِفِ الصَّعبَةِ الَّتِي تُفتَضَحُ فِيهَا عَزِيمَةُ كُلِّ مَاضِي العَزَائِمِ، وَتَذهَبُ قُوَّةُ كُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ، وَتَسكُبُ عَينُ كُلِّ جَمُودٍ، وَمِنَ العُشَّاقِ مَن يَبكِي لِتَلَمُّسِ الأخبَارِ أو عِندَ ظُهُورِ المَعَالِمِ وَمُطَالَعَةِ الرُّسُومِ، فَإنَّ أكثَرَهُم حُرقَةً وَلَوعَةً مَن تَفِيضُ دُمُوعُهُ عِندَ مَوقِفِ الفِرَاقِ[5]، يُحَدِّثُنَا الرَّحِيلُ الَّذِي يَضَعُ الشَّاعِرَ وَجهًا لِوَجهٍ أمَامَ الحَقِيقَةِ المُرَّةِ وَالَّتِي يَقِفُ أمامها عَاجِزًا، لَيسَ فَقَط عَن استِيعَابِهَا، إنَّمَا يَجِدُ قسوةَ الفِرَاقِ عَلَى قَلبِهِ، مَعَ حُزنٍ وَيَأسٍ دَائِمَينِ مَبعَثُهُمَا الفِرَاقُ، وَبِهَذَا لَا يَجِدُ أمَامَهُ إلَّا الدُّمُوعَ المُنهَمِرَةَ، لِيُعَبِّرَ عَن ذَلِكَ الهَمِّ وَالحُزنِ، وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي قَولِ **ابن زَيدُونَ:** [البَسِيطُ]

بِنتُم وَبِنَّا، فَمَا ابتَلَّت جَوَانِحُنَا ... شَوقًا إلَيكُم وَلَا جَفَّت مَآقِينَا

نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُم ضَمَائِرُنَا ... يَقضِي عَلَينَا الأسَى لَولَا تَأسِّينَا

حَالَت لِفَقدِكُمُ أيَّامُنَا فَغَدَت ... سُودًا، وَكَانَت بِكُم بِيضًا لَيَالِينَا[6]

---

[1] يُرَاجِعُ، الأدَبُ الأندَلُسِيُّ، جَوَّدَت الرِّكَابِي، القَاهِرَة، دَارُ المَعَارِفِ، ٢٠٠٦م، ١٦٥.
[2] يُرَاجِعُ، الحُبُّ فِي الأندَلُسِ ظَاهِرَة اجتِمَاعِيَّة بِجُذُورٍ مَشرِقِيَّةٍ، جَودَت مِدلِج، بَيرُوت، دَارُ لِسَانِ العَرَبِ، 1985م، 293.
[3] يُرَاجِعُ، بَوَاعِثُ البُكَاءِ وَدَلَالَاتِه الفَنِّيَّة وَالمَوضُوعِيَّة فِي الشِّعرِ العَرَبِيِّ قَبلَ الإسلَامِ، سَمِير جَعفَر يَاسِين الدَّوري، رِسَالَةُ مَاجِستِير، جَامِعَةُ بَغدَاد، كُلِّيَّة الآدَابِ، 1998م، ١٣.
[4] تَارِيخُ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ (عَصرِ الطَّوَائِفِ وَالمُرَابِطِينَ)، 119- 120.
[5] يُرَاجِعُ، مَدَامِعُ العُشَّاق، زَكِيُّ مُبَارَكُ، القَاهِرَةُ، مَنشُورَاتُ المَكتَبَةِ المِصرِيَّةِ، ط٢، 1353هـ، ١٤.
[6] الدِّيوَانُ، ١٤٢.

Faculty of Arts, Arish University

يَستَهِلُّ ابنُ زَيدُونَ أبيَاتَهُ بالفِرَاق قَائِلًا: بَعُدتُم وبَعُدنَا، حَيثُ يَتَحَوّلُ حُزنُ ابن زَيدُونَ لِفقدِ مَحبُوبَتِهِ وَلّادَةَ، إلى اليَأسِ مِن عَدَمِ اللِّقَاءِ الدَّائِمِ، وَالإحسَاسِ بِنَارِ الحُبِّ وَالشَّوقِ تَتَأجَّجُ فِي قَلبِهِ، لِتَحرِقَ فُؤَادَهُ، وَتَتَعَاظَمُ مُعَانَاتُهُ حَدَّ التَّبَرُّمِ مِنَ الحَيَاةِ، وَحَالَةِ الحُزنِ المُتَجَدِّدِ فِي كُلِّ حِينٍ، ولِكَونِ الشَّاعِرِ العَرَبِيِّ نَمَطًا انفِعَالِيًّا تَهُزُّهُ المَوَاقِفُ وَتُؤَثِّرُ فِيهِ الأَحدَاثُ وَالأَقوَالُ(1).

وَقَد يَكُونُ فِي الدُّنيَا مَا يُغْنِي الوَاحِدَ مِنَ النَّاسِ عَن أهلِ الدُّنيَا بِأكمَلِهَا، ولَكِنِ الدُّنيَا بِأسرِهَا لَا يُمكِنُ أن تُغنِي مُحِبًّا عَن مَحبوبِه، وأن شبرًا في شبرٍ يَسَعُ مُتَحَابَّين، وَأَنَّ الدُّنيَا بَأسْرِهَا لاتَسَعُ مُتَبَاغِضَين، وَأَرَى أَنَّ الحُبَّ قُدْرَةٌ سَاحِرَةٌ، يَمْلأُ فَرَاغَ القَلبِ، وَيَتَرَبَّعُ فِيهِ وَحْدَه، وَحِينَمَا يَستَمِرُّ عَنكَ غِيَابُ الحَبِيبِ؛ سَتَعتَادُ اللَّيَالِي بِلَا أَنِيسٍ، وَالسَّمَاءَ بِدُونِ نَجْمٍ، سَتَظَلُّ فِي التِّيهِ تَمشِي مُستَوحِشًا دُونَهُ، رَاغِبًا فِي وِصَالِهِ، لَا تَنفَكُّ تَدعُو لَهُ وَبِهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَنِ، حَتَّى إذَا أذِنَ اللهُ لكُمَا اللِّقَاءَ؛ وَجَدْتَ مَعَهُ سُرُورُ قَلبِكَ، وَزَالَت عَنكَ صَبَابَتُكَ، وَشَعَرتَ كَأَنَّمَا حِيزَت لكَ الدُّنيَا بِحَذَافِيرِهَا.

لَقَد كَانَ الشِّعرُ وَمَا يَزَالُ النَّبضَ المُوحِيَ لِحَيَاةِ الإنسَانِ العَرَبِيِّ، وَالمُعَبِّرَ عَنِ الحَالَةِ النَّفسِيَّةِ، وَيَكشِفُ عَن مَكنُونَاتِ نَفسِهِ مُستَعِينًا بِكُلِّ مَا يُوَصِّلُ إحسَاسَهُ إلَى المُتَلَقِّي.

العِشقُ ومُنَادَاةُ الفَاقِدِ:

غَالِبًا مَا يَكُونُ الدَّمعُ مَمزُوجًا بِتِلكَ المَرَارَةِ النَّاتِجَةِ عَن إحسَاسِ الشَّاعِرِ بِعَجزِهِ عَنِ الصَّبرِ، وَشُعُورِهِ بِزَفَرَاتِ العِشقِ وَحَرَارَةِ الوَجدِ النَّابِعَةِ مِن أعمَاقِ القَلبِ، ومَرَارَةِ العَجزِ عَن تَحَمُّلِ الفِرَاقِ، فَيُعلِنُ الدَّمعُ حَالَةَ ضَعفٍ حَاضِرَةٍ لِحَبِيبِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ **ابنُ الحَدَّادِ فِي** فَقدِ مَحبُوبَتِهِ: [البَسِيطُ]

يَـــا غائبًـــا خَطرَاتُ القلـــبِ مَحضَرُهُ الصَّبــرُ بَعـدَكَ شَـيءٌ لسـتُ أقـدِرُهُ

تَرَكــتَ قلبــي وَأَشواقِــي تُفَطِّــرُهُ ودَمـعَ عَينــي وأحداقِـي تُحَـدِّرُهُ لو كُنتَ تُبصِرُ فِــي تُدميـرَ حالَتَنَــا إذًا لَأَشفَقـتَ مِمَّـا كُنـتَ تُبصِـرُهُ

فالعَيـنُ دُونَـكَ لـا تَحلـى بِلذَّتِـهَا والـدَّهـرُ بَعـدَكَ لـا يَصفُـو تَكَـدُّرُهُ أُخفِـي اشتِيَاقِـي ومَـا أطوِيهِ مِن أسفٍ عَلـى المَـريَّـةِ وَالأنفَـاسُ تُظهِـرُهُ(2)

نُلَاحِظُ أَنَّ ابنَ الحَدَّادِ اتَّخَذَ مِن أُسلُوبِ النِّدَاءِ لِمَحبُوبَتِهِ مَنفَذًا لِلتَّعبِيرِ عَن تِلكَ المَشَاعِرِ المُؤلِمَةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا، وَيُجَسِّدُ بِمُنَاظَرَتِهِ لَهَا صِرَاعَهُ النَّفسِيَّ بَينَ الِاستِسلَامِ لِلفِرَاقِ، وَالرَّغبَةِ المُلِحَّةِ فِي اللِّقَاءِ وَالوَصلِ بِإطَارٍ مِنَ الشَّكوَى المَمزُوجَةِ بِاستِعطَافِ المَحبُوبَةِ، مِن خِلَالِ عَرضِ حَالِهِ، وَمَا آلَ إلَيهِ عَيشُهُ، وَقَد تَحَقَّقَ ذَلِكَ مِن خِلَالِ تَنَاوُبِ استِعمَالِهِ لِلأفعَالِ المَاضِيَةِ وَالمُضَارِعَةِ فِي تَصوِيرِهِ لِمُعَانَاتِهِ، مِمَّا كَشَفَ عَنِ احتِوَاءِ حَالَةِ الحُزنِ لَهُ، فَتَجَاوَزَت أفعَالُهُ الدَّلَالَةَ النَّحوِيَّةَ إلَى دَلَالَةٍ شِعرِيَّةٍ تَمنَحُ النَّصَّ رُوحَ الِاستِمرَارِيَّةِ، مَعَ الدَّلَالَةِ المَاضِيَةِ لِلأفعَالِ الَّتِي تَعنِي زَوَالَ الحَدَثِ مَعَ مُضِيِّ الزَّمَنِ، إذ لَيسَ الزَّمَانُ هُوَ الصُّورَةَ الوَحِيدَةَ المُرَادَةَ مِنَ الفِعلِ، فَإنَّ الفِعلَ قَد يَدُلُّ عَلَى مَحضِ تَمَامِ الحَدَثِ.

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَّتِيتَينِ بَعدَمَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أن لَا تَلَاقِيَا. رَحِمَ اللهُ صَاحِبَ الأَمَلِ، رَحِمَ اللهُ ابنَ الحَدَّادِ!

الحَنِينُ بَعدَ الفِرَاقِ:

يُنصِفُ الشِّعرُ **وَلَّادَةَ بِنتَ المُستَكفِي (ت484ه)**، فَهِيَ أَمِيرَةٌ مُلهِمَةٌ، كَسَرَهَا الحُبُّ، وَلَا يَزَالُ اِسمُهَا مِن أَلمَعِ الأَسمَاءِ، مَعَ مُرُورِ أكثَرَ مِن تِسعَةِ قُرُونٍ عَلَى وَفَاتِهَا، لُقِّبَت بِـ(فَرَاشَةِ الأندَلُس)، وَتُعَدُّ مِنَ النِّسَاءِ البَارِزَاتِ فِي كِتَابَةِ الشِّعرِ آنَذَاكَ، وَقَعَت فِي حُبِّ ابنِ زَيدُونَ، لَكِنَّ الزَّمَنَ فَرَّقَهُمَا، فَتَقُولُ فِي فَقدِهِ: [الطَّوِيلُ]

أَلا هَــل لَنَــا مِــن بَعـدِ هَذَا التَّفَرُّقِ سَبِيلٌ فَيَشكُــو كُـلُّ صَـبٍّ بِمَـا لَقِــي

وَقَـد كُنـتُ أوقَاتَ التَّزَاوُرِ فِي الشِّتَـا أَبِيـتُ عَلَـى جَمـرٍ مِـنَ الشَّوقِ مُحرِقِ

فَكَيـفَ وقَـد أمسَيـتُ فِـي حَالِ قُطعَةٍ لَقَد عجَّـلَ المَقدُورُ مَـا كُنـتُ أَتَّقِي

(1) يُرَاجَعُ، التَّحلِيلُ النَّفسِي لِلذَّاتِ العَرَبِيَّةِ أنمَاطُهَا السُّلُوكِيَّةُ وَالأسطُورِيَّةُ، عَلِي زَيعُور، بَيرُوتُ، دَارُ الطَّلِيعَةِ، ١٩٧٧م، ٨٨.
(2) الدِّيوَانُ، 209- 210.

Faculty of Arts, Arish University

تَمـــــرُّ اللّيَالـــــي لا أرَىٰ البَيـــنَ يَنقضِـي ... وَلا الصَّبـــرَ مِـن رقّ التّشوُّق مُعتَقِـــــي

سَقىٰ اللهُ أرضًـا قـــد غَـــــدَت لكَ منزلًا ... بكـــلِّ سَكـــوبٍ هَاطِـلِ الوَبـــلِ مُغْـــدِقِ[1]

بَعدَ انفِصَالِهَا عَن مَحبُوبِهَا ابنِ زَيدُونَ الّذِي أحَبَّ جَارِيَتَهَا، وَغِيَابِ المَودَّةِ بَينَهُمَا، كَتَبَت قَصِيدَةَ (ألَا هَل لَنَا مِن بَعدِ هَذَا التَّفَرُّق) مُتَمَنِّيَةً لِقَاءَهُ، لِيُعَبِّرَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنهُمَا عَمَّا يَعترِيهِ مِن مَشَاعِرِ إخلَاصٍ ووَفَاءٍ، ثُمَّ تَسألُ نَفسَهَا كَيفَ تَبَدَّلَ حَالُهُما بِهَذِهِ السُّرعَةِ؟ فَهِيَ تَرَى أنَّ القَدَرَ قَد عَجَّلَ بفِرَاقِهِم، وَتَمُرُّ عَلَيهَا اللَّيَالِي وكَأنَّهَا سَنَوَاتٌ طِوَالٌ لَم تَنقَضِ، لَقَد مَلَّت مِنَ الصَّبرِ الّذِي كَانَت تَنتَظِرُ مِنهُ العَودَةَ ثَانِيَةً.

يُلَاحِظُ القَارئُ أنَّ المَرأةَ فِي شِعرِ ابنِ زَيدُونَ قَد مَثَّلَت بُعدَينِ: بُعدًا اجتِمَاعِيًّا، وَآخَرَ إنسَانِيًّا، فَالبُعدُ الِاجتِمَاعِيُّ لِلمَرأةِ لَا يَخفَى عَلَى أحَدٍ بِأنَّ الشُّعَرَاءَ قَد أكثَرُوا مِنَ الحَدِيثِ عَنهَا فِي كُلِّ العُصُورِ، لِمَ قَد تَبُثُّهُ المَرأةُ مِن مَشَاعِرِ الحُبِّ وَالحَنَانِ، ولِدَورِهَا فِي المُجتَمَعِ فَهِيَ الأمُّ وَالزَّوجَةُ وَالحَبِيبَةُ وَالأختُ وَالِابنَةُ، ولَعَلَّ مِن أقوَى هَذِهِ العَلَاقَاتِ عَلَاقَةَ الحَبِيبَةِ الّتِي تَتَجَلَّى فِي شِعرِ ابنِ زَيدُونَ وَحُبِّهُ لِوَلّادَةَ بِبُعدِهَا الإنسَانِيِّ الذَّاتِيِّ عِندَهُ، فَهُوَ الحَبِيبُ المَغدُورُ، وَقَد نَسِيَتهُ وَهُوَ فِي السِّجنِ، فِي حِينِ كَانَت أيَّامُهُ مَعَهَا أيَّامَ حُبٍّ ولَهوٍ وَسَعَادَةٍ.

يُضِيفُ السِّجنُ إلَى ابنِ زَيدُونَ هَمًّا جَدِيدًا فَوقَ هُمُومِهِ المُتَرَاكِمَةِ الّتِي تَتَزَاحَمُ عَلَيهِ فَتُؤلِمُهُ وَتُوجِعُهُ، فَقَد جَرَت عَلَيهِ مَصَائِبُ السِّيَاسَةِ وَدَهَالِيزُهَا، وَأمطَرَتهُ بِفَيضٍ مِنَ النَّوَائِبِ، فَإذَا هُوَ رَهِينُ السِّجنِ بِفِعلِ السِّيَاسَةِ وَأحَابِيلِهَا، فَيُعَانِي فِي غِيَابِهَا مَرَارَةَ الوَحشَةِ وَألَمَ البَينِ وَمَرَارَةَ الفِرَاقِ، وَيَندُبُ حَظَّهُ العَاثِرَ فَلَا يَجِدُ لَهُ عَزَاءً سِوَى الشِّعرِ.

وبَينَ ابنِ زَيدُونَ وَولّادَةَ قِصَّةٌ بَينَ الرَّجُلِ المِثَالِ وَالمَرأةِ المِثَالِ، خُصُوصًا أنَّ الشُّعَرَاءَ يَلجَؤونَ إلَى التَّصوِيرِ الفَنِّيِّ، لِتَثبِيتِ بَعضِ المَعَانِي، أو لِتَأكِيدِ دَلَالَاتٍ بِذَاتِهَا فِي أذهَانِ السَّامِعِينَ، أو لِلتَّركِيزِ عَلَى مَوَاقِفَ مُعَيَّنَةٍ تَلقَى جُلَّ عِنَايَةِ الشَّاعِرِ، وَيَكُونُ لَهَا أهَمِّيَّةٌ خَاصَّةٌ فِي مَجرَى أحدَاثِ حَيَاتِهِ، مِمَّا يُعطِي لِلشَّاعِرِ عُمقَ الإحسَاسِ، وَنَفَاذَ البَصِيرَةِ، وَصِدقَ الإدرَاكِ لِجَوهَرِ الحَيَاةِ مِن جَانِبٍ، وَقُوَّةَ التَّمثِيلِ اللُّغَوِيِّ التَّصوِيرِيِّ لِكُلِّ ذَلِكَ مِن جَانِبٍ آخَر[2]، فَتُصبِحُ (وَلّادَةُ) مَثَلًا لِلمَرأةِ الأنمُوذَجِ لَدَى ابنِ زَيدُونَ، لِأنَّهُ رَأى فِيهَا صِدقَ التَّجرِبَةِ، وَالبَقَاءَ عَلَى العَهدِ.

يَا أثَرَ الحَبِيبِ حِينَ يُفَارِقُ الحَبِيبَ!

ويُوَاصِلُ ابنُ زَيدُونَ الحَدِيثَ مَعَ وَلّادَةَ، فَيَقُولُ: [البَسِيطُ]

إنِّـــــــي ذَكَرتُـــــــــكِ بِالزَّهـــرَاءِ مُشتَــاقًـــا ... والأفــقُ طَلـــــقٌ ومَرأىٰ الأرضِ قـــد رَاقَا

***

نَلهـــــو بِمـــا يَستميـــلُ العَيــــنَ مِـن زَهَرٍ ... جَالَ النّـدى فِيـــــهِ حَتَّـــىٰ مَالَ أعناقَـــــا

***

كُــــــلٌّ يَهـيـــــجُ لَنَـــــا ذِكـــرىٰ تَشَوُّقِـنــــــا ... إليكِ، لم يَعـدُ عَنها الصّدرُ أن ضاقَا[3]

يَتَّضِحُ فِي البَيتِ الأوَّلِ، غَيرَةُ ابنِ زَيدُونَ عَلَى وَلّادَةَ، فَنُلَاحِظُ أنَّهُ لَم يُصَرِّح بِاسمِهَا، بَل هُوَ مَمنُوعٌ مِنَ التَّصرِيحِ بِهِ، وَالزَّهرَاءُ الِاسمُ العَامُّ الّذِي يَسمَحُ لَهُ بِالتَّصرِيحِ، فَفِي رُبُوعِ الزَّهرَاءِ يَقِفُ ابنُ زَيدُونَ فِي حَالٍ مِنَ اللَّوعَةِ وَالأسَى، تُثِيرُ الإشفَاقَ، إنَّهُ طَرِيدٌ هَارِبٌ مِن سِجنِهِ مُفزَّعٌ مِن شِدَّةٍ كَرِيهٍ، فَيُشرِقُ خَاطِرُهُ بِذِكرِ (وَلّادَةَ)، وَيَنعَكِسُ خَاطِرُهُ عَلَى مِرآةِ الطَّبِيعَةِ مِن حَولِهِ.

[1] نُزهَةُ الجُلَسَاءِ فِي أشعَارِ النِّسَاءِ، جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِي (ت911ه)، تَحقِيقُ: عَبدِ اللَّطِيفِ عَاشُور، القَاهِرَة، مَكتَبَةُ القُرآن، 1986م، 92. نَفحُ الطِّيبِ ٤/٢٠٦.

[2] يُرَاجَعُ، تَحَوُّلَاتُ الشِّعرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، صَلَاح فَضل، بَيرُوتُ، دَارُ الآدَابِ، ٢٠٠٢م، ٩٠.

[3] الدِّيوَانُ، 139.

Faculty of Arts, Arish University

فقد شَبَّهَ ابنُ زَيدُونَ العَينَ بِإنسَانٍ يَمِيلُ مَيَلَانَ الزَّهرِ، ثُمَّ شَبَّهَ النَّدَى بِإنسَانٍ يَجُولُ بِأَرضٍ وَاسِعَةٍ وَمَالَت عُنُقُهُ مَعَ مَيَلَانِ الزَّهرِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ جَمَالٍ وَلَدَانَةٍ وَلَفتِهَا لِجَمِيعِ الأَنظَارِ، وَهَكَذَا أَطَلَّتِ الطَّبِيعَةُ بِمَظَاهِرِهَا المَاثِلَةِ الحَاضِرَةِ، فَتَبعَثُ فِي نَفسِ ابن زَيدُونَ ذِكرَيَاتٍ دَفِينَةً، لِتَستَثِيرَ لَوَاعِجَ الشَّوقِ، فَيَحُزُّ ذَلِكَ فِي نَفسِهِ.

أَلَمُ الفَقدِ وَالتَّنفِيسُ النَّفسِيُّ:

مِنَ الشُّعَرَاءِ مَن وَجَدَ فِي الانهِمَارِ بِالبُكَاءِ رَاحَةً نَفسِيَّةً، وَتَسكِينًا لِأَلَمِهِ، فَهِيَ استِجَابَةٌ نَوعِيَّةٌ أَو رَدُّ فِعلٍ أَو أَثَرٌ مِن آثَارِ صُعُوبَةٍ يُوَاجِهُهَا الإِنسَانُ أَو يَتَوَقَّعُهَا، وَلَاسِيَّمَا إِذَا كَانَت ذَاتِيَّةً، مِن هُنَا كَانَ لُجُوءُ **ابن الحَدَّادِ** لِذَرفِ الدُّمُوعِ أَمَلًا مِنهُ فِي تَسكِينِ آلَامٍ هَيَّجَتهَا الذِّكرَى فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

أَمَا إِنَّهَا الأَعلَامُ مِن هَضَبَاتِهَا   فَكَيفَ تَكُفُّ العَينُ عَن عَبَرَاتِهَا؟

ذَرَانِي، وَإِذرَاءَ الدُّمُوعِ لَعَلَّهُ   يُسَكِّنُ مَا قَد هَاجَ مِن ذُكَرَاتِهَا[1]

يَبدَأُ ابنُ الحَدَّادِ شَارِحًا مُعَانَاتِهِ الَّتِي جَاءَت نَتِيجَةَ فِقدَانِهِ لِلمَرأَةِ وَرَحِيلِهَا عَنِ الحَيَاةِ إِلَى دَارِ القَرَارِ، وَتَهمِيشُ ابنِ الحَدَّادِ لِلمَرأَةِ لَم يَكُن عَمَلِيَّةً إِقصَائِيَّةً تَستَهدِفُ إِقصَاءَ طَرَفٍ لِطَرَفٍ آخَرَ، فَفِكرَةُ التَّهمِيشِ تُمَارَسُ بِحَقِّ المَرأَةِ بِوَصفِهَا تَابِعَةً لِلرَّجُلِ فِي مَنَاحِي الحَيَاةِ كَافَّةً، فَضلًا عَنِ الدَّورِ الثَّانَوِيِّ لَهَا فِي المَجَالَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالِاقتِصَادِيَّةِ، وَالعَائِلِيَّةِ، كُلُّ هَذِهِ العَوَامِلِ فَرَضَت نَوعًا مِنَ العَلَاقَةِ بَينَ الذَّكَرِ وَالأُنثَى تَتَحَدَّدُ بِمُوجِبِ سِمَاتِهَا التَّابِعَةِ مِن طَبِيعَةِ وَضعِهَا[2].

كَيفَ يَسلُو الشَّاعِرُ السَّجِينُ هَمَّهُ وَيَنسَى جُرحَهُ؟ وَقَد فَقَدَ كُلَّ مَا كَانَ يَنعَمُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ مَعَ أَهلِهِ وَأَحِبَّتِهِ وَقَومِهِ، وَهُنَاكَ مَرَابِعُ عَبَثِهِ وَلَهوِهِ وَمَدَارِجُ طُفُولَتِهِ وَأَحلَامِهِ، وَبِلَهفَةٍ بَالِغَةٍ لِرُؤيَةِ الأَحِبَّةِ يُنَاجِي **ابنُ شُهَيدٍ** حَبِيبَتَهُ، بَعدَ أَن طَوَاهَا الزَّمَنُ المُفَرِّقُ، مُسقِطًا لَوعَةَ الشَّوقِ فِي مُحَاوَرَةِ الحَمَامِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

وَقُلتُ لِصَدَّاحِ الحَمَامِ وَقَد بَكَى   عَلَى القَصرِ إِلفًا وَالدُّمُوعُ تَجُودُ

أَلا أَيُّهَا البَاكِي عَلَى مَن تُحِبُّهُ   كِلانَا مُعَنًّى بِالخَلاءِ فَرِيدُ

***

وَمَازَالَ يُبكِينِي وَأَبكِيهِ جَاهِدًا   وَلِلشَّوقِ مِن دُونِ الضُّلُوعِ وَقُودُ

إِلَى أَن بَكَى الجُدرانُ[3] مِن طُولِ شَجوِنَا   وَأَجهَشَ بَابٌ جَانِبَاهُ حَدِيدُ

***

تَقُولُ الَّتِي مِن بيتِها خَفَّ مَركَبِي[4]   أَقُربُكَ دَانٍ أَم نَوَاكَ بَعِيدُ[5]

فَقُلتُ لَهَا: أَمرِي إِلَى مَن سَمَت بِهِ   إِلَى المَجدِ آبَاءٌ لَهَا وَجُدُودُ[6]

يُقسِمُ ابنُ شُهَيْدَ فِي هَذِهِ الأَبيَاتِ بِالعُيُونِ الفَاتِرَةِ، المُثِيرَةِ لِلعِشقِ، وَأَقسَمَ، أَيضًا، بِالقُدُودِ المُتَمَايِلَةِ كَأَنَّهَا سَكرَى وَمَا هِيَ بِسكرَى، إِنَّمَا تَتَمَايَلُ مِنَ الدَّلَالِ، دَلَالًا لِذَلِكَ الحَبِيبِ الفَائِقِ فِي الحُسنِ، حَيثُ الوَردُ فِي خُدُودِهِ وَالخَمرُ بَينَ شَفَتَيهِ، يُقسِمُ بِأَنَّهُ لَم يَنسَ تِلكَ اللَّيلَةَ الَّتِي التَصَقَت فِيهَا يَدُهُ بِجَسَدِ حَبِيبِهِ مَكَانَ الوِشَاحِ.

وَيُصَوِّرَ ابنُ شُهَيدٍ الحَمَامَ الَّذِي يَبكِي بِسَبَبِ بُعدِ الحَبِيبِ، وَلَكِنَّهَا صُورَةٌ مَألُوفَةٌ نَجِدُهَا فِي استِلهَامَاتِ الشُّعَرَاءِ الفَاقِدِينَ، وَلَكِن يَأتِي التَّجدِيدُ، حِينَمَا نُلَاحِظُ أَنَّ الجُدرَانَ تُشَارِكُ الشَّاعِرَ آلَامَهُ، وَالحَمَامَ يَتَحَاوَرُ مَعَهُ وَيَسمَعُ بُكَاءَهُ، حَتَّى الحَدِيدَ الصَّلبَ

(1) الدِّيوَانُ، ١٦٢.

(2) يُرَاجَعُ، دَلِيلُ النَّاقِدِ الأَدَبِيِّ، مِيجَان الرُّوِيلِي وَسَعد البَازعِي، المَغرِبُ، المَركَزُ الثَّقَافِيُّ العَرَبِيُّ، ط٤، ٢٠٠٥م، ٣٣١. وَيُرَاجَعُ، فَضَاءَاتُ النَّقدِ الثَّقَافِيِّ مِنَ النَّصِّ إِلَى الخِطَابِ، سَمِير الخَلِيلُ، بَيرُوتُ، مَكتَبَةُ البَصَائِرِ، ٢٠١٥م، ٢٨١.

(3) النَّفحُ «الجذلان»، الدِّيوَانُ، 101.

(4) النَّفحُ «بينها»، فِي المَطمَعِ «كفَّ»، السابق، 102.

(5) المَطمَعِ «أغربك»، النَّفحُ «مداك»، النَّفحُ «مديد»، نَفسُه.

(6) الدِّيوَانُ، ١٠١- ١٠٢.

Faculty of Arts, Arish University

بَكَى عَلَيهِ، وَذِكرُهُ لِلبَابِ الحَدِيدِ، هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كَثرَةِ إِطَالَةِ النَّظَرِ إِلَى بَابِ السِّجنِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ تَأَمُّلِ ابن شُهَيدٍ وَتَخَيُّلِهِ حَبِيبَتَهُ فِي كُلِّ الجَمَادَاتِ مِن حَولِهِ.

الوَفَاءُ وَفَقدُ الزَّوجَةِ:

فِي أَبيَاتٍ **لِأَبِي إِسحَاقِ الإِلبِيرِي** مُكَوَّنَةٍ مِن سِتِّينَ بَيتًا، نَجِدُ فِيهَا تِسعَةَ عَشَرَ بَيتًا فِي فَقدِ زَوجَتِهِ، يَقُولُ فِيهَا: [الكَامِلُ]

عُـــج بِالمَطِيـــيِّ عَلَـــى اليَبَابِ الغَامِـــرِ وَارْبَـــع عَلَـــى قَبـــرٍ تَضَمَّـــنَ نَاظِـــــرِي

فَستَستَبِيـــــــنُ مَكَانَـــــــــهُ بِضَجِيعِـــــــــــهِ وَيَنِـــــــمُّ مِنهُ إِليـــــكَ عَــــرفُ العَــاطِـــــــرِ

فَلَكَـــــم تَضَمَّـــــنَ مِـــــن تُقًـــى وَتَعَفُّـــفٍ وَكَـــرِيـــــم أَعـــــرَاقٍ وَعِـــــرضٍ طَـــاهِـــــرِ

وَاقـــــرَ السَّـــلامَ عَلَيـــهِ مِن ذِي لَوعَـــــــةٍ صَدَعَتــــهُ صَـــدعًا مَـــا لَـــهُ مِـــــن جَابِرِ

فَعَسَـــاهُ يَسمَـــحُ لِـــي بِوَصـــلٍ فِي الكَرَى مُتَعَـــاهِـــــــدًا لِـــيَ بِالخَيَـــالِ الزائِـــــــرِ[1]

يَضُمُّ قَبرُ الزَّوجَةِ مِنَ المَعَانِي العَمِيقَةِ الَّتِي مَلَأَ الشاعرُ بِهَا صَدرَهُ، فَرَاحَ يَفُوحُ مِنهَا عَبِيرٌ كَانَ لَهُ فِيهَا مُتعَةٌ وَلَذَّةٌ، فَالقَبرُ أَعطَى المَكَانَ ذَلِكَ التَّدَفُّقَ الرُّوحِيَّ الَّذِي أَدَّى بِالشَّاعِرِ إِلَى التَّوَقُّفِ، وَوُقُوفُهُ هَذَا يُرِيدُ بِهِ الحَيَاةَ وَالدَّيمُومَةَ وَالخُضرَةَ وَالرَّبِيعَ لِلمَكَانِ الَّذِي حَوَى زَوجَتَهُ.

نُلَاحِظُ أَنَّ الإِلبِيرِيَّ لَم يَستَخدِمِ الضَّمَائِرَ المُؤَنَّثَةَ، عَلَى الرَّغمِ مِن أَنَّهُ بِالإِمكَانِ اِستِخدَامُ التَّأنِيثِ فِي وَصفِ الزَّوجَةِ، لَكِنَّ الإِلبِيرِيَّ اِقتَصَرَ عَلَى الضَّمَائِرِ المُذَكَّرَةِ[2]، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حَيَاءِ الشَّاعِرِ، وَغَيرَتِهِ، وَشِدَّةِ حُبِّهِ لِزَوجَتِهِ، فَلَم يُصَرِّحُ بِتَفَاصِيلِ حَيَاتِهَا اليَومِيَّةِ، فَقَد اكتَفَى بِالإِشَارَةِ فَقَط.

الفَرَاغُ القَلبِيُّ:

يَقُولُ أَبِي عَامِرِ ابن شُهَيد فِي فَقدِ مَحبُوبَتِهِ، أَيضًا: [البَسِيطُ]

يَـــا رَبَّـةَ القَبـــرِ فَـــوقَ القَبـــرِ ذُو حُرَقٍ يَـرثِـي لَـــهُ القَـبـرُ مِـــن شَـجوٍ وَمِن شَجَنِ

تَـبَـايَنَـــتْ فِيـــكِ أَحوَالِي أَسًـى فَمَضَـــى إِلَى لِقَـائِـــــــكِ صَبـــــرِي طَـالِبَ الوَسَـــــنِ

وَخَالَـــفَ القَلـبُ فِيـكِ العَـينَ مِـــــن كَمَدٍ فَاسوَدَّ بِـالغَمِّ وَابيَـضَّـــت مِـــنَ الحَزَنِ[3]

يَستَهِلُّ ابن شهيد أَبيَاتَهُ بِمُنَادَاةِ القَبرِ، فَأَصبَحَ يَخَافُ عَلَى القَبرِ نَفسِهِ بَعدَ أَن دُفِنَت فِيهِ زَوجَتُهُ، وَجَاءَ الجِنَاسُ يَطغَى عَلَى الأَبيَاتِ مُتَمَثِّلًا بِقَولِهِ: (شَجُو، شَجَن/ أَسَى، الوَسَن)، لِيَخلُقَ نَوعًا مِنَ التَّنَاسُقِ وَالِانسِجَامِ بَينَ الأَلفَاظِ فَتَأتِي مُنسَابَةً مُتَرَابِطَةً تُعطِي نَغَمًا حَزِينًا، مِمَّا يُؤَثِّرُ فِي سَمعِ المُتَلَقِّي.

إِذَا فَارَقَنَا مَن نُحِبُّهُم نَبَّهَ القَلبُ فِينَا مَعنَى الفَرَاغِ الَّذِي لَا يَملَؤهُ مِنَ الوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا وُجُودِ شَخصٍ وَاحِدٍ، وَعِندَ هَذَا الفَرَاغِ تَقِفُ الدُّنيَا مَلِيًّا، كَأَنَّهَا اِنتَهَت! وَكَأَنَّ مِنَ الفَرَاغِ عَلَى أَكبَادِنَا ظَمَأً كَظَمَأِ السَّقَّاءِ الَّذِي فَرَغَ مَاؤُهُ فَجَفَّ وَكَانَ الفِرَاقُ جَفَافَهُ.

يُصَوِّرُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** ظِلَّ حَبِيبَتِهِ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ لَحظَةً، وَذِكرَاهَا الَّتِي لَا تُفَارِقُ خَيَالَهُ طَوَالَ مُدَّةِ الهَجرِ، وَعَلَى الرَّغمِ مِن طِيلَةِ المُدَّةِ، فَإِنَّ شَوقَهُ لَم يَنقُص لَهفَةً، بَل يَزدَادُ شَوقًا إِلَيهَا وَحَنِينًا إِلَى أَيَّامِهَا، فَيَقُولُ مُصَوِّرًا ذَلِكَ: [الوَافِرُ]

سَـــرَى طَيـــــفُ الحَبِيـــبِ عَلَـــى البِعَـــادِ لِيُصلِـــــــــحَ بَيـــنَ عَينِـــــــيَ وَالـــرُّقَـــــــادِ

فَبَـــاتَ إِلَـــــــى الصَّبَـــــاحِ يَـــدِي وِسَـــادٌ لِوَجنَـــتِـــــــــهِ كَمَـــــــــا يَـــدُهُ وِسَـــــادِي

بِنَفسِـــــــيَ مَـــــــن أَعَـــــــادَ إِلَيَّ نَفسِـــي وَرَدَّ إِلَـــــــى جَوَانِـــحِـــــــــهِ فُـــــــؤَادِي

[1] الدِّيوَانُ، 90.
[2] يُرَاجَعُ، الرِّثَاءُ فِي الأَندَلُس (عَصرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ)، فَدوَى عَبد الرَّحِيم عودَة، عَمَّان، دَارُ دِجلَة، 2017م، 132.
[3] يُرَاجَعُ، قَلَائِدُ العِقيَانِ فِي مَحَاسِنِ الأَعيَانِ، الفَتحُ بنُ خَاقَان، تَحقِيقُ: حُسَين يُوسُف، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ دَارِ المَنَارِ، ١٢٨٤هـ/١٨٦٦م، ٢/442.

Faculty of Arts, Arish University

خَيَالٌ زَارَنِي لمَّا رآني عَدَتنِي[1] عَن زِيَارَتِهِ عَوادِي
يُواصِلُنِي عَلَى الهجرانِ مِنهُ وَيُدنِينِي عَلَى طُولِ البِعَادِ[2]

يَستَهِلُّ الشَّاعِرُ أَبيَاتَهُ بِالفِعلِ المَاضِي **(سَرَى)** مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مُدَاوَمَةِ تَذَكُّرِهِ أَيَّامَهُ الهَنِيئَةَ، وَعَيشِهِ عَاطِفَةً صَادِقَةً، أَلَا وَهِيَ الحُبُّ، وَيَتَأَثَّرُ بِتِلكَ العَاطِفَةِ فِي نَفسِهِ مِن خِلَالِ مَا يَشعُرُ بِهِ، فَيَكُونُ نَتِيجَةً لِذَلِكَ الشُّعُورِ، كِتَابَةُ أَشعَارٍ تَصِفُ مَشَاعِرَهُ تُجَاهَ هَذَا الفَقدِ الَّذِي لَا يَنتَهِي، لَقَد جَاءَ طَيفُ مَحبُوبَتِهِ فِي لَيلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي الطِّوَالِ الَّتِي يَجلِسُ فِيهَا فَاقِدًا إِيَّاهَا، لِتُهَوِّنَ عَلَيهِ وَجَعَهُ، كَمَا أَنَّ طَيفَهَا حَدِيثُ مَنَامِهِ طَوَالَ اللَّيلِ، بَينَ وَصلٍ وَدَلَالٍ، وَقَلبُهُ لَا يَنسَاهَا مَهمَا طَالَ البُعدُ وَالهِجرَانُ.

نَخرُجُ مِن ذَلِكَ بِأَنَّ ابنَ عبد ربه قَوَّم نَفسَهُ بِنَفسِهِ، وَعَلَى الرَّغمِ مِن أَلَمِ الفِرَاقِ وَالبُعدِ، فَإِنَّهُ لَم يَعتَمِد عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنتَظِرُ المُسَاعَدَةَ مِن أَحَدٍ.

قَد تَمنَعُ أُمُورٌ خَارِجَةٌ عَن إِرَادَتِنَا الوُصُولَ لِمَكَانِ الحَبِيبَةِ، وَهَذَا وَارِدٌ، وَلَكِن مَن مِنَّا الَّذِي يَبقَى وَيَستَمِرُّ حَتَّى يَصِلَ، مَهمَا كَلَّفَ الأَمرُ، فَيَقُولُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** وَاصِفًا مَوقِفَ المَطَرِ الَّذِي حَالَ بَينَهُ وَبَينَ حَبِيبَتِهِ: [البَسِيطُ]

هَلَّا ابتَكَرتَ لِبَينٍ أَنتَ مُبتَكِرُ؟ هَيهَاتَ يَأبَى عَلَيكَ اللهُ وَالقَدَرُ!
مَا زِلتُ أَبكِي حِذارَ البَينِ مُلتَهِقًا حَتَّى رَثَى لِيَ فِيكَ الرِّيحُ وَالمَطَرُ
يَا بَردَهُ مِن حَيَا مُزنٍ عَلَى كَبِدٍ نِيرَانُهَا بِغَلِيلِ الشَّوقِ تَستَعِرُ
آلَيتُ أَلَّا أَرَى شَمسًا وَلَا قَمَرًا حَتَّى أَرَاكَ فَأَنتَ الشَّمسُ وَالقَمَرُ![3]

يَحُولُ المَطَرُ وَالرِّيَاحُ الشَّدِيدَةُ بَينَ ابن عَبدِ رَبِّهِ وَبَينَ حَبِيبَتِهِ، أَثنَاءَ سَفَرِهِ لَهَا، فَكُلُّهُ شَوقٌ وَلَهفَةٌ إِلَيهَا، لَقَد كَانَ يَنتَظِرُ اللِّقَاءَ الحَارَّ عَلَى أَحَرَّ مِنَ الجَمرِ، وَلَكِنَّ المَطَرَ مَنَعَهُ مِن سُرعَةِ الوُصُولِ، وَقَلبُهُ يَتَلَهَّفُ شَوقًا إِلَى رُؤيَتِهَا.

يَتَحَدَّثُ الشَّاعِرُ مَعَ نَفسِهِ حَدِيثَ المُؤسَفِ، وَيَسأَلُهَا عَمَّا وَصَلَت إِلَيهِ حَالُهَا مِن شَتَاتٍ وَأَلَمٍ دَفِينٍ، فَيَبكِي الفِرَاقَ وَيَبكِي الظُّرُوفَ الَّتِي حَالَت بَينَهُ وَبَينَ حَبِيبَتِهِ، لَقَد كَانَتِ الأَمطَارُ وَالرِّيَاحُ مَانِعًا بَينَهُ وَبَينَهَا، فَالقَدَرُ لَم يُحَقِّق لَهُ كُلَّ مَا كَانَ يَسعَى إِلَيهِ وَيَتَمَنَّاهُ، وَجَعَلَهُ يَبكِي شَوقًا، وَمِن كَثرَةِ حُزنِهِ عَلَيهَا تَأَثَّرَت بِهِ العَوَامِلُ الطَّبِيعِيَّةُ، فَبَكَت هِيَ، أَيضًا، عَلَيهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعلَمُ أَنَّ بُكَاءَهَا عَكسَ مَا يَظُنُّ تَمَامًا، فَبُكَاءُ المَطَرِ هُوَ شِدَّةُ هُطُولِهِ، وَغَزَارَتُهُ وَعَدَمُ تَوَقُّفِهِ، وَذَلِكَ يَجعَلُ الحَائِلَ يَصعُبُ أَكثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيهِ سَابِقًا، وَكَذَلِكَ مِثلُهَا الرِّيَاحُ، كَمَا أَنَّهُ مِن شِدَّةِ حُزنِهِ وَلَهفَتِهِ عَلَى حَبِيبَتِهِ، يَرَى صُورَتَهَا فِي الشَّمسِ وَالقَمَرِ، بَل يَرَاهَا هِيَ القَمَرَ المُنِيرَ وَالسِّرَاجَ الوَهَّاجَ، فَيَلتَحِمُ الجَمَالُ بِالوَقَارِ، لِيُضِيءَ لِلعَالَمِ كُلِّهِ، فَيَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ الغُربَةَ الَّتِي تَعَرَّضَ لَهَا الشُّعَرَاءُ فِي تِلكَ الفَترَةِ، لَم تَكُن قَاصِرَةً عَلَى الغُربَةِ المَكَانِيَّةِ فَقَط، بَل تَمتَدُّ لِتَشمَلَ الأَفرَادَ مِن أَصدِقَاءٍ وَأَهلٍ وَأَحبَابٍ.

لَا يُفَارِقُ الشَّاعِرِ **يُوسُف بن هَارُون الرَّمَادِيُّ** (السَّجِينُ)، طَيفُ الحَبِيبَةِ، فَمَا زَالَ يُؤَثِّرُ فِيهِ غِيَابُهَا، وَيَسأَلُ عَن حَالِهَا، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

نُسَائِلُهَا هَلَّا كَفَاكِ نُحُولُهُ وَنَصبَتُهُ أَو دَمعُهُ وَهمولُهُ؟
تَكَنَّفَهُ هَمَّانِ: شَجوٌ وَصَبوَةٌ فَبُلِّغَ وَاشِيهِ المُنَى وَعَذُولُهُ
فَإِن يَستَبِن فِي وَجهِهِ هَمُّ سِجنِهِ فَقَد غَابَ فِي الأَحشَاءِ عَنكِ دَخِيلُه
مُعَنًّى بِكِتمَانِ الحَبِيبِ وَحُبِّهِ فَإِن يَقتُلِ الكِتمَانُ فَهُوَ قَتِيلُه[4]

يَسأَلُ الرَّمَادِيُّ مَحبُوبَتَهُ، فَيَقُولُ لَهَا: أَمَا يَكفِيكِ مَا صِرتُ إِلَيهِ؟ لَقَد أَصبَحتُ نَحِيلًا مُتعَبًا، مُتَدَفِّقَ الدَّمعِ غَزِيرًا، وَيَحمِلُ الرَّمَادِيُّ عَلَى عَاتِقِهِ هَمَّينِ، الهَمُّ الأَوَّلُ: سِجنُهُ وَفَقدُهُ لِنَفسِهِ، فَتَحَقَّقَت أَمَانِي الوُشَاةِ فِيهِ، وَذَلِكَ يَبدُو أَثَرُهُ فِي وَجهِهِ، وَالهَمُّ

[1] عَدَتنِي: مَنَعَتنِي وصَرَفَتنِي، لِسَانُ العَرَبِ، مَادَّةُ (ع د ي).
[2] الدِّيوَانُ، ٥٧.
[3] السَّابِقُ، ٧٠.
[4] الدِّيوَانُ، ١٠٣.

Faculty of Arts, Arish University

الثَّانِي: إِخفَاءُ حُبِّ الحَبِيبَةِ فِي أحشَائِهِ، فَهُوَ يَكتُمُ أمرَ الحَبِيبِ عَنِ الوَاشِينَ الحَاقِدِينَ، فَإِذَا حَاوَلَ قَتلَ الكِتمَانِ بِإِفشَاءِ السِّرِّ، فَإِنَّهُ يَقتُلُ نَفسَهُ، وَجَاءَتِ الأَلفَاظُ (النُّحُولُ، الدَّمعُ، الشَّجُو، الصَّبوَةُ، المُنَى، العَذُولُ، الكِتمَانُ)، لِتُشِيرَ إِلَى نَشرِ الهُمُومِ وَالآلَامِ فِي السِّجنِ، وَكَأَنَّهُ يُلقِي عَلَيهَا بِالشَّفَقَةِ حَتَّى لَا تُصَابُ بِمَا هُوَ فِيهِ.

يَفقِدُ **أَبُو الحسن جَعفَر المِصحَفِيُّ (ت372ه)** الحَبِيبَةَ، فَلَا يَرَى سِوَى الشَّوقِ الَّذِي يُقَوِّي بِهِ نَفسَهُ، حَتَّى يَستَمِرَّ فِي حَنِينِهِ إِلَيهَا، فَيَقُولُ مُتَشَوِّقًا إِلَيهَا: [الطَّوِيلُ]

أَحِنُّ إِلَى أَنفَاسِكُم فَأَظُنُّهَا بَوَاعِثَ أَنفَاسِ الحَيَاةِ إِلَى نَفسِي

وَإِنَّ زَمَانًا صِرتُ فِيهِ مُقَيَّدًا لَأَثقَلُ مِن رَضوَى[1] وَأَضيَقُ مِن رَمسِ[2]

نَجِدُ المِصحَفِيَّ يَقِفُ أَمَامَ مَشَاعِرَ عَذبَةٍ تَدفُقُ بِالحُبِّ الصَّادِقِ، وَالحَنِينِ الوَافِرِ، فَيَحِنُّ إِلَى أَنفَاسِ حَبِيبَتِهِ الَّتِي هِيَ عِندَهُ أَغلَى مِن أَنفَاسِ الحَيَاةِ كُلِّهَا، أَو أَنفَاسِهِ هُوَ، كَمَا يَتَمَنَّى المَوتَ لِنَفسِهِ بَدَلًا مِنَ العَيشِ فِي ضَعفٍ، فَهُوَ يَأبَى الذُّلَّ، وَيُفَضِّلُ المَوتَ بِكَرَامَةٍ، فَعِندَهُ المَوتُ بِكَرَامَةٍ أَغلَى مِنَ الحَيَاةِ بِذُلٍّ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عِزَّةِ نَفسِ المِصحَفِيِّ وَعُلُوِّ قَدرِهِ.

يَمَلُّ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** مِن وَطأَةِ الفِرَاقِ، فَيَستَنجِدُ بِبَردِ اللِّقَاءِ، لِمَا فِيهِ مِن صِدقٍ وَمَوَدَّةٍ، وَلِكَي يُسعِفَهُ بِذِكرَيَاتِهِ الجَمِيلَةِ، حِينَ يَشتَدُّ عَلَيهِ الفِرَاقُ، فَيَقُولُ: [الوَافِرُ]

فَرَرتُ مِنَ اللِّقَاءِ إِلَى الفِرَاقِ فَحَسبِي مَا لَقِيتُ وَمَا أُلَاقِي

سَقَانِي البَينُ كَأسَ المَوتِ صِرفًا وَمَا ظَنِّي أَمُوتُ بِكَفِّ سَاقِ

فَيَا بَردَ اللِّقَاءِ عَلَى فُؤَادِي أَجِرنِي اليَومَ مِن حَرِّ الفِرَاقِ![3]

يَتَأَلَّمُ الشَّاعِرُ مِن مَأسَاةِ الفِرَاقِ، فَلَا يَرَى سِوَى الحُزنِ وَالشَّجَنِ، وَلَكِنَّهُ سَئِمَ مِن أَلَمِ الفِرَاقِ، لِتِلكَ المَحبُوبَةِ، وَمِن ثَمَّ يَهرُبُ الشَّاعِرُ مِن هَذِهِ اللَّحَظَاتِ، لِمَا تُحدِثُ فِي نَفسِهِ مِن أَلَمٍ، وَيُرِيدُ أَن يَخلُقَ صُوَرًا لِلوُدِّ وَالمَحَبَّةِ، فَيُشَبِّهُ الشَّوقَ بِالسَّاقِي الَّذِي يَسقِيهِ كَأسَ المَوتِ، بَدَلًا مِنَ الخَمرِ، وَنَجِدُهُ فِي البَيتِ الأَخِيرِ يَعكِسُ الصُّورَةَ مِن خِلَالِ قَولِهِ: (بَردَ اللِّقَاءِ)، بَدَلًا مِن (حَرِّ اللِّقَاءِ)، هَذَا التَّنَاصُّ شَكَّلَ صُورَةً شِعرِيَّةً تُنَاسِبُ العَاطِفَةَ بِشَكلٍ سَلِسٍ.

يُشِيرُ **الرَّمَادِيُّ** إِلَى أَنَّ حَبِيبَتَهُ هِيَ المَلَاذُ الَّذِي عِندَمَا تَشتَدُّ بِهِ المِحَنُ، يَلجَأُ إِلَيهَا نَاسِيًا هَمَّهُ الأَوَّلَ (سَجنَهُ)، وَيَتَمَنَّى لَو كَانَت قَرِيبَةً مِنهُ وَمِن سِجنِهِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

وَأَقبَلنَ مِن نَحوِ الحَبِيبِ كَأَنَّمَا تَحَاشَدَ نَحوِي جَفنُهُ وَنُحُولُهُ

دَعُونِي أَشِمْ بِالبَابِ بَرقَ حَبِيبَتِي قَوَامًا فَلَم يَسمَح بِذَاكَ وَكِيلُهُ

يَعُمُّ فَلَا يَألُو حِصَارًا لِعِلَّةٍ سَيُودِي فَيُودَى بُثُّهُ وَأَلِيلُهُ

فَلَو كَانَ فِي هَذَا الحِصَارِ سَمِيُّهُ لَأَنسَاهُ طُولَ السَّبعِ فِي اليَومِ طُولُهُ

لَقَد رَاعَنِي سِجنٌ فَشَطَّ وَلَو دَنَا مِنَ السِّجنِ لَم يَسهُل عَلَيَّ دُخُولُهُ

يَعِزُّ عَلَى الوَرِدِ النَّضِيرِ حُلُولُهُ وَلَم يَكُ عِندَ المُستَهَامِ نُزُولُهُ[4]

يَخَافُ الرَّمَادِيُّ عَلَى حَبِيبَتِهِ مِن أَن تَقتَرِبَ مِن سِجنِهِ، مَعَ احتِيَاجِهِ وَحُبِّهِ الشَّدِيدِ لَهَا، فَإِنَّهُ يَخَافُ عَلَيهَا مِنَ الِاقتِرَابِ، فَكَيفَ لِهَذِهِ الوَردَةِ أَن تَقتَرِبَ مِن سِجنِهِ. وَلَا يَكتَفِي الشَّاعِرُ بِوَصفِ المُعَانَاةِ الَّتِي يُلَاقِيهَا فِي سِجنِهِ، بَل يَرَى أَنَّ الحَبِيبَةَ تَتَقَاسَمُ مَعَهُ

---

(1) (رَضوَى) جَبَلٌ بِأَعلَى المَدِينَةِ.

(2) مَطمَعُ الأَنفُسِ وَمَسرَحُ التَّأَنُّسِ، ابنُ خَاقَانَ (ت٥٢٩ه)، تَحقِيقُ: مُحَمَّد عَلِي شَوَابكَة، بَيرُوتُ، دار عمَّار وَمُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةُ، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م، ١٦٦. المقَّرِيُّ التِّلمِسَانِيُّ، 166/1.

(3) الدِّيوَانُ، ١١٩.

(4) الدِّيوَانُ، ١٠٣- ١٠٤. المَطمَعُ، 73.

Faculty of Arts, Arish University

تِلكَ الهُمُومَ الَّتِي لـا تُرِيدُ أن تَنزَاحَ عَنهُ، ونُلَاحِظُ بَرَاعَةَ الشَّاعِرِ فِي الرَّبطِ بَينَ مَشَاعِرِهِ وَبَينَ الطَّبيعَةِ، فَيُشَارِكُ تَعبِيرَاتِهَا الصَّامِتَةَ (الوَردِ النَّضِيرِ) فِي البُكَاءِ عَلَيهِ، ممَّا يُؤَكِّدُ انشِغَالَ الرَّمَادِيِّ، واهتِمَامَهُ بِتَفَاصِيلِ حَبِيبَتِهِ وَمَشَاعِرِهَا.

نَجِدُ **الرَّمَادِيَّ** يَتَذَكَّرُ حَبِيبَتَهُ، وَحَجمَ مُعَانَاتِهَا، وَكَيفَ أنَّ الطَّبِيعَةَ قَد تَأَثَّرَت لِبُكَائِهَا عَلَى حَبِيبِهَا، وتَنُوحُ عَلَى فَقدِهِ، كَمَا يَصِفُ ارتِحَالَ مَحبُوبَتِهِ (لَيلَى)، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

عَلَى كَبِدِي تَهمِي السَّحَابُ وتَذرِفُ ... وَمِن جَزَعِي تَبكِي الحَمَامُ وتَهتِفُ

كَأنَّ السَّحَابَ الوَاكِفَاتِ غَوَاسِلِي ... وَتِلكَ عَلَى فَقدِي نَوَائِحُ هُتَّفُ

ألَا ظَعَنَت لَيلَى وَبَانَ قَطِينُهَا ... وَلَكِنَّنِي بَاقٍ فَلُومُوا وَعَنِّفُوا

وَآنَستُ مِن وَجهِ الصَّبَاحِ لِبَينِهَا ... نُحُولًا كَأنَّ الصُّبحَ مِثلِيَ مُدنَفُ

وَأَقرَبُ عَهدٍ رَشفَةٌ بِلَّتِ الحَشَا ... فَعَادَ شِتَاءً بَارِدًا وَهوَ صَيِّفُ[1]

يُشَارِكُ الرَّمَادِيُّ مُثِيرَاتِ الحَنِينِ؛ مِن بَرقٍ وَسَحَابٍ، ويَجعَلُهُمَا فِي حَالةٍ مُزرِيَةٍ، فَالسَّحَابُ تَبكِي عليهِ وَالحَمَائِمُ تَنُوحُ عَلَى فَقدِهِ، وكَأَنَّهُ مَرِيضٌ يُحتَضَرُ مِن كَثرَةِ الشَّوقِ وَالبُكَاءِ عَلَى فِرَاقِ حَبِيبَتِهِ، وَلَم يَكتَفِ بِذَلِكَ الفَقدِ، بَل حَمَلَ عَلَى عَاتِقِهِ هُمُومًا أكثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، فَتَذَكَّرَ بِلَادَ المَشرِقِ وَمَا حَلَّ بِهَا مِن نَكبَةٍ وَخَرَابٍ، وَدَلَالَةُ ذِكرِهِ (السَّحَابَ) هِيَ أنَّهُ ثَقِيلٌ، يَتَحَرَّكُ بِبُطءٍ، مُتَمَاشِيًا مَعَ أنفَاسِ الشَّاعِرِ الثَّقِيلَةِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ الشَّاعِرُ وَيَتَذَكَّرُ آخِرَ عَهدِهِ مَعَهَا، حِينَ انطفأت حَرَارَةُ نَفسِهِ الَّتِي شَبَّهَهَا بِالصَّيفِ، فَسَكَنَت وَعَادَت كَالشِّتَاءِ البَارِدِ، فَهَذَا الإِحسَاسُ النَّفسِيُّ يَستَلهِمُهُ الشَّاعِرُ مِن فَرَاغِهِ فِي السِّجنِ.

وأصبَحَ يَرَى الرَّمَادِيُّ خَيَالَ الذَّاتِ الشَّاعِرَةِ مُمتَزِجَةً مَعَ العَالَمِ مِن حَولِهِ، بَعدَ أن كَانَت مُنفَصِلَةً، مُستَمِدًّا عَنَاصِرَ خَيَالِهِ الشِّعرِيِّ مِن مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ، فَهُوَ أعمَقُ إحسَاسًا وَمُشَارَكَةً.

ويَظَلُّ **الرَّمَادِيُّ** يَسأَلُ عَن مَحبُوبَتِهِ وَعَن سَبَبِ امتِنَاعِ طَيفِهَا، فَعَينُهُ لَم تَذُق طَعمَ النَّومِ، مَا لَم تَذُق عَينُهُ طَيفَهَا، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

هَبُوا أنَّ سَجنِي مَانِعٌ مِن وِصَالِهِ ... فَمَا الخَطبُ أيضًا فِي امتِنَاعِ خَيَالِهِ؟

نَعَم، لَم تَنَم عَينِي فَيَطرُقَ طَيفُهُ ... زَوَالُ مَنَامِي عِلَّةٌ لِزَوَالِهِ

فَدَا الصَّبُّ مَن لَم يَنسَهُ فِي بَلَائِهِ ... وَيَنسَى اسمَهُ مَن كَانَ فِي مِثلِ حَالِهِ

وَمَن صَارَ سِجنِي قِطعَةً مِن صُدُودِهِ ... وطُولُ اكتِئَابِي شُعبَةٌ مِن مَلَالِهِ

وَمَن لَم يَشُب شَهدًا بِسُمٍّ لِطَاعِمٍ ... إلَى أن بَدَا لِي هَجرُهُ فِي دَلَالِهِ

ولَم تَرَ عَينِي حَاسِدَينِ تَبَايَنَا ... عَلَيهِ سِوَى قَلبِي وَتُربِ نِعَالِهِ[2]

يَستَهِلُّ الشَّاعِرُ أبيَاتَهُ مُستَفهِمًا عَن سَبَبِ امتِنَاعِ طَيفِ مَحبُوبَتِهِ، ثُمَّ مُجِيبًا فِي البَيتِ التَّالِي بِأنَّ عَينَهُ لَم تَنعَم بِالنَّومِ، حَتَّى يَأتِيَهُ طَيفُهَا خِلَالَ نَومِهِ، فَزَوَالُ مَنَامِهِ هُوَ عِلَّةُ زَوَالِ الطَّيفِ، ثُمَّ يَلُومُ السِّجنَ الَّذِي مَنَعَهُ مِن وِصَالِهَا، فَإنَّ مَن كَانَ فِي نَفسِ حَالَتِهِ، يَنسَى اسمَهُ، بَل يَرَى أنَّ صُدُودَهُ أقسَى عَلَيهِ مِنَ السِّجنِ، وَأصبَحَ السِّجنُ قِطعَةً مِن صُدُودِهِ.

وعِندَ إمعَانِ النَّظَرِ فِي شِعرِ الرَّمَادِيِّ، الَّذِي عَبَّرَ فِيهِ عَن نَكبَتِهِ، نُلَاحِظُ أنَّهُ يُحَاوِلُ إثَارَةَ عَطفِ الحُكَّامِ وشفقهم بِالكَلِمَةِ، وَفِي ألفَاظِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَأسَاتِهِ وَهُوَ فِي سِجنِ الزَّهرَاءِ، وَحَالَةِ الأَسَى وَالكَآبَةِ الَّتِي يُعَانِي مِنهَا، ممَّا يَدُلُّ عَلَى صِدقِ تَجرِبَتِهِ.

إنَّ فَقدَ المَحبُوبَةِ يَحتَلُّ جُزءًا كَبِيرًا مِن شِعرِ الفَقدِ فِي الشِّعرِ الأندَلُسِيِّ، فَهِي ظَاهِرَةٌ لَافِتَةٌ لِلنَّظَرِ، وَغَايَةٌ لِكُلِّ دَارِسٍ، فَكَانَ بِحَقٍّ صُورَةً سَاطِعَةً تَنُمُّ عَن ثَقَافَةِ المُجتَمَعِ وَالمَكَانَةِ الِاجتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَحتَلُّهَا المَرأةُ فِي مَحَافِلِ ذَلِكَ البِنَاءِ المُجتَمَعِيِّ الَّذِي لَم

(1) السَّابِقُ، ٨٨- ٨٩.
(2) السَّابِقُ، 108.

Faculty of Arts, Arish University

يَنسَ هَذِهِ المَكَانَةَ وَالعِنَايَةَ، لِكَونِهَا العُنصُرَ الفَعَّالَ فِي تِلكَ المُجتَمَعَاتِ الَّتِي نَشَدَت التَّحَرُّرَ والمَكَانَةَ الَّتِي لا تُضَاهِيهَا مَكَانَةٌ، وَعَرَفَ المُجتَمَعُ كَيفَ يَنظُرُ إِلَى المَرأَةِ، وَيَضَعُهَا فِي مَنزِلَتِهَا الحَقَّةِ.

وقد نَظَمَ شُعَرَاءُ الأَندَلُسِ قَصَائِدَ وَمَقطُوعَاتٍ فِي فَقدِ مَحبُوبَتِهِم، فَهُنَاكَ مَن اكتَفَى بِالبَيتِ الشِّعرِيِّ الوَاحِدِ، وَهُنَاكَ مَن كَوَّنَ مَقطُوعَةً، وَمَن نَظَمَ قَصِيدَةً، وَعَلَى مُختَلِفِ البُحُورِ الشِّعرِيَّةِ، وَبِجَمِيعِ القَوَافِي.

تُعَدُّ المَرأَةُ هِيَ المِحوَرَ وَالأَسَاسَ فِي شِعرِ الشَّاعِرِ، فَكَانَت خَيرَ مُعَبِّرٍ وَمُدَوِّنٍ لِأَهَمِّ دَورٍ قَامَتْ بِهِ شَرِيكَةُ حَيَاتِهِ وَآهَاتِهِ وَآلَامِهِ، حَتَّى أَحَسَّ بِمَرَارَةِ العَذَابِ وَصِدقِ المُعَانَاةِ وَالمَشَاعِرِ الَّتِي كَنَّهَا لَهَا عِندَ فِرَاقِهَا.

قَامَتِ المَقطُوعَاتُ وَالقَصَائِدُ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَعَلَى الرَّغمِ مِن حَجمِ المُعَانَاةِ والحُزنِ الَّذِي لَفَّ طَيَّاتِ هَذَا النَّوعِ مِنَ القَصَائِدِ فِي مَوضُوعِ الآهَاتِ وَالأَلَمِ الَّذِي تَرَكَتهُ هَذِهِ القَصَائِدُ، فَإِنَّهَا عَبَّرَت تَعبِيرًا تَمَيَّزَ بِالصِّدقِ وَعُذُوبَةِ الأَلفَاظِ، غَالِبًا مَا يَأتِي هَذَا النَّوعُ مِنَ الشِّعرِ مِن دَوَافِعَ وَأَسبَابٍ إِنسَانِيَّةٍ نَابِعَةٍ مِن عُمقِ التَّجرِبَةِ، وَجَزَالَةِ الأَلفَاظِ، وَصِدقِ التَّجرِبَةِ.

لَقَد كَانَتِ المَرَارَةُ الَّتِي يَعِيشُهَا الشَّاعِرُ مَعَ ذَاتِهِ، وَاستِشعَارُهَا أَمَامَهُ فِي كُلِّ لَحظَةٍ، تَجعَلُ المُتَلَقِّيَ يَشعُرُ بِتِلكَ الِانثِنَاءَاتِ النَّاجِمَةِ مِن قُلُوبٍ حَارَّةٍ، وَأَكبَادٍ نَازِفَةٍ تَحِنُّ وَتَئِنُّ عَلَى ذَلِكَ الفِرَاقِ الأَبَدِيِّ الَّذِي يَترُكُهُ رَحِيلُ الزَّوجَةِ عَلَى الزَّوجِ وَالعَائِلَةِ بِأَكمَلِهَا.

المَبحَثُ الرَّابِعُ: فَقدُ الذَّاتِ

يُعَدُّ شِعرَ الفَقدِ الأَندَلُسِيَّ المُتَمَثِّلَ فِي فَقدِ الذَّاتِ شِعرًا حَاضِرًا فِي كُلِّ العُصُورِ الأَندَلُسِيَّةِ، بَل عَلَى مَدَارِ العُقُودِ وَالأَجيَالِ، بِشَكلٍ لَافِتٍ لِلِاهتِمَامِ، فَالمُتَأَمِّلُ فِي تَارِيخِ الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، عَصرَ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، يَجِدُ أَنَّ مَوضُوعَ فَقدِ الذَّاتِ يُعَدُّ مِحوَرًا مُهِمًّا لَدَى الكَثِيرِ مِنَ الشُّعَرَاءِ الأَندَلُسِيِّينَ، بَدءًا مِن عَصرِ الفَتحِ، حَتَّى نِهَايَةِ العَصرِ الغِرنَاطِيِّ، فَمَصَادِرُ تَارِيخِ الأَدَبِ الأَندَلُسِيِّ، وَكَذَلِكَ الدَّوَاوِينُ الشِّعرِيَّةُ تَضُمُّ الكَثِيرَ مِنَ القَصَائِدِ الَّتِي قِيلَت فِي فَقدِ الذَّاتِ عَلَى اختِلَافِ بَوَاعِثِهَا وَمُؤَثِّرَاتِهَا[1].

ولَعَلَّ مِنَ الِاتِّجَاهَاتِ اللَّافِتَةِ لِلنَّظَرِ فِي هَذَا الغَرَضِ الشِّعرِيِّ، أَن يَرثِيَ الشَّاعِرُ نَفسَهُ، وَيَبكِيَ مَصِيرَهُ المَحتُومَ مُستَشعِرًا الهَولَ، وَدُنُوَّ الأَجَلِ، وَقَد رَصَدنَا شُيُوعَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الأَدَبِيَّةِ عِندَ الأَندَلُسِيِّينَ، لَا سِيَّمَا بَعدَ سُقُوطِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ فِي مَطلَعِ القَرنِ الخَامِسِ الهِجرِيِّ وَحُلُولِ الفَوضَى وَالفِتَنِ مَحَلَّ القُوَّةِ وَالِاستِقرَارِ، فَكَانَ النُّزُوعُ إِلَى استِشعَارِ الهَولِ وَالتَّفكِيرُ بِالمَصِيرِ الإِنسَانِيِّ لَدَى الأَندَلُسِيِّينَ قَد استَغرَقَ قَرَائِحَ بَعضِ الشُّعَرَاءِ ذَوِي المَلَكَاتِ الفَنِّيَّةِ العَالِيَةِ، فَأَجرَوا عَلَى أَلسِنَتِهِم سِحرًا يُصَوِّرُ شُعُورَهُم بِدُنُوِّ الأَجَلِ وَأَهوَالِ الحَيَاةِ[2].

ويَبدُو أَنَّ هَذَا الِاتِّجَاهَ الشِّعرِيَّ الذَّاتِيَّ الَّذِي بَرَزَ عِندَ الأَندَلُسِيِّينَ فِي الفَترَةِ مِن (١٣٨ه- ٤٢٢ه)، لَهُ جُذُورٌ فِي أَدَبِنَا العَرَبِيِّ لَا يُمكِنُنَا إِغفَالُهَا؛ لَقَد اطَّلَعنَا عَلَى نَمَاذِجَ شِعرِيَّةٍ لِفَقدِ الشُّعَرَاءِ لِأَنفُسِهِم، مُعَبِّرِينَ عَن إِحسَاسِهِمُ العَمِيقِ بِالخَوفِ مِنَ المَجهُولِ وَالقَدَرِ، مُعَبِّرِينَ فِي أَشعَارِهِم عَن أَسَى مُوجِعٍ، لِحِرمَانِهِم مِنَ الحَيَاةِ وَفَنَائِهَا.

فَقُدرَاتُ الشُّعَرَاءِ تَتَبَايَنُ قُوَّةً وَضَعفًا فِي الكَشفِ عَمَّا بِدَاخِلِهِم، فَمِنهُم مَن كَانَت تَجرِبَتُهُ الوجدَانِيَّةُ صَادِقَةً فِي هَذَا الغَرَضِ الذَّاتِيِّ، وَامتَلَكَ قُوَّةً شِعرِيَّةً أَسعَفَتهُ فِي إِثَارَةِ الحَزمِ وَإِلهَابِ النُّفُوسِ، وَمِنهُم مَن نَأَت بِهِ مَقدِرَتُهُ عَن إِيصَالِ تِلكَ التَّجرِبَةِ حَيَّةً.

وبَرَزَ هَذَا الِاتِّجَاهُ الشِّعرِيُّ بُرُوزًا لَافِتًا لِلنَّظَرِ، وَلَا سِيَّمَا بَعدَ مَا حَلَّ بِالأَندَلُسِ مِن أَحدَاثٍ سِيَاسِيَّةٍ كُبرَى غَيَّرَت مَجرَى التَّارِيخِ الأَندَلُسِيِّ، وَمِن تِلكَ الأَحدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ البَارِزَةِ، انهِيَارُ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ، بَعدَ أَن كَانَت قُرطُبَةُ، كَمَا وَصَفَهَا ابنُ بَسَّامٍ، "كَانَت مُنتَهَى الغَايَةِ، وَمَركَزَ الرَّايَةِ، وَأُمَّ القُرَى، وَقَرَارَةَ أَهلِ الفَضلِ وَالتُّقَى، وَوَطَنَ أُولِي العِلمِ وَالنُّهَى، وَقَلبَ الإِقلِيمِ، وَيَنبُوعًا مُتَفَجِّرًا لِلعُلُومِ، وَقُبَّةَ الإِسلَامِ، وَحَضرَةَ الإِمَامِ"[3]، وَيَقُولُ المُستَشرِقُ غرسيه غومس عَن قُرطُبَةَ: "كَانَت مُلتَقَى أَجنَاسِ الشَّرقِ وَالغَربِ، وَمَوضِعَ امتِزَاجِ بَعضِهَا بِبَعضٍ"[4].

---

[1] يُرَاجَعُ، رِثَاءُ النَّفسِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، ١٦- 19.

[2] يُرَاجَعُ، الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهلِ الجَزِيرَةِ، أَبُو الحَسَنِ عَلِي بنُ بَسَّامٍ الشَّنتَرِينِيُّ (ت٥٤٢ه)، تَحقِيقُ: إِحسَان عَبَّاس، بَيرُوت، دَارُ الغَربِ الإِسلَامِيِّ، ق١، 1981م، ١٦١/١.

[3] السَّابِقُ، ٣٣- ٣٤.

[4] الشِّعرُ الأَندَلُسِيُّ (بَحثٌ فِي تَطَوُّرِهِ وَخَصَائِصِهِ)، غَرثِيه غُومِث، تَرجَمَهُ: حُسَين مُؤنِس، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ط3، 1963م، ٤٣.

Faculty of Arts, Arish University

الَّذِي يُهِمُّنَا مِن هَذَا التَّغَيُّرِ هُوَ أَسبَابُ التَّدَهوُرِ، الَّتِي أَدَّت لِتِلكَ الأَحدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي عَصَفَت بِمُستَقبَلِ الشَّخصِيَّةِ الأَندَلُسِيَّةِ، وَهُوَ الفُرقَةُ بَينَ المُسلِمِينَ، وَهَذَا مَا عَمِلَ عَلَيهِ المُحتَلُّ، وَنَحنُ مَن سَاعَدنَاهُ عَلَى ذَلِكَ، فَمَا أَسرَعَنَا فِي التَّفَرُّقِ وَالطَّمَعِ، وَبَيعِ الوَطَنِ مِن أَجلِ قِيَادَةِ مِنطَقَةٍ مَا، وَحُرِّيَّةُ التَّعبِيرِ لِلتَّغيِيرِ، فكَانَت مِن ضِمنِ الخَطَرِ، بِحَيثُ طَبَعَتِ الفُنُونُ الأَدَبِيَّةُ - وَمِنهَا الشِّعرُ – بِطَابِعِهَا، وَصَحَّ التَّمَيُّزُ المُتَّسِمُ بِمَشَاعِرِ القَلَقِ وَالِاضطِرَابِ.

إِنَّ هَذَا الِاتِّجَاهَ الشِّعرِيَّ (فَقدَ الذَّاتِ)، لَم يَغدُ ظَاهِرَةً شِعرِيَّةً مُتَمَيِّزَةً، إِلَّا بَعدَ التَّحَوُّلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالِاجتِمَاعِيَّةِ الخَطِيرَةِ الَّتِي تَعَرَّضَت لَهَا بِلَادُ الأَندَلُسِ.

كَانَ ذَلِكَ لَمحَةً مُوجَزَةً لِبَعضِ جَوَانِبِ فَقدِ الذَّاتِ عِندَ عُمُومِ الشُّعَرَاءِ الأَندَلُسِيِّينَ، وَفِيمَا يَأتِي سَأُحَاوِلُ أَن أُقَدِّمَهَا، مِن خِلَالِ الوُقُوفِ عَلَى بَعضِ الأَبيَاتِ الَّتِي قَالَهَا شُعَرَاءُ الأَندَلُسِ في العصر الأموي فِي فَقدِ أَنفُسِهِم.

وبِدَعوَةٍ خُلُقِيَّةٍ تَختَلِطُ بِنَزعَةٍ زَاهِدَةٍ فِي الحَيَاةِ، جَاءَت فَلسَفَةُ **ابنِ عَبدِ رَبِّهِ** الَّتِي يَستَوحِيهَا مِن خَلفِيَّةٍ أَسَاسُهَا الدِّينُ، لَقَد كَانَ يُكثِرُ مِنَ التَّأَمُّلِ فِي الحَيَاةِ وَيُطِيلُ النَّظَرَ فِي مُشكِلَةِ زَوَالِ العُمُرِ، فَهُوَ يَرَى الحَيَاةَ مَزَارِعَ، وَمَا يَزرَعُهُ الإِنسَانُ فِيهَا يَحصُدُهُ، وَعَلَى الإِنسَانِ أَن يُحسِنَ الِانتِفَاعَ مِنَ الحَيَاةِ بِصَالِحِ الأَعمَالِ، لِأَنَّ الحَيَاةَ فَانِيَةٌ لَا يَبقَى مِنهَا سِوَى العَمَلِ الَّذِي خَلَّفَهُ الإِنسَانُ، سَوَاءٌ كَانَ حَمدًا أَو ذَمًّا، وَهُوَ مِقيَاسُ التَّفَاضُلِ بَينَ النَّاسِ، فَيَقُولُ: [مَجزُوءُ الكَامِلِ]

إِنَّ الحَيَاةَ مَزَارِعٌ فَازرَع بِهَا مَا شِئتَ تَحصُدْ
وَالنَّاسُ لَا يَبقَى سِوَى آثَارِهِم وَالعَينُ تُفقَدْ
أَوَمَا سَمِعتَ بِمَن مَضَى هَذَا يُذَمُّ وَذَاكَ يُحمَدْ
وَالمَالُ إِن أَصلَحتَهُ يَصلُحْ، وَإِن أَفسَدْتَ يَفسُدْ
وَالعِلمُ مَا وَعَتِ الصُّدُورُ وَلَيسَ مَا فِي الكُتْبِ يَخلُدْ[1]

يُعَبِّرُ الشَّاعِرُ عَنِ الحَيَاةِ مِن وِجهَةِ نَظَرِهِ، فَيُشَبِّهُهَا بِالمَزَارِعِ، وَالإِنسَانُ مُزَارِعٌ يَزرَعُ فِيهَا، فَمَا يَزرَعهُ يَحصُدُهُ، إِن كَانَ خَيرًا فَلَهُ، وَإِن كَانَ شَرًّا فَعَلَيهِ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ مَا يَنفَعُ الإِنسَانَ، لِأَنَّ الحَيَاةَ خَدَّاعَةٌ بِزِينَتِهَا، فَتَقُولُ الدُّنيَا: أَنَا الدُّنيَا أَقُولُ بِمِلءِ فِيَّ، حَذَارِ حَذَارِ مِن بَطشِي وَفَتكِي، فَلَا يَغرُرُكُمُوا مِنِّي ابتِسَامٌ، فَقَولِي مُضحِكٌ وَالفِعلُ مُبكِي، فَمِعيَارُ التَّفَاضُلِ بَينَ الخَلقِ أَمَامَ اللهِ ﷺ، هُوَ العَمَلُ الصَّالِحُ، فَالشَّاعِرُ يَنقُلُ حَقِيقَةً لَا جِدَالَ فِيهَا، وَيَتَّضِحُ أَثَرُ الذَّاتِ مِن خِلَالِ مَا يُرِيدُ تَوصِيلَهُ مِن نَصِيحَةٍ لِلنَّاسِ، فِي شَكلِ قَالَبٍ شِعرِيٍّ.

يَقُولُ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ**، أَيضًا، فِي فَقدِ الشَّبَابِ الَّذِي وَلَّى دُونَ أَن يَدرِيَ: [الكَامِلُ]

وَلَّى الشَّبَابُ وَكُنتَ تَسكُنُ ظِلَّهُ فَانظُر لِنَفسِكَ أَيَّ ظِلٍّ تَسكُنُ
وَنَهَى المَشِيبُ عَنِ الصِّبَا لَو أَنَّهُ يُدلِي بِحُجَّتِهِ إِلَى مَن يَلقَنُ[2]

يَرسُمُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ صُورَةً إِدرَاكِيَّةً ذِهنِيَّةً، لِيُقَرِّرَ بِهَا فِكرَةَ أَنَّ الشَّبَابَ يُسَاوِي الأَمَانَ، حَيثُ شَبَّهَهُ بِالشَّجَرَةِ الَّتِي يُستَظَلُّ بِهَا، لِتُسكَنَ حِمَايَةً مِنَ الوَهَجِ، وَتَبعَثَ فِي النَّفسِ الأَرِيحِيَّةَ وَالِاحتِمَاءَ، لَقَد انقَضَى الشَّبَابُ (الشَّجَرَةُ) الَّذِي كُنتَ تَعتَصِمُ بِهِ مِن نَوَائِبِ الدُّنيَا، فَلتَبحَث لِنَفسِكَ عَن شَجَرَةٍ أُخرَى لِتَستَظِلَّ بِهَا، فَالصُّورَةُ الذِّهنِيَّةُ هُنَا تُخَاطِبُ العَقلَ لِتُقنِعَهُ، وَهَذَا هُوَ مَنطِقُ الحِكمَةِ.

بِسَبَبِ طَبِيعَةِ ابن عَبدِ رَبِّهِ المُتَشَائِمَةِ وَالمُحَاطَةِ بِسُوءِ الظَّنِّ، إِلَى الحَيَاةِ مِن طَرَفِ المَوتِ وَالآخِرَةِ، جَعَلَتهُ يَرَى الحَيَاةَ خَالِيَةً مِن كُلِّ خَيرٍ، تَنتَقِلُ مِن سَيِّئٍ إِلَى أَسوَأَ، لَم يَبقَ فِيهَا إِلَّا أَهلُ اللُّؤمِ وَالبُخلِ، فَهِيَ خَالِيَةٌ مِن أَهلِ الخَيرِ وَالصَّلَاحِ وَالكُرَمَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّ مَن فِيهَا كِلَابٌ، إِذ يَقُولُ: [الوَافِرُ]

وَأَيَّامٌ خَلَت مِن كُلِّ خَيرٍ وَدُنيَا قَد تَوَزَّعَهَا الكِلَابُ

---

(1) الدِّيوَانُ، ٦٠.
(2) السَّابِقُ، ١٧٠.

Faculty of Arts, Arish University

كِلَابٌ لَو سَألتَهُم تُرَابًا   لَقَالُوا: عِندَنَا انقَطَعَ التُّرَابُ![1]

نُلَاحِظُ فِي البَيتَينِ كَلِمَاتٍ مُعَبِّرَةً مُستَمَدَّةً مِن وَاقِعِ الحَيَاةِ وَطَبِيعَتِهَا، يُرِيدُ أن يَقُولَ: إنَّ الحَيَاةَ مُتَقَلِّبَةٌ لَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ، فَهِيَ كَاليَومِ البَهِيجِ المُشرِقِ الَّذِي يَعقُبُهُ الغُرُوبُ، لِيُعَجِّلَ بِانقِضَائِهِ، وَالإنسَانُ فِيهَا يَقضِي نَحبَهُ، وَهُوَ مَا يَزَالُ فِي عُنفُوَانِ شَبَابِهِ وَيَتَمَتَّعُ بِكَامِلِ قُوَّتِهِ كَالغُصنِ الرَّيَّانِ الَّذِي اقتَلَعَتهُ الرِّيحُ وَأَلقَت بِهِ نَضِيرًا لَم يَنَلهُ الذُّبُولُ.

بَدَأَ إحسَاسُ **ابنِ شُهَيدٍ** بِقِصَرِ الحَيَاةِ، فَهُوَ يَرَى أَنَّ حَيَاتَهُ قَدِ انتَهَت كَلَمحِ البَصَرِ، فَقَد جَعَلَتهُ عِلَّتُهُ الَّتِي أَصَابَتهُ فِي نِهَايَةِ حَيَاتِهِ، وَأَقعَدَتهُ عَنِ الحَرَكَةِ، وَتَسَبَّبَت فِي مَوتِهِ وَشُعُورِهِ بِخَيبَةِ الأَمَلِ لِلعُمُرِ الَّذِي انقَضَى، وَيَستَفرِغُ هُمُومَهُ، وَيَندُبُ نَفسَهُ وَيَتَأَمَّلُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ، فَيَرَى أَنَّهَا لَيسَت قَصِيرَةً فَحَسبُ، بَل إنَّهَا صَفقَةٌ خَاسِرَةٌ، وَوَجَدَ أَنَّ نَجَاتَهُ مِنَ العَذَابِ بَعدَ مَوتِهِ تَكُونُ بِمَا قَدَّمَت يَدَاهُ مِن صَالِحِ الأعمَالِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

تَأَمَّلتُ مَا أَفنَيتُ مِن طُولِ مُدَّتِي   فَلَم أَرَهُ إِلَّا كَلَمحَةِ نَاظِرِ

وَحَصَّلتُ مَا أَدرَكتُ مِن طُولِ لَذَّتِي   فَلَم أُلفِهِ إِلَّا كَصَفقَةِ خَاسِرِ

وَمَا أَنَا إِلَّا رَهنُ مَا قَدَّمَت يَدِي   إِذَا غَادَرُونِي بَينَ أَهلِ المَقَابِرِ

سَقَى اللَّهُ فِتيَانًا كَأَنَّ وُجُوهَهُم   وُجُوهُ مَصَابِيحِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ[2]

لَا يَجُوزُ لِلإنسَانِ أن يَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَا حَرَمَتهُ الحَيَاةُ، إذ لَا يَنفَعُ تَأَسُّفُهُ وَحَسرَتُهُ، لِأَنَّ الحَيَاةَ جُبِلَت عَلَى ذَلِكَ، مَهمَا جَمَعَ وَحَصَّلَ مِن أَموَالٍ، مَعَ دَعوَةِ ابنِ شُهَيدٍ فَإِنَّهُ لَم يَستَطِع أن يُخفِيَ الصِّرَاعَ المُتَأَجِّجَ فِي نَفسِهِ بَينَ نِهَايَتِهِ الحَتمِيَّةِ، وَتَلَهُّفِهِ إِلَى الحَيَاةِ وَتَمَسُّكِهِ بِهَا، فَهُوَ عِندَمَا يُدرِكُ أَنَّ المَوتَ يَتَوَجَّهُ نَحوَهُ وَيُرسِلُ إِلَيهِ كُلَّ يَومٍ بِنَذِيرٍ، يَتَمَنَّى لَو أَنَّهُ يَستَطِيعُ أَن يَسكُنَ أَعلَى قِمَّةٍ مِن جَبَلٍ عَالٍ: [الطَّوِيلُ]

وَلَمَّا رَأَيتُ العَيشَ وَلَّى بِرَأسِهِ   وَأَيقَنتُ أَنَّ المَوتَ لَا شَكَّ لَاحِقِي

تَمَنَّيتُ أَنِّي سَاكِنٌ فِي غَيَابَةٍ   بِأَعلَى مَهَبِّ الرِّيحِ فِي رَأسِ شَاهِقِ أَذَرُّ

سَقِيطَ الحَبِّ فِي فَضلِ عِيشَةٍ   وَحِيدًا وَحِسْيُ المَاءَ ثِنيُ المَفَالِقِ[3]

وَفِي أَبيَاتٍ أُخرَى تَحمِلُ الطَّابِعَ الدِّينِيَّ يَدعُو **أَبُو إِسحَاقَ الإلبِيرِي** إِلَى الزُّهدِ فِي الحَيَاةِ، وَالعَيشِ فِيهَا حَيَاةَ النُّسَّاكِ المُتَعَبِّدِينَ المُتَبَتِّلِينَ إِلَى اللهِ، لِأَنَّهَا الحَيَاةُ الحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يُثَابُ المَرءُ عَلَيهَا فِي دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ: [الكَامِلُ]

لا عَيشَ يَصفُو لِلمُلُوكِ وَإِنَّمَا   تَصفُو وَتُحمَدُ عِيشَةُ النُّسَّاكِ

وَمِنَ الإِلَهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُهُ   عَدَدَ النُّجُومِ وَعِدَّةَ الأَملَاكِ[4]

يُحَاوِلُ الإلبِيرِيُّ اكتِشَافَ العَلَاقَةِ العَكسِيَّةِ الَّتِي تَربِطُ بَينَ الحَيَاةِ وَالمَوتِ، فَيَجِدُ أَنَّهُ كُلَّمَا طَالَت حَيَاةُ الإِنسَانِ، نَقَصَ عُمُرُهُ وَأَصبَحَ لِلمَوتِ أَكثَرَ اقتِرَابًا، لِيُقَرِّبَهُ مِنَ العَجزِ، وَيُفقِدَهُ المَزِيدَ مِن بَهجَةِ العَيشِ، وَمِن ثَمَّ يَتَعَجَّبُ الشَّاعِرُ مِن عَاقِلٍ يَتَلَذَّذُ، وَيَسعَدُ بِالحَيَاةِ، وَيُغفِلُ المَوتَ، الَّذِي يَتَرَبَّصُ بِهِ، حَامِلًا سَهمَهُ، لِيُفَاجِئَهُ وَيَرمِيَهُ فِي أَيِّ لَحظَةٍ.

الظَّاهِرُ مِنَ البَيتِ الثَّانِي أَنَّهُ يُرِيدُ بِالأَملَاكِ: المَلَائِكَة، وَلَكِن لَم يَرِد هَذَا الجَمعِ، وَفِي المُعجَمِ: المَلَكُ تُجمَعُ عَلَى مَلَائِكَةٍ وَمَلَائِك[5]، وَقَد تَكُونُ الأَملَاكُ تَحرِيفُ (الأَفلَاكِ): جَمعُ فَلَكٍ، وَهَذَا يُنَاسِبُ النُّجُومُ المَذكُورَةَ فِي البَيتِ.

---

(1) الدِّيوَانُ، ٢٥.

(2) الدِّيوَانُ، ١١٣.

(3) السَّابِقُ، 133- 134.

(4) الدِّيوَانُ، ٤٣.

(5) لسان العرب، مادة (م ل ك).

Faculty of Arts, Arish University

وَابنُ **عَبدِ رَبِّهِ الأندَلُسِيُّ** الَّذِي كَانَ يَمِيلُ كُلَّ المَيلِ إِلَى مُعَارَضَةِ المَشَارِقَةِ بِقَصدِ التَّفَوُّقِ عَلَيهِم، لَا لِلسَّيرِ فِي رِكَابِهِم فَحَسبُ، فَقَدِ اجتَهَدَ مَا استَطَاعَ فِي الأَخذِ مِن أفكَارِهِم وَمَعَانِيهِم، مُضِيفًا إِلَيهَا أو مُهَذِّبًا بَعضَهَا، وَاختَارَ فِي مَجَالِ الزُّهدِ أَبَا العَتَاهِيَةِ إِمَامًا لَهُ، لِيُعَارِضَهُ لَا لِيُحَاكِيَهُ.

مَا أكثَرَ القَصَائِدَ الزُّهدِيَّةَ الَّتِي نَظَمَهَا ابنُ عَبدِ رَبِّهِ حَولَ مَعَانِي الزُّهدِ وَالتَّوبَةِ، وَسُمِّيَت بِـ(المُمَحَّصَاتِ)، وَالَّتِي عَارَضَ فِيهَا نَفسَهُ عَلَى شَاكِلَةِ قَولِهِ: [البَسِيطُ]

1- يَا عَاجِزًا لَيسَ يَعفُو حِينَ يَقتَدِرُ وَلَا يُقَضَّى لَهُ مِن عَيشِهِ وَطَرُ

2-عَاين بِقَلبِكَ إِنَّ العَينَ غَافِلَةٌ عَن الحَقِيقَةِ وَاعلَم أَنَّهَا سَقَرُ

3-سَوداءُ تَزفِرُ مِن غَيظٍ إِذَا سُعِرَت لِلظَّالِمِينَ فَلَا تُبقِي وَلَا تَذَرُ

4-إِنَّ الَّذِينَ اشتَرَوا دُنيَا بِآخِرَةٍ وَشِقوَةً بِنَعِيمٍ سَاءَ مَا تَجَرُوا

5-يَا مَن تَلَهَّى وَشَيبُ الرَّأسِ يَندُبُهُ مَاذَا الَّذِي بَعدَ شَيبِ الرَّأسِ تَنتَظِرُ؟![1]

نُلَاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ يُحَذِّرُ الإِنسَانَ مِنَ الغَفلَةِ وَاللَّهوِ وَالعَبَثِ، دُونَ أَن يَستَعِدَّ لِآخِرَتِهِ، وَاضِعًا إِيَّاهُ أَمَامَ الحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ حَقٌّ، أَلَا وَهِيَ النَّارُ، وَفِي البَيتَينِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ نَجِدُهُ يَتَنَاصُّ مَعَ لَفظِ القُرآنِ الكَرِيمِ وَمَعنَاهُ فِي قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المُدَّثِّرُ] فَهَذَا تَعبِيرٌ قُرآنِيٌّ، أَمَّا قَولُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ فِي البَيتِ الرَّابِعِ: فَهُوَ يَنقُلُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ مُبَاشَرَةً، مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البَقَرَةُ]، فَقَد عَارَضَ فِي ذَلِكَ قِطعَةً شِعرِيَّةً قَالَهَا أَيَّامَ صِبَاهُ، يَقُولُ فِيهَا: [البَسِيطُ]

هَلَّا ابتَكَرتَ لِبَينٍ أَنتَ مُبتَكِرُ هَيهَاتَ يَأبَى عَلَيكَ اللَّهُ وَالقَدَرُ

مَا زِلتُ أَبكِي حِذَارَ البَينِ مُلتَهِفًا حَتَّى رَثَى لِيَ فِيكَ الرِّيحُ وَالمَطَرُ[2]

لَم يَهتَمَّ **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** بِتَسجِيلِ المَوضُوعِ الشِّعرِيِّ فِي ذَاكِرَةِ الشِّعرِ، مَعَ تَخصِيصِهِ بَابًا عَنِ الفَقدِ فِيمَن فَقَدَ نَفسَهُ، فَقَد صَرَفَ هَمَّهُ لِبَيَانِ الشُّعَرَاءِ المَشَارِقَةِ الَّذِينَ رَثَوا أَنفُسَهُم وَوَصَفُوا قُبُورَهُم وَكَتَبُوا عَلَيهَا الشَّوَاهِدَ. كَمَا يَتَوَجَّعُ، أَيضًا، مِن أَلَمِ الغُربَةِ وَقَسوَتِهَا عَلَيهِ، إِذ يَقُولُ: [البَسِيطُ]

الجِسمُ فِي بَلَدٍ وَالرُّوحُ فِي بَلَدِ يَا وَحشَةَ الرُّوحِ، بَل يَا غُربَةَ الجَسَدِ

إِن تَبكِ عَينَاكَ لِي يَا مَن كَلِفتُ بِهِ مِن رَحمَةٍ فَهُمَا سَهمَانِ فِي كَبِدِي[3]

يَبكِي ابنُ عَبدِ رَبِّهِ نَفسَهُ مُبَيِّنًا مُعَانَاةَ الذَّاتِ، مِن خِلَالِ الغُربَةِ النَّفسِيَّةِ وَالجَسَدِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا بَعِيدًا عَن حَبِيبَتِهِ، وَفِرَاقِهَا لَهُ جَعَلَهُ يَعِيشُ غَرِيبًا بَعِيدًا عَن رُوحِهِ وَجَسَدِهِ، فَجَسَدُهُ وَرُوحُهُ فِي شَتَاتٍ، كُلٌّ مِنهُمَا فِي مَكَانٍ، كَمَا صَوَّرَ بُكَاءَهَا شَوقًا لَهُ كَالسِّهَامِ الَّتِي تُصِيبُ كَبِدَهُ، وَاستَخدَمَ هَذَا التَّصوِيرَ، لِيُوَضِّحَ حَجمَ المُعَانَاةِ وَالأَلَمِ الَّذِي يَشعُرُ بِهِ، عِندَمَا يُحِسُّ أَنَّهَا حَزِينَةٌ لِأَجلِهِ.

تُعَبِّرُ هَذِهِ التَّجَارِبُ الأَدَبِيَّةُ وَمَثِيلَاتُهَا عَن وِجدَانِ الشَّاعِرِ وَصِلَتِهِ بِتَجرِبَةِ فَقدِ الذَّاتِ، وَاستِشعَارِ دُنُوِّ الأَجَلِ، فَقَدِ اتَّخَذَت مِن مَعَانِي الغَدرِ فِي الدُّنيَا، وَحَتمِيَّةِ المَوتِ وَشُمُولِهِ لِكُلِّ الأَحيَاءِ مَعَانِيَ لَهَا. إِنَّ دِرَاسَةَ الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ لَا تَكُونُ بِمَنأًى عَن دِرَاسَةِ مَرجِعِيَّاتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، وَلَا سِيَّمَا الأَدَبِيَّةُ مِنهَا، إِذ لَا بُدَّ مِنَ الوُقُوفِ عَلَى المَنَابِعِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي ظَلَّ الشُّعَرَاءُ الأَندَلُسِيُّونَ يَستَقُونَ

[1] الدِّيوَانُ، 71.
[2] السَّابِقُ، ١٠٣.
[3] السَّابِقُ، ٧٤.

Faculty of Arts, Arish University

مِنهَا، وَيَنهَلُونَ مِن رَوَافِدِ الثَّقَافَةِ المَشرقِيَّةِ الأَصِيلَةِ المُتَمَثِّلَةِ بِالقُرآنِ الكَرِيمِ وَالشِّعرِ العَرَبِيِّ وَالحِكَمِ وَالأَمثَالِ، إِلَى جَانِبِ تَأَثُّرِهِم بِالشِّعرِ العَرَبِيِّ[1].

فَلَيسَ بِدعًا أَن يَنهَلَ الأَندَلُسِيُّونَ مِن ثَقَافَةِ المَشرِقِ، وَأَن يَتَأَمَّلُوا تَجَارِبَهُم فِي أَيِّ مَعنًى شِعرِيٍّ، لِيُعَبِّرُوا عَن عَوَاطِفِهِم وَأَفكَارِهِم، وَعَمَّا تَتَطَلَّبُهُ بِيئَتُهُم وَشُؤُونُ حَيَاتِهِم، لِذَا دَأَبُوا عَلَى مُوَاصَلَةِ البَحثِ العِلمِيِّ سَالِكِينَ إِلَيهِ سُبُلًا عَدِيدَةً، فَضلًا عَن البِيئَةِ الأَندَلُسِيَّةِ نَفسِهَا الَّتِي سَاهَمَت فِي تَكوِينِ الشَّخصِيَّةِ الأَندَلُسِيَّةِ المُعَبِّرَةِ عَمَّا يُحِيطُ بِهَا مِن مَوَاقِفَ وَأَفكَارٍ[2].

مِن هُنَا يُمكِنُ أَن يُقَالَ: إِنَّ الأَندَلُسَ كَانَت بَعدَ مَرحَلَةِ اسِتِقرَارِ الإِمَارَةِ تَشهَدُ نَهضَةً فِكرِيَّةً ثَقَافِيَّةً تُضَارِعُ مَا كَانَ يَشهَدُهُ المَشرِقُ العَرَبِيُّ، وَلَا سِيَّمَا فِي مَجَالِ التَّيَّارَاتِ الأَدَبِيَّةِ، فَقَوِيَ تَأَثُّرُ الأَندَلُسِيِّينَ بِالأَعلَامِ المُجَدِّدِينَ مِن أَئِمَّةِ القَرِيضِ العَرَبِيِّ المَشَارِقَةِ الَّذِينَ كَانَت لَهُم مَنزِلَةٌ مَرمُوقَةٌ مِن أَمثَالِ: بَشَّارِ بنِ بُردٍ، وَأَبِي نُوَاسٍ، وَأَبِي العَتَاهِيَةِ فِي القَرنِ الثَّانِي الهِجرِيِّ، وَابنِ المُعتَزِّ، وَأَبِي تَمَّامٍ، وَالبُحتُرِيِّ، وَالمُتَنَبِّي فِي القَرنِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ الهِجرِيَّينِ وَالشَّرِيفِ الرَّضِيِّ وَأَبِي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ فِي القَرنِ الخَامِسِ الهِجرِيِّ، فَإِنَّ تَأثِيرَ هَؤُلَاءِ الأَندَلُسِيِّينَ كَانَ مُتَفَاوِتًا[3].

فِي مَطلَعِ القَرنِ الخَامِسِ الهِجرِيِّ وَوُقُوعِ الفِتنَةِ البَربَرِيَّةِ، انفَرَطَ عِقدُ الأَندَلُسِ وَتَصَدَّعَتِ الدَّولَةُ العَظِيمَةُ بِفِعلِ عَوَامِلَ مَرَّ بِنَا ذِكرُهَا فِي هَذَا البَحثِ، بَعدَ هَذَا يَأتِي عَهدُ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ، حَيثُ ازدِهَارُ الثَّقَافَةِ وَالأَدَبِ، وَتَوَقُّدُ القَرَائِحِ، فَتَعَمَّقَت تَجَارِبُ الشُّعَرَاءِ لِمَا تَأَثَّرُوا بِهِ مِن هَذِهِ الأَحدَاثِ الكُبرَى، وَبِمَا انعَكَسَ عَلَى الشَّخصِيَّةِ الأَندَلُسِيَّةِ[4].

فِي هَذِهِ الأَثنَاءِ يُطَالِعُنَا **ابنُ شُهَيدٍ** شَاعِرًا مُجِيدًا وَكَاتِبًا فَذًّا عَاشَ تِلكَ الأَحدَاثَ الخَطِيرَةَ، وَرَأَى خَرَابَ قُرطُبَةَ مَدِينَتِهِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا مُنَعَّمًا، فَبَكَاهَا وَلَم يُؤثِرِ الرَّحِيلَ مِنهَا، وَقَد لَقِيَ فِي نِصفِ عُمُرِهِ الثَّانِي صُنُوفًا مِنَ الشَّقَاءِ وَالتَّهوِينِ وَالبُغضِ وَالِازدِرَاءِ، وَاجَهَهَا بِشُمُوخِهِ، مُعَوِّلًا عَلَى مَا أَبدَعَهُ قَلَمُهُ فِي النَّظمِ وَالنَّثرِ، وَمِن بَدِيعِ مَا جَادَت بِهِ قَرِيحَتُهُ، تَصَوُّرُهُ لِتَجَارِبِهِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي هِيَ قَصَائِدُ فَرِيدَةٌ فِي فَقدِ ذَاتِهِ، وَبُكَاءِ الحَيَاةِ المُوَلِّيَةِ الَّتِي قَضَى شَطرًا مِنهَا لَاهِيًا عَابِثًا مُسرِفًا فِي اللَّذَّةِ، فَأَخَذَ يَتَأَمَّلُ مَا اقتَرَفَهُ، فَلَم يُلفِهِ إِلَّا كَصَفقَةِ خَاسِرٍ، لِذَا يَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

تَأَمَّلتُ مَا أَفنَيتُ مِن طُولِ مُدَّتِي ... فَلَم أَرَهُ إِلَّا كَلَمحَةِ نَاظِرِ
وحَصَّلتُ مَا أَدرَكتُ مِن طُولِ لَذَّتِي ... فَلَم أُلفِهِ إِلَّا كَصَفقَةِ خَاسِرِ
وَمَا أَنَا إِلَّا رَهنُ مَا قَدَّمَت يَدِي ... إِذَا غَادَرُونِي بَينَ أَهلِ المَقَابِرِ
سَقَى اللَّهُ فِتيَانًا كَأَنَّ وُجُوهَهُم ... وُجُوهُ مَصَابِيحِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ
إِذَا ذَكَرُونِي وَالثَّرَى فَوقَ أَعظُمِي ... بَكَوا بِعُيُونٍ كَالسَّحَابِ المَوَاطِرِ
يَقُولُونَ: قَد أَودَى أَبُو عَامِرِ العُلَا ... أَقِلُّوا فَقِدمًا مَاتَ آبَاءُ عَامِرِ
هُوَ المَوتُ لَم يُعرَف بِأَجرَاسِ خَاطِبٍ ... بَلِيغٍ، وَلَم يُعطَف بِأَنفَاسِ شَاعِرِ
وَلَم يَجتَنِب لِلبَطشِ مُهجَةَ قَادِرٍ ... قَوِيٍّ، وَلَا لِلضَّعفِ مُهجَةَ صَافِرِ
يَحُلُّ عُرَى الجَبَّارِ فِي دَارِ مُلكِهِ ... وَيَهفُو بِنَفسِ الشَّارِبِ المُتَسَاكِرِ
وَلَيسَ عَجِيبًا أَن تَدَانَت مَنِيَّتِي ... يُصَدِّقُ فِيهَا أَوَّلِي أَمرَ آخِرِي
وَلَكِن عَجِيبًا أَنَّ بَينَ جَوَانِحِي ... هَوًى كَشَرَارِ الجَمرَةِ المُتَطَايِرِ
يُحَرِّكُنِي وَالمَوتُ يَحفِزُ مُهجَتِي ... وَيَهتَاجُنِي وَالنَّفسُ عِندَ حَنَاجِرِي[1]

---

(1) يُرَاجَعُ، تَارِيخُ الأَدَبِ الأَندَلُسِيِّ (عَصرُ سِيَادَةِ قُرطُبَة)، ١٣٨.
(2) نَفسُهُ.
(3) يُرَاجَعُ، دِرَاسَاتٌ أَندَلُسِيَّةٌ فِي الأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالفَلسَفَةِ، تَحقِيقُ: الطَّاهِر أَحمَد مَكِّي، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ط٣، ١٩٨٧م، ٢١٤.
(4) السَّابِقُ، ٢١٥.

Faculty of Arts, Arish University

يَستَهِلُّ ابنُ شُهَيدٍ قَصِيدَتَهُ بِالفِعلِ المَاضِي (تَأَمَّلتُ)، لِيُبَيِّنَ مَدَى تَأثُّرِهِ بِالمَاضِي، الَّذِي يَرَاهُ، وَكَأَنَّهُ مَرَّ كَلَمحِ البَصَرِ، فَيُعَبِّرُ عَمَّا أَصَابَهُ مِن حَيرَةٍ وَعَدَمِ استِقرَارٍ فِي أَيَّامِهِ الأَخِيرَةِ، فَقَد تَعَرَّضَ لِكَثِيرٍ مِنَ الفِتَنِ وَالنَّكَبَاتِ، سُجِنَ ابنُ شُهَيدٍ مُدَّةً طَوِيلَةً، مِمَّا أَدَّى لِإِصَابَتِهِ بِمَرَضِ الفَالِجِ (الشَّلَلِ)، وَتَزَايَدَ عَلَيهِ، وَأُصِيبَ بِضِيقٍ فِي النَّفَسِ، مِمَّا كَانَ سَبَبًا فِي تَدَهوُرِ حَالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ.

يَتَأَمَّلُ ابنُ شُهَيدٍ مَا أَفضَت إِلَيهِ حَالُهُ فِي عِلَّتِهِ، فَيُحَاوِلُ أَن يُفلِتَ مِن آثَارِ هَذِهِ الصَّدمَةِ المُطبِقَةِ عَلَى شُعُورِهِ وَكِيَانِهِ، فَيُوَاجِهَهَا بِأَدَوَاتِهِ، وَأَلوَاحِهِ، وَوَسَائِلِهِ الفَنِّيَّةِ الخَاصَّةِ، وَهَكَذَا مَدَّ ذِهنَهُ إِلَى مَاضِيهِ، حَيثُ شَبَابُهُ وَنَعِيمُهُ وَتَقَلُّبُهُ فِي اللَّهوِ، فَيَرَى تَأَمُّلَهُ خَائِبًا وَبَصَرَهُ خَاسِئًا حَسِيرًا، إِذ وَلَّى كُلُّ شَيءٍ بِسُرعَةٍ، وَيَا لَيتَهُ لَم يَكُن وَلَّى، إِنَّهُ اشتَرَى الضَّلَالَةَ بِالهُدَى، فَمَا رَبِحَت صَفقَتُهُ، فَهُوَ يَأسَى جَزَعًا، لِأَنَّهُ قَدِ استَبدَلَ الَّذِي هُوَ أَدنَى بِالَّذِي هُوَ خَيرٌ، وَابنُ شُهَيدٍ الفَنَّانُ الَّذِي هَضَمَ يَنَابِيعَ الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّةِ نَرَاهُ يَتَّكِئُ عَلَى مَعَانِي القُرآنِ الكَرِيمِ، وَهُوَ فِي مَوقِفٍ مُتَفَجِّعٍ فِيهِ عَلَى ذَاتِهِ وَمَصِيرِهِ، فَيَستَحضِرُ الآيَةَ القُرآنِيَّةَ (كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨) [المُدَّثِّرُ]، لِيُقِرَّ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ الَّتِي تَنَاسَاهَا طَوَالَ عُمُرِهِ حَتَّى وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ، فَمَا أَشقَاهُ! إِذ لَا مَنفَذَ لَهُ إِلَّا مَا يُقَدِّمُهُ مِن عَمَلٍ صَالِحٍ فِي دُنيَاهُ، وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ؟ بَعدَ مَا اقتَرَفَهُ مِن آثَامٍ تُؤَرِّقُهُ اليَومَ وَتَقُضُّ مَضجَعَهُ، لِتُضِيفَ أَعبَاءً إِلَى أَعبَاءِ عِلَّتِهِ.

يُرِيدُ ابنُ شُهَيدٍ أَن يُعَبِّرَ عَمَّا يُعَانِيهِ مِن أَثَرِ النَّكَبَاتِ عَلَى نَفسِهِ، فَلَجَأَ إِلَى الشِّعرِ، مُتَأَمِّلًا تِلكَ الحَيَاةَ، مُتَذَكِّرًا شَرِيطَ حَيَاتِهِ كَامِلًا، مُتَحَسِّرًا عَلَى مَا انقَضَى مِن عُمُرِهِ دُونَ أَيِّ جَدوَى، وَعَلَى الرَّغمِ مِن عِلمِهِ أَنَّهُ مَهمَا طَالَ العُمُرُ لَا بُدَّ مِنَ المَوتِ، فَإِنَّ النَّفسَ البَشَرِيَّةَ دَائِمًا تَمِيلُ إِلَى الكَسَلِ. إِنَّ القَبرَ هُوَ نِهَايَةُ المَطَافِ لِكُلِّ إِنسَانٍ، فَالمَوتُ لَا يَنظُرُ إِلَى أَلَمِ الأَحِبَّةِ، وَلَا يُعطِي بَالًا لِأَهلٍ وَلَا أَصحَابٍ، وَلَا يُفَرِّقُ بَينَ قَوِيٍّ وَضَعِيفٍ، إِنَّهُ قَضَاءٌ حَتمِيٌّ لَا مَفَرَّ، وَهَذَا التَّأَمُّلُ الوِجدَانِيُّ انبَثَقَ مِنَ الِاستِقرَارِ العَاطِفِيِّ الَّذِي يَعِيشُهُ الشَّاعِرُ، لَكِنَّهُ هُدُوءٌ وِجدَانِيٌّ مُؤَقَّتٌ.

اِنفَلَتَ ابنُ شُهَيدٍ مِن زَمَانِهِ فِي آخِرِ بَيتَينِ مِنَ القَصِيدَةِ، عِندَمَا كَشَفَ عَن حَيرَتِهِ، وَتَعَجُّبِهِ مِن مَشَاعِرِهِ المُذبَذَبَةِ، لِتَلَهُّفِهَا عَلَى المَلَذَّاتِ مَعَ مَرَضِهِ المُؤلِمِ، وَدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَيَدُلُّ وَصفُ ابنِ شُهَيدٍ لِهَوَاهُ الَّذِي يَغمُرُ نَفسَهُ بِشَرَارِ الجَمرَةِ المُتَطَايِرَةِ، عَلَى التَّنَازُلِ العَاطِفِيِّ ، مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ المَشَاعِرَ المُتَنَزِّهَةَ فِي مُعظَمِ أَبيَاتِ القَصِيدَةِ لَا تُوَافِقُ الأَحَاسِيسَ وَالمَشَاعِرَ الصَّادِقَةَ الَّتِي يَعِيشُهَا الشَّاعِرُ، فَقَد عَرَضَهَا لِيُخَفِّفَ بِهَا مَصَائِبَهُ، وَهُرُوبًا مِن وَاقِعِهِ الوِجدَانِيِّ، فَهُوَ فِي حَالَةٍ مِنَ الِاضطِرَابِ وَالقَلَقِ النَّفسِيِّ، بِسَبَبِ خَوفِهِ مِنَ المَوتِ، فَقَد شَكَّلَ عِندَهُ هَاجِسًا قَوِيًّا تُجَاهَهُ، لَقَد كَانَت رُؤيَتُهُ الدَّاتِيَّةُ تُجَاهَ الحَقِيقَةِ تَفِيضُ بِالحَسرَةِ عَلَى مَا انقَضَى مِن عُمُرِهِ، وَالخَوفِ مِمَّا هُوَ قَادِمٌ، جَعَلَنَا نَعِيشُ مَعَهُ تَجرِبَةَ الفَقدِ، فَأَذَاقَنَا قَسوَتَهَا كَمَا لَو كَانَ مَيتًا، رُبَّمَا كَانَ الشَّاعِرُ يُحِسُّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، لِذَا أَرَادَ أَن يَفتَقِدَ نَفسَهُ.

كَمَا نَجِدُ **ابنَ شُهَيدٍ** الأَندَلُسِيَّ لَا تَخلُو مَوضُوعَاتُهُ الشِّعرِيَّةُ مِنَ الغُربَةِ، وَأَثَرِهَا المُؤلِمِ عَلَى الذَّاتِ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ وَهُوَ فِي غُربَتِهِ: [الطَّوِيلُ]

وَقَد شَاقَنِي الوُرقُ السَّوَاجِعُ بِالضُّحَىٰ ... وَمَن يَستَمِعُ دَاعِي الصَّبَابَةِ يَشتَاقِ

عَلَىٰ فَنَنٍ مِن أَيكَةٍ قَد تَعَلَّقَت ... بِحَبلِ النَّوَىٰ مِن قَلبِيَ المُتَعَلِّقِ

فَصَدَّقتُهَا فِي البَينِ مِن غَيرِ عَبرَةٍ ... وَكَم مِن كَثِيرِ الدَّمعِ غَيرِ مُصَدَّقِ[2]

يُصَوِّرُ ابنُ شُهَيدٍ وُقُوفَ الحَمَامِ عَلَى الأَغصَانِ، وَحُبَّهُ وَتَعَلُّقَهُ بِتِلكَ الأَغصَانِ، فَقَد حَرَّكَ ذَلِكَ أَشوَاقَهُ، وَشَبَّهَ هَذَا الحُبَّ بِالحِبَالِ الَّتِي تَمتَدُّ كُلَّمَا ابتَعَدَت حَبِيبَتُهُ عَنهُ، حَتَّى إِنَّ نَوحَ هَذَا الحَمَامِ مَدعَاةٌ لِلتَّشَوُّقِ وَالحَنِينِ، وَهَذَا النَّوحُ هُوَ مَا يُجَدِّدُ حَنِينَهُ وَذِكرَيَاتِهِ، وَيُلَاحِظُ ابنُ شُهَيدٍ أَنَّ دُمُوعَ تِلكَ الطُّيُورِ، هِيَ أَصدَقُ عَلَى إِلفِهَا مِن دُمُوعِ الإِنسَانِ، مَعَ أَنَّهَا تَبكِي بِلَا دُمُوعٍ، لَكِنَّهَا صَادِقَةٌ كُلَّ الصِّدقِ، بِهَذَا المَشهَدِ الَّذِي صَنَعَهُ ابنُ شُهَيدٍ، أَقَامَ مُشَارَكَةً وِجدَانِيَّةً بَينَهُ وَبَينَ ذَلِكَ الحَمَامِ، مِمَّا يُبَيِّنُ صِدقَ عَاطِفَتِهِ، وَتَأَثُّرِهِ بِهَذَا المَشهَدِ الَّذِي حَرَّكَ بَوَاعِثَهُ وَشَوقَهُ المُتَلَهِّفَ.

فَابنُ شُهَيدٍ الَّذِي جُبِلَ عَلَى حَيَاةِ العَبَثِ وَالمُجُونِ، مَعَ مَا عُرِفَ عَنهُ مِن كَرَمٍ وَأَرِيحِيَّةٍ وَفِطنَةٍ وَسُرعَةِ بَدِيهَةٍ، لَيسَ بِوُسعِهِ أَن يَنسَى كُلَّ ذَلِكَ الَّذِي تَجَذَّرَ فِي مُيُولِهِ وَظَهَرَ فِي فَنِّهِ الأَدَبِيِّ شِعرًا وَنَثرًا، لِذَا صِرنَا نَلمَحُ شِدَّةَ تَشَبُّثِهِ بِالحَيَاةِ[1].

---

[1] الدِّيوَانُ، ١١٣– ١١٤.
[2] السَّابِقُ، ١٣٣.

Faculty of Arts, Arish University

إِنَّ الشَّاعِرَ الحَقَّ هُوَ الَّذِي يَتَفَاعَلُ مَعَ تَجربَتِهِ، ويَهضِمُهَا، وَيُسَيطِرُ عَلَيهَا بِفِكرَتِهِ، و التَّجربَة الشِّعريَّة يَتَأَمَّلُهَا الشَّاعِرُ، لِيَنقُلَهَا إِلينَا نَقلًا فَنِّيًّا، وَيُقَدِّمَهَا تَقدِيمًا شِعرِيًّا، وَالشَّاعِرَ يُعَبِّرُ فِي تَجربَتِهِ عَمَّا فِي نَفسِهِ مِن صِرَاعٍ دَاخِلِيٍّ، سَوَاءٌ أَكَانَت تَعبِيرًا عَن حَالَاتِ نَفسِهِ هُوَ أم عَن مَوقِفٍ إِنسَانِيٍّ يُمَثِّلُهُ[2].

لَعَلَّ أَوَّلَ مَلمَحٍ فِي فَقدِ الذَّاتِ عِندَ ابنِ شُهَيدٍ هُوَ صِدقُ تَجربَتِهِ الشِّعرِيَّةِ، وَعُمقُ إِدرَاكِ الشَّاعِرِ لَهَا، وَصِدقُهَا مُنبَأَتٌ مِن صِدقِ وَاقِعِهِ المَرِير، المُتَمَثِّلِ بِمُعَانَاتِهِ لِعِلَّتِهِ الطَّوِيلَةِ، إِنَّهَا شُهُورٌ طِوَالٌ مِنَ العَذَابِ، إِذ لَا يَهدَأُ الدَّاءُ، وَلَا يَمسَحُ المَوتُ أَوجَاعَهُ، وَيَحضُرُنِي فِي هَذَا المَقَامِ، مَقَامُ صِدقِ التَّجربَةِ الَّذِي يُفضِي إِلَى صِدقِ العَاطِفَةِ وَنُبلِهَا[3].

مِنَ اللَّافِتِ لِلنَّظَرِ فِي تَجربَةِ ابنِ شُهَيدٍ فِي فَقدِ نَفسِهِ، مَعَ خَوفِهِ الشَّدِيدِ مِنَ المَوتِ، وَابتِلَاءَاتِهِ بِالأَوجَاعِ، كَمَا أَسلَفنَا، أَنَّهُ ظَلَّ مُتَمَاسِكًا، وَاعِيًا لِمَا يُحِيطُهُ، وَمِمَّا يُؤَيِّدُ هَذَا، أَنَّهُ أَرسَلَ نَفسَهُ عَلَى سَجِيَّتِهَا، وَجَاءَت مَعَانِيهِ مُنبَثِقَةً مِن مُيُولِهِ وَمَا جُبِلَ عَلَيهِ مِن حُبِّ الذَّاتِ وَالتَّغَنِّي بِأَيَّامِ لَهوِهِ مَعَ أَقرَانِهِ، بَيدَ أَنَّهُ وَاعٍ لِمَا اقتَرَفَهُ مِن آثَامٍ، لِذَا لَجَأَ إِلَى عَفوِ اللهِ طَالِبًا مَغفِرَتَهُ وَرِضوَانَهُ.

يَصِفُ **أَبُو بَكرٍ الزُّبَيدِيُّ** (٣١٦هـ– ٣٧٩هـ) مُعَانَاةَ الغُربَةِ وَالفِرَاقِ، وَهُوَ فِي غَزوَةٍ مِن غَزَوَاتِ الحَكَمِ المُستَنصِرِ، فَيُرسِلُ بِرِسَالَةٍ إِلَى جَارِيَتِهِ سَلمَى فَيَقُولُ: [المَدِيدُ]

وَيحَكِ يَا سَلمَ لَا تُرَاعِي ... لَا بُدَّ لِلبَينِ مِن زَمَاعِ

لَا تَحسَبِينِي صَبَرتُ إِلَّا ... أَشَدَّ مِن وَقفَةِ الوَدَاعِ

مَا بَينَنَا وَالحَمَامُ فَرقٌ ... لَولَا المَنَاحَاتُ وَالنَّوَاعِي[4]

يَلجَأُ الزُّبَيدِيُّ إِلَى الصَّبرِ فَيَدعُو حَبِيبَتَهُ لِتَتَحَلَّى، أَيضًا، بِالصَّبرِ، حَتَّى يَنتَهِيَ ذَلِكَ الفِرَاقُ، فَإِن لَم يَنتَهِ، فَسَيُصبِحُ حَالُهُ مِثلَ حَالِ المَيِّتِ، الَّذِي لَا يَستَطِيعُ فِعلَ أَيِّ شَيءٍ، سِوَى الِاستِسلَامِ لِلَّحَظَاتِ الأَخِيرَةِ، وَيَرَى حَالَهُ أَشَدَّ قَسوَةً مِن حَالِ المَيِّتِ نَفسِهِ، لِأَنَّ المَيِّتَ يَرتَاحُ بَعدَ مَوتِهِ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ فِي عَذَابٍ مُستَمِرٍّ، بِسَبَبِ الفِرَاقِ الَّذِي يَعِيشُهُ، وَالأَلَمِ الَّذِي لَا يَنقَطِعُ، وَيَزدَادُ أَلَمُهُ لِوَحدَتِهِ، لِأَنَّ المَيِّتَ يَجِدُ مَن يَبكِي عَلَيهِ، أَمَّا هُوَ فَلَا يَجِدُ حَتَّى النَّائِحَةَ المُستَأجَرَةَ تَبكِي عَلَيهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ عَذَابِ الفِرَاقِ.

هُنَاكَ مِنَ الشُّعَرَاءِ مَن غَدَرَ بِهِمُ الزَّمَنُ، وَأَصَابَهُمُ المَرَضُ، وَأَدرَكَتهُمُ الشَّيخُوخَةُ، فَيَتَمَنَّونَ المَوتَ، حَتَّى يَتَخَلَّصُوا مِن مَتَاعِبِ الدُّنيَا الزَّائِلَةِ، فَقَامُوا بِوَصفِ الحَيَاةِ، وَمَا بِهَا مِن مَتَاعِبَ، فَنَجِدُهُم يَصِفُونَ المَوتَ وَحَتمِيَّتَهُ عَلَى كُلِّ إِنسَانٍ، وَمِنهُم **(يَحيَى بنُ الحَكَمِ الجيَّانِيُّ)** (١٥٦هـ– ٢٥٠هـ)، الَّذِي غَدَرَت بِهِ الحَيَاةُ وَسَرَقَت مِنهُ أَيَّامَهُ الهَنِيئَةَ، وَجَعَلَتهُ يَتَمَنَّى المَوتَ كُلَّ لَحظَةٍ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ: [مَجزُوءُ الوَافِرِ]

لَقَد فَسَدَت فَمَا تَلقَى ... بِهَا مَن لَيسَ ذَا شَجَنِ

وَصَارَ الحَيُّ مِنَّا يَغ ... بِطُ المَلفُوفَ فِي الكَفَنِ![5]

يَتَحَدَّثُ الجيَّانِيُّ فِي هَذَينِ البَيتَينِ عَنِ الحَيَاةِ وَقَسوَتِهَا، وَمَا حَلَّ بِهَا مِن فَسَادٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الحَيَّ يَتَمَنَّى لَو أَصبَحَ مَيِّتًا، لِيَنعَمَ بِالرَّاحَةِ كَمَا يَعتَقِدُ، وَمِن ضَعفِ بَصَرِهِ، صَارَ يَرَى النَّاسَ كَالأَشبَاحِ، فَلَا أَحَدَ يُصبِحُ مَوضِعَ ثِقَةٍ، وَلَا أَحَدَ يُؤتَمَنُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ اليَومِ، نُلَاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ تَعَرَّضَ لِضُغُوطَاتٍ كَبِيرَةٍ فِي الحَيَاةِ، فَجَعَلَت مِنهُ إِنسَانًا لَا يَعرِفُ مَعنَى الأُنسِ، وَهَكَذَا هِيَ الحَيَاةُ تُقَرِّبُنَا مِنَ الَّذِي يَبعُدُ عَنَّا، وَتُبعِدُنَا عَمَّا نُرِيدُ التَّقَرُّبَ مِنهُ.

وَتَتَصَاعَدُ أَنفَاسُ **الجيَّانِيِّ** الأَخِيرَةُ، بَعدَمَا عَلَّمَتهُ الدُّنيَا دَرسًا لَيسَ سَهلًا، حَيثُ جَعَلَت مِنهُ إِنسَانًا فَاقِدًا لِلأُنسِ، فَيَنقُلُ لَنَا تَجَارِبَهُ فِي الحَيَاةِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

أَلَستَ تَرَى أَنَّ الزَّمَانَ طَوَانِي ... وَبَدَّلَ خَلقِي كُلَّهُ وَبَرَانِي؟

تَحَيَّفَنِي عُضوًا فَعُضوًا فَلَم يَدَع ... سِوَى اسمِي صَحِيحًا وَحدَهُ وَلِسَانِي

---

[1] يُرَاجَعُ، مَطمَعُ الأَنفُسِ وَمَسرَحُ التَّأَنُّسِ، 98/1.

[2] يُرَاجَعُ، النَّقدُ الأَدَبِيُّ الحَدِيثُ، مُحَمَّد غُنيمِي هِلَال، القَاهِرَةُ، دَارُ نَهضَةِ مِصر، ١٩٩٧م، ٣٨٤.

[3] يُرَاجَعُ، البَيَانُ وَالتَّبيين، الجَاحِظُ (ت255ه)، تَحقِيقُ: عَبدِ السَّلَام مُحَمَّد هَارُون، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الخَانجي، ط٤، 1423ه، ٣٢٠/٢.

[4] جَذوَةُ المُقتَبَس، ٧٤.

[5] دِيوَانُ يَحيَى بن الحَكَمِ الجَيَّانِيِّ، تَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَة، 1413ه/1993م، ٧٧.

Faculty of Arts, Arish University

وَلَو كَانَتِ الأسمَاءُ يَدخُلُهَا البِلَى ... لَقَد بَلِيَ اسمِي لِامتِدَادِ زَمَانِي!

إذَا عَنَّ لِي شَخصٌ تَخَيَّلَ دُونَهُ ... شَبِيهُ ضَبَابٍ أو شَبِيهُ دُخَانِ![1]

يَنقُلُ الشَّاعِرُ خِبرَتِهِ بِالحَيَاةِ، لَقَد عَاصَرَ مَوَاقِفَ كَثِيرَةً تَقتَرِبُ مِنَ القَرن، فَهُوَ عَلَى دِرَايَةٍ عَالِيَةٍ بِمُشكِلَاتِ الحَيَاةِ، فَكُلُّ شَيءٍ فِيهَا زَائِلٌ، وَكُلُّ جَمَالٍ نِهَايَتُهُ التُّرَابُ. وَيُبدِعُ الشَّاعِرُ فِي تَصوِيرِ اسمِهِ بِالجَسَدِ الَّذِي يَبلَى، وَيَقُولُ: إنَّ الأسمَاءَ إذَا أتَاهَا البِلَى، لَفَنِيتْ مِن زَمَنٍ، لِطُولِ زَمَانِهِ، فَعَلَى الإنسَانِ أن يَتَّعِظَ، وَيَعلَمَ أنَّ المَوتَ آتٍ لَا مَحَالَةَ، فَقَد حَوَّلَهُ الزَّمَنُ، وَبَدَّلَ حَالَهُ، حَتَّى أصبَحَ يَرَى النَّاسَ وَكَأنَّهَا أشبَاحٌ، لِضَعفِ بَصَرِهِ، فَيَرَى صُوَرًا مُشَوَّشَةً لَا يَعلَمُ تَفَاصِيلَهَا.

يَصِفُ **يَحيَى بنُ الحَكَمِ الجَيَّانِيُّ** مَوقِفَ الأغنِيَاءِ وَغَفلَتَهُم فِي الحَيَاةِ، وَمَا يُلَاقُونَهُ بَعدَ المَوتِ، وَمَا يُملِيهِ عَلَيهِم ضَمِيرُهُم، فَيَقُولُ: [الوَافِرُ]

أرَى أهلَ اليَسَارِ إذَا تُوُفُّوا ... بَنَوْا تِلكَ المَقَابِرَ بِالصُّخُورِ

أبَوْا إلَّا مُبَاهَاةً وَفَخرًا ... عَلَى الفُقَرَاءِ حَتَّى فِي القُبُورِ!

فَإن يَكُنِ التَّفَاضُلُ فِي ذُرَاهَا ... فَإنَّ العَدلَ فِيهَا فِي القُعُورِ

رَضِيتُ بِمَن تَأنَّقَ فِي بِنَاءٍ ... فَبَالَغَ فِيهِ تَصرِيفَ الأمُورِ

ألَمَّا يُبصِرُوا مَا خَرَّبَتهُ الدُّهُورُ مِنَ المَدَائِنِ وَالقُصُورِ

لَعَمرُ أبِيهِمُ لَو أبصَرُوهُم ... لَمَا عُرِفَ الغَنِيُّ مِنَ الفَقِيرِ

وَلَا عَرَفُوا العَبِيدَ مِنَ المَوَالِي ... وَلَا عَرَفُوا الإنَاثَ مِنَ الذُّكُورِ وَلَا مَن كَانَ يَلبَسُ ثَوبَ صُوفٍ ... مِنَ البَدَنِ المُبَاشِرِ لِلحَرِيرِ

إذَا أكَلَ الثَّرَى هَذَا وَهَذَا ... فَمَا فَضلُ الكَبِيرِ عَلَى الحَقِيرِ؟![2]

يَفقِدُ الشَّاعِرُ الشَّغَفَ بِكُلِّ شَيءٍ، وَلَا يَستَعِدُّ لِشَيءٍ إلَّا لِلمَوتِ الَّذِي هُم يَخَافُونَهُ، وَلَا يَعمَلُونَ لَهُ حِسَابًا، وَكَأنَّهُم مُخَلَّدُونَ فِي هَذِهِ الدُّنيَا، فَيَصِفُ لَنَا الشَّاعِرُ مَوقِفَ الأغنِيَاءِ مِنَ المَوتِ وَالحِسَابِ، فَنَجِدُهُم مَا زَالُوا يُفَرِّقُونَ بَينَهُم وَبَينَ الفَقِيرِ، فَيُحسِنُونَ بِنَاءَ مَقَابِرِهِم، وَيُعلُونَ فِي بِنَائِهَا وَزَخَارِفِهَا، وَلَا يُدرِكُونَ أنَّ العِبرَةَ فِي المَوتِ نَفسِهِ، بَل فِي قَعرِ القَبرِ، فَالدُّنيَا هِيَ دَارُ مَمَرٍّ لَا دَارُ مَقَرٍّ، وَقَد قَالَ اللهُ ﷺ: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ٨٣) [القَصَصُ]، وَلَكِنَّنَا نَجِدُهُم يُعلُونَ قُصُورَهُم، وَكَأنَّهُم يَعِيشُونَ أبَدًا، وَنُعَبِّرُ عَن تِلكَ النَّظرَةِ مِن نَاحِيَةِ الشَّاعِرِ، فَنَجِدُهَا نَظرَةً مُتَشَائِمَةً، بِسَبَبِ الحَالَةِ النَّفسِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا، فَهُوَ فِي صِرَاعٍ دَائِمٍ بَينَ حَتمِيَّةِ المَوتِ، وَمَا بَعدَهُ مِن حِسَابٍ وَعِقَابٍ، وَبَينَ الدُّنيَا بِمَتَاعِهَا وَمَبَاهِجِهَا الفَانِيَةِ، وَيَستَشعِرُ الشَّاعِرُ نَفسَهُ، فَيَجِدُهَا فِي حَالَةٍ مِنَ التَّنَاقُضِ، مِمَّا يَنعَكِسُ عَلَى نَظرَتِهِ تُجَاهَ النَّاسِ، وَعَن حَيَاتِهِمُ الَّتِي لَا يَحكُمُهَا أيُّ نَوعٍ مِنَ الجِدِّيَّةِ، أوِ الخَوفُ مِنَ الجَلِيلِ.

يَبغَتُ الشَّيبُ **يَحيَى بنَ الحَكَمِ الجَيَّانِيَّ**، الَّذِي يَرَى أنَّ زَهرَةَ الأفهَامِ وَالألبَابِ تَذهَبُ بِالمَشِيبِ، فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

بَكَرَت تُحَسِّنُ لِي سَوَادَ خِضَابِي ... فَكَأنَّ ذَاكَ أعَادَنِي لِشَبَابِي

مَا الشَّيبُ عِندِي وَالخِضَابُ لِوَاصِفٍ ... إلَّا كَشَمسٍ جُلِّلَت بِضَبَابِ

تَخفَى قَلِيلًا ثُمَّ يَقشَعُهَا الصَّبَا ... فَيَصِيرُ مَا سُتِرَت بِهِ لِذَهَابِ لَا تُنكِرِي وَضَحَ المَشِيبِ فَإنَّمَا ... هُوَ زَهرَةُ الأفهَامِ وَالألبَابِ

فَلَدَيَّ مَا تَهوَينَ مِن شَأنِ الصِّبَا ... وَطَلَاوَةِ الأخلَاقِ وَالآدَابِ[3]

---

[1] السَّابِقُ، ٧٩.
[2] الدِّيوَانُ، ٦١.
[3] السَّابِقُ، ٣٨- 39.

Faculty of Arts, Arish University

يَضطَرُّ الشَّاعِرُ إِلَى خِضَابِ شَعرِهِ، حَتَّى يُوهِمَ نَفسَهُ بِهَذَا السَّوَادِ المُستَعَارِ، وَأَنَّ الشَّيبَ بِذَلِكَ قَد رَاحَ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ الشَّبَابُ، فَيَتَّضِحُ لَنَا مُعَانَاةُ الذَّاتِ مَعَ هَذَا الشَّيبِ، وَمَا أَحدَثَهُ فِي نَفسِ الشَّاعِرِ مِنَ اضطِرَابٍ نَفسِيٍّ، مِمَّا جَعَلَهُ يَلجَأُ إِلَى خِضَابِ الشَّعرِ، وَعَلَى الرَّغمِ مِن مَعرِفَةِ الشَّاعِرِ بِحَقِيقَةِ نَفسِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ أَن يَرَى نَفسَهُ عَلَى هَذَا الحَالِ، فَهُوَ يَعلَمُ أَنَّ الخِضَابَ لَن يُزِيلَ آثَارَ الشَّيبِ، بَل يُخفِيهِ إِلَى حَدٍّ مَا، كَالشَّمسِ الَّتِي تَختَفِي خَلفَ السَّحَابِ، لَقَد أَحسَنَ الشَّاعِرُ الوَصفَ، وَلَا يُنكِرُ الجَيَّانِيُّ أَنَّ لِلشَّيبِ وَقَارًا، فَكَمَا لِلشَّبَابِ مَحَاسِنُ، فَالشَّيبُ مِثلُ ذَلِكَ.

نُلَاحِظُ اختِلَافَ نَظرَةِ الشَّاعِرِ لِلشَّيبِ عَن ذِي قَبلُ، لِيُصبِحَ مُحَبَّبًا لَدَيهِ، وَفِي الحَقِيقَةِ يَظَلُّ الإِنسَانُ فِي مَرحَلَةِ نُمُوٍّ عَقلِيٍّ، حَتَّى يَبلُغَ سِنَّ الأَربَعِينَ، لَقَد قَالَ اللهُ ﷻ: (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ١٥) [الأحقَافُ].

يُعَانِي **ابنُ عَبدِ رَبِّهِ** أَلَمَ الفِرَاقِ، فَيَصِفُ حَالَهُ المُعَذَّبَةَ، وَنَفسَهُ المَقهُورَةَ، فَالأَلَمُ لَيسَ نَفسِيًّا فَقَط، إِنَّمَا هُوَ جَسَدِيٌّ، أَيضًا، وَمِنَ المَعلُومِ أَنَّ الأَلَمَ مِنَ الفِرَاقِ يَكُونُ نَفسِيًّا أَوَّلًا ثُمَّ جَسَدِيًّا، وَهَذَا مَا حَدَثَ بِالفِعلِ، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

أَقُولُ لِقَلبِي كُلَّمَا ضَامَهُ[1] الأَسَىٰ ... إِذَا مَا أَبَيتَ العِزَّ فَاصبِر عَلَىٰ الذُّلِّ

بِرَأيِكَ لَا رَأيِي تَعَرَّضتُ لِلهَوَىٰ ... وَأَمرِكَ لَا أَمرِي وَفِعلِكَ لَا فِعلِي

وَجَدتُ الهَوَىٰ نَصلًا مِنَ المَوتِ مُغمَدًا ... فَجَرَّدتُهُ ثُمَّ اتَّكَأتُ عَلَىٰ النَّصلِ!

فَإِن كُنتُ مَقتُولًا عَلَىٰ غَيرِ رِيبَةٍ ... فَأَنتِ الَّتِي عَرَّضتِ نَفسِيَ لِلقَتلِ![2]

يَصنَعُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ خِطَابًا تَتَجَلَّى فِيهِ مُعَانَاةُ الذَّاتِ، فَيُبَيِّنُ لَنَا قَلبَهُ المُعَذَّبَ الَّذِي يَشعُرُ بِهِ بِسَبَبِ هُجرَانِ المَحبُوبَةِ لَهُ، وَهَذَا مَا يَجعَلُهُ يَشعُرُ بِالذُّلِّ، وَنُلَاحِظُ استِخدَامَ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ لِأُسلُوبِ الخِطَابِ، لِكَي يُعَبِّرَ عَن شَوقِهِ لِمَحبُوبَتِهِ، مِمَّا أَكسَبَ هَذَا الأُسلُوبَ سُهُولَةً فِي المَعنَى، وَقُربًا لِلصُّورَةِ، وَأَعطَى لِلمَعَانِي رِقَّةً وَعُمقًا، وَلَا يُنكِرُ أَنَّ الشَّوقَ، أَيضًا، مُؤَدَّاهُ إِلَى المَوتِ، فَسَتَكُونُ نِهَايَتُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ العِشقِ، الَّذِي لَا طَائِلَ مِنهُ سِوَى الحَسرَةِ وَالأَلَمِ، وَيَعتَرِفُ فِي الشَّطرِ الأَخِيرِ الَّذِي قَالَ فِيهِ: (فَأَنتِ الَّتِي عَرَّضتِ نَفسِيَ لِلقَتلِ!)، أَنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي مُعَانَاةِ الذَّاتِ، لِخُضُوعِهِ لِذَلِكَ الحُبِّ المَشؤُومِ.

وَمَا يُمَيِّزُ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ أَنَّهُ يَقُومُ بِتَصوِيرِ الحَيَاةِ بِدَايَةً مِنَ الشَّبَابِ، وَانتِهَاءً بِالمَشِيبِ، فَقَد عَاشَ عُمرًا طَوِيلًا قَضَى فِيهِ جُزءًا كَبِيرًا مِنهُ فِي اللَّهوِ، وَلَكِن حِينَمَا حَلَّ عَلَيهِ الشَّيبُ، أَنَابَ وَتَابَ إِلَى اللهِ ﷻ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ: [الكَامِلُ]

وَلَّى الشَّبَابُ وَكُنتَ تَسكُنُ ظِلَّهُ ... فَانظُر لِنَفسِكَ أَيَّ ظِلٍّ تَسكُنُ؟

وَنَهَى المَشِيبُ عَنِ الصِّبَا لَو أَنَّهُ ... يُدلِي بِحُجَّتِهِ إِلَىٰ مَن يَلقَنُ![3]

يَتَحَسَّرُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ عَلَى أَيَّامِ الشَّبَابِ، فَيَندُبُ أَيَّامَهُ وَلَيَالِيَهُ الهَنِيئَةَ، مُتَذَكِّرًا تِلكَ المَرحَلَةَ العُمُرِيَّةَ (الشَّبَابَ) بِتَفَاصِيلِهَا، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ حُبِّهِ لِتِلكَ الفَترَةِ، وَاليَومَ يَعِيشُ حَيَاةً كُلُّهَا أَلَمٌ وَيَأسٌ، لَا يَدرِي مَتَى تَنتَهِي، نُلَاحِظُ استِخدَامَ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ لِلَفظَةِ (**ظِلَّهُ**)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى رَاحَةِ أَيَّامِ الشَّبَابِ، مُقَارَنَةً بِمَا يُلَاقِيهِ مِن أَلَمٍ فِي كِبَرِهِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ بِالحَدِيثِ مَعَ نَفسِهِ فَيَقُولُ: الآنَ أَصبَحتُ وَحِيدًا لَا أَنِيسٌ وَلَا جَلِيسٌ، وَلَا حَتَّى رَاحَةٌ، فَلَم يَعُدِ الظِّلُّ وَلَم يَعُدِ الأَحِبَّةُ، مِمَّا يُوَضِّحُ الغَيرَةَ الَّتِي تَغمُرُ الشَّاعِرَ، وَعَدَمَ الاستِقرَارِ، وَاستَخدَمَ الفِعلَ (**نَهَى**) مَعَ الشَّيبِ، يُوحِي بِقُوَّةِ وَهَيمَنَةِ تِلكَ المَرحَلَةِ فِي مَنعِهِ مِنَ القِيَامِ بِمَا كَانَ يَفعَلُهُ فِي شَبَابِهِ، فَإِنَّهُ يَسترسِلُ فِي صَبَوَاتِهِ، وَجَاءَ لَفظُ (**اللَّقن**)، دَلَالَةً عَلَى سُرعَةِ الفَهمِ، نَخرُجُ مِن ذَلِكَ بِأَنَّ المَشِيبَ هُوَ الوَاعِظُ الرَّئِيسُ فِي حَيَاةِ شَاعِرِنَا، فَلَولَاهُ، مَا تَابَ إِلَى اللهِ ﷻ.

وَيَصِفُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ حَالَ المَشِيبِ وَقُدُومَهُ عَلَيهِ وَمَا يُصَاحِبُهُ مِن رَحِيلٍ وَفَنَاءٍ، فَيَقُولُ: [البَسِيطُ]

أَطلَالُ لَهوُكَ قَد أَقوَت مَعَانِيهَا ... لَم يَبقَ مِن عَهدِهَا إِلَّا أَثَافِيهَا[1]

---

[1] ضَامَهُ: ظَلَمَهُ وَقَهَرَهُ، لِسَانُ العَرَبِ.
[2] الدِّيوَانُ، ١٣٣.
[3] السَّابِقُ، ١٧٠.

Faculty of Arts, Arish University

هَـذِي المَفَارِقُ قَـدْ قامَـت شَوَاهِدُهَا عَلَـى فَنَائِـكَ وَالدُّنيَـا تُزَكِّيهَـا

الشَّيْـبُ سُفْتَجَـةٌ فِيهَـا مُعَنونَـةٌ لَـمْ يَبْـقَ لِلمَـوتِ إلَّا أن يُسَجِّيهَـا![2]

تَتَّضِحُ مَعَالِمُ الذَّاتِ المُثقَلَةِ بِالهُمُومِ، حَيثُ أَصبَحَ ابنُ عَبدِ ربِّهِ عَلَى مَشَارفِ الشَّيبِ، كَالأَطلَالِ البَالِيَةِ الَّتِي لَا تَجلِبُ إلَّا الذِّكرَيَاتِ الحَزِينَةَ المُؤلِمَةَ، فَنُلَاحِظُ أَنَّ الأبيَاتَ تَحمِلُ نَغمَةً حَزِينَةً، وَذَلِكَ بِسَبَبِ حُلُولِ الشَّيبِ، وَيَعلمُ أَنَّ مَا بَعدَهُ الرَّحِيلُ مِنَ الدُّنيَا، وَارتَبَطَ الشَّيبُ عِندَهُ بِاللَّهوِ وَالعَبَثِ، وَانطِفَاءِ شَرَارَةِ الهَوَى، فَيَقُولُ: [مَجزُوءُ الكَامِلِ]

أطفَـئَت شَـرَارَةُ لَهـوِي وَلَـوَت بِشِـدَّةِ عَـدوِي

شُعَـلٌ عَلَـونَ مَفَارِقِـي وَمَضَـت بِبَهجَـةِ سَـروِي

لَمَّـا سَلَكـتُ عَرُوضَهَـا ذَهَـبَ الزِّحَـافُ بِحَـذوِي

"يَـا أَيُّهَـا الشَّـادِي صَـهٍ لَيسَـت بِسَـاعَـةِ شَـدوِي"![3]

يَعتَرِفُ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ، بِأَنَّهُ قَضَى شَطرًا مِن حَيَاتِهِ فِي اللَّهوِ الَّذِي انطَفَأت شَرَارَتُهُ، بِمَا عَلَا رَأسَهُ مِن شَيبٍ، وَيُبَيِّنُ مَدَى حُزنِهِ عَلَى انقِضَاءِ الشَّبَابِ، وَذَلِكَ فِي النِّدَاءِ مِنَ البَيتِ الأخِيرِ بِإيقَافِ الشَّادِي عَنِ الشَّدوِ، إيذَانًا بِبَدءِ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَنُلَاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ رَأى أَنَّهُ لَا مَفَرَّ مِنَ المَشِيبِ، فَلَا بُدَّ مِنَ الاستِسلَامِ، لِذَلِكَ جَاءَت أبيَاتُهُ مَجزُوءَةً، **كَمَا يُشِيرُ الزِّحَافُ** الَّذِي أَصَابَ الأبيَاتَ إِلَى زِحَافِ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ لِلآخِرَةِ، مِمَّا يُعطِي جَمَالًا مُتَوَازِنًا بَينَ البَلَاغَةِ وَالوَاقِعِ المُؤلِمِ الَّذِي يَعِيشُهُ.

يُعَدُّ الشَّيبُ عِندَ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ ثَوبًا جَدِيدًا، حَيثُ يُجَرِّدُ المَرءَ مِنَ الثَّوبِ المُعَارِ، المُتَمَثِّلِ فِي الشَّبَابِ، فَيَقُولُ: [الوَافِرُ]

بَـدَا وَضَـحُ المَشِيـبِ عَلَى عِذَارِي وَهَـل لَيـلٌ يَكُـونُ بِـلَا نَهَـارِ؟

وَأَلبَسَنِـي النُّهَـى ثَوبًـا جَدِيـدًا وَجَرَّدَنِـي مِـنَ الثَّـوبِ المُعَـارِ

شَرِبـتُ سَـوَادَ ذَا بِبَيَـاضِ هَذَا فَبُدِّلـتُ العِمَامَـةَ بِالخِمَـارِ

وَمَـا بِعـتُ الهَـوَى بَيعًـا بِشَـرطٍ وَلَا استَثنَيـتُ فِيـهِ بِالخِيَـارِ[4]

يَعتَرِفُ الشَّاعِرُ بِظُهُورِ الشَّيبِ عَلَى وَجهِهِ، لَقَد صَوَّرَ شَيبَهُ وَشَبَابَهُ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ، فَشَبَّهَ المَشِيبَ بِالنَّهَارِ، وَالشَّبَابَ بِاللَّيلِ، وَنُلَاحِظُ تَقدِيمَهُ اللَّيلَ عَلَى النَّهَارِ ، لِتَعَلُّقِهِ بِتِلكَ الفَترَةِ وَفُقدَانِهِ إِيَّاهَا، فَكَانَ مِنَ الأليَقِ أن يُشَبِّهَ الشَّبَابَ بِالنَّهَارِ، لِنُورِهِ وَحَرَكَتِهِ المُستَمِرَّةِ، فَإِنَّنَا نَعتَقِدُ أَنَّهُ فَضَّلَ اللَّيلَ لِلشَّبَابِ، لِهُدُوئِهِ وَرَاحَتِهِ، **وَفِي رَأيِي المُوجَز**، أَنَّ ابنَ عَبدِ رَبِّهِ اتَّخَذَ هَذَا المَسلَكَ فِي التَّرتِيبِ، لِيَتَمَاشَى مَعَ تَرتِيبِ الآيَاتِ القُرآنِيَّةِ (وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١) [النَّبَأ]، أي إِنَّ اليَومَ يَبدَأُ لَيلًا وَيَنتَهِي نَهَارًا، وَيَتَذَكَّرُ أَيَّامَ شَبَابِهِ، وَاصِفًا حَالَهُ فِي الشَّبَابِ، فَيَقُولُ: "لَقَد استَشفَت عِمَامَتِي السَّودَاءُ بِالتَّعَرُّقِ"[5]، وَلَا تَتَعَرَّقُ العِمَامَةُ إِلَّا إِذَا كَانَ نِتَاجًا عَنِ العَمَلِ وَالجُهدِ، فَنُلَاحِظُ هُنَا تَنَاقُضًا فِي قَولِ الشَّاعِرِ حِينَمَا خَصَّ اللَّيلَ بِالشَّبَابِ لِرَاحَتِهِ، وَقَامَ بِتَصوِيرِ نَفسِهِ بِالجِدِّ وَالتَّعَبِ فِي النَّهَارِ، **وَفِي رَأيِي المُوجَز**، قَد يَكُونُ الشَّاعِرُ قَصَدَ أَسبَابَ هَذَا التَّعَرُّقِ نَتِيجَةَ لَهوِهِ فِي شَبَابِهِ، فَالشَّبَابُ كُلُّهُ حَرَكَةٌ، وَخَصَّ الشَّاعِرُ العِمَامَةَ بِالسَّوَادِ، لِأَنَّ الفُقَهَاءَ آنَذَاكَ كَانُوا يَتَمَيَّزُونَ بِهَذَا اللَّونِ، وَالآنَ أَصبَحَ حَالُهُ مُتَبَدِّلًا، بَعدَ أن لَحِقَهُ الشَّيبُ، فَبَدَّلَ العِمَامَةَ السَّودَاءَ بِالخِمَارِ الأبيَضِ، الَّذِي يَحمِلُ دَلَالَةَ الشَّيبِ، وَاستِخدَامُهُ لَفظَةَ (**بُدِّلْتُ**)، لِتَحَوُّلِ حَالِهِ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الشَّيبِ، وَتَخَلِّيهِ عَنِ الحُبِّ مُجبَرًا، فَيَقُولُ فِي غَدرِ الزَّمَانِ، وَتَحَوُّلِهِ مِن حَالٍ إِلَى حَالٍ: [الكَامِلُ]

حَـالَ الزَّمَـانُ فَبَـدَّلَ الآمَـالَا وَكَسَـا المَشِيـبُ مَفَارِقَـا وَقَـذَالَا

(1) الأَثَافِيُّ: مُفرَدُ الآثِفَةِ، وَهُوَ الحَجَرُ الَّذِي تُوضَعُ عَلَيهِ القِدرُ، يُرَاجَعُ، لِسَانُ العَرَبِ، مَادَّةُ (أ ث ف).

(2) الدِّيوَانُ، ١٧٢.

(3) السَّابِقُ، ١٧٥.

(4) السَّابِقُ، ٧٨- ٧٩.

(5) السَّابِقُ، ٧٩.

Faculty of Arts, Arish University

غَنِيَت غَوَانِي الحَيِّ عَنكَ، وَرُبَّمَا طَلَعَت عَلَيكَ أَكِلَّةً وَحِجَالا
أَضحَى عَلَيكَ حَلَالُهُنَّ مُحَرَّمًا وَلَقَد يَكُونُ حَرَامُهُنَّ حَلَالا!
إِنّ الكَوَاعِبَ إِن رَأَينَكَ طَاوِيًا وَصلَ الشَّبَابِ طَوَينَ عَنكَ وِصَالا
وَإِذَا دَعَونَكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِندَهُنَّ خَبَالا![1]

يَستَهِلُّ ابنُ عَبدِ رَبِّهِ أَبيَاتَهُ بِالتَّفَجُّعِ عَلَى أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ الرَّاحِلَةِ، فَأَصبَحَ غَيرَ مَرغُوبٍ فِيهِ مِن بَعدِ حُلُولِ الشَّيبِ الَّذِي حَلَّ بِرَأسِهِ، فَأَثَارَ نُفُورَ النِّسَاءِ، لَقَد كَانَ فِي شَبَابِهِ حِينَمَا يَمشِي فِي الحَيِّ يَلفِتُ انتِبَاهَ النِّسَاءِ، وَاستِخدَامُ الشَّاعِرِ لَفظَ (**الكَاعِب**)، دَلِيلٌ عَلَى شِدَّةِ تَمَلُّكِهِ مِنَ المُعجَبِينَ، فَلَيسَ فَقَط يَلفِتُ انتِبَاهَ الأُنثَى البِكرِ أَو المُتَزَوِّجَةِ، بَل، أَيضًا، يَلفِتُ انتِبَاهَ البِنتِ الكَاعِبِ، (وَهِيَ الأُنثَى دُونَ العَشرِ سَنَوَاتٍ، أَي الَّتِي لَيسَ لَهَا صَدرٌ)، وَتَتَبَايَنُ ذِكرَيَاتُ لَهوِهِ وَمُجُونِهِ بَينَ الذَّاتِ وَأَسَفِهَا الشَّدِيدِ عَلَى مَا فَاتَ، كَمَا يُعَبِّرُ عَنِ الأَلَمِ النَّفسِيِّ، الَّذِي يَعِيشُهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ نُفُورَ النِّسَاءِ مِنهُ، فَلَم يَظُنَّ يَومًا أَنَّ القَدَرَ يَفعَلُ فِيهِ كُلَّ ذَلِكَ، وَلَكِن كَانَ هَذَا السَّبَبُ وَاعِظًا لَهُ، فَجَاءَت تَجرِبَةُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ صَرِيحَةً مُعَبِّرَةً عَن آلَامِهِ وَحُبِّهِ لِلنِّسَاءِ وَمَدَى تَأَثُّرِهِ لِفَقدِهِنَّ، وَشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِهِنَّ، حَتَّى بَعدَ شَيبِهِ.

يَرِدُ فِي الشَّيبِ، أَيضًا، قَولُ **مُحَمَّد القَحطَانِي** (ت٣٧٩هـ)، مِن عُلَمَاءِ الغِنَاءِ وَأَهلِ الصَّبوَةِ، فَيَقُولُ: [الخَفِيفُ]

إِنَّ شَيبًا وَصَبوَةً لَمُحَالُ قَد أَنَى أَن يَكُونَ عَنهَا زَوَالُ
رَكِبَ الشَّيبُ لِمَّتِي خَلَلَ الشَّعـ ـرِ لِوَقتٍ حَالَت بِهِ الأَحوَالُ فَدَعِ النَّفسَ عَن مِزَاحٍ وَلَهوٍ تِلكَ حَالٌ مَضَت وَجَاءَت حَالُ[2]

يُوَضِّحُ القَحطَانِيُّ أَنَّ الجَمعَ بَينَ الشَّيبِ وَالصَّبوَةِ أَمرٌ مُستَحِيلٌ، فَالشَّيبُ يُنذِرُ بِالرَّحِيلِ، وَيُصَاحِبُهُ زُهدٌ وَوَرَعٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا، أَمَّا الشَّبَابُ فَعَكسُ ذَلِكَ، ثُمَّ يَصِفُ نَفسَهُ الَّتِي تَمَلَّكَ مِنهَا الشَّيبُ، حَيثُ أَصبَحَ شَعرُهُ أَبيَضَ، وَلَم يَعُد لَهُ رَغبَةٌ فِي الحَيَاةِ، وَنَجِدُ القَحطَانِيَّ يَكُفُّ نَفسَهُ عَنِ اللَّهوِ وَالآثَامِ، وَيَنصَحُ نَفسَهُ مُحَدِّثًا إِيَّاهَا بِأَلَّا تَعُودَ إِلَى لَهوِهَا، فَسِنُّهُ لَم تَعُد مُنَاسِبَةً لِأَفعَالِ الشَّبَابِ.

يُؤَكِّدُ القَحطَانِيُّ عَلَى استِحَالَةِ الجَمعِ بَينَ الشَّيبِ وَالشَّبَابِ، وَتَتَجَلَّى المُعَانَاةُ الذَّاتِيَّةُ، حِينَمَا يُعَبِّرُ عَنِ التَّغَيُّرِ المُفَاجِئِ المُحزِنِ، فَقَد سَيطَرَ عَلَيهِ وَتَمَلَّكَ مِنهُ، وَكَأَنَّهُ أَصبَحَ مُقَيَّدًا لَا يَملِكُ السَّيطَرَةَ وَلَا حَتَّى الحُرِّيَّةَ الَّتِي كَانَ مُنَعَّمًا بِهَا حِينَ ذَاكَ.

يَصِفُ **يَحيَى بنُ هُذَيلٍ** (ت٣٨٩هـ) الشَّبَابَ وَمَا فِيهِ مِن تَبدِيلِ الحَالِ، فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

وَأَرَى بَقِيَّةَ مَفرِقِي قَد فَرَّقَت لِيُرَى بِهَا رِيشُ الغُرَابِ غَرِيبَا
كَالطَّيرِ لَمَّا فَاجَأَتهَا هَجمَةٌ لِلصَّقرِ فَرَّت فِي الجِهَاتِ هُرُوبَا
أَو كَافتِرَاقِ السَّفرِ فِي دَيمُومَةٍ لَم يَخرُجُوا مِن قَفرِهَا تَأوِيبَا
لَمَّا رَأَت شَعرِي تَغَيَّرَ لَونُهُ وَرَأَتهُ مُحتَجِبًا وَرَاءَ حِجَابِ
قَالَت: خَضَبتَ فَقُلتُ: شَيبِي إِنَّمَا لَبِسَ الحِدَادَ عَلَى ذَهَابِ شَبَابِي[3]

يُبرِزُ ابنُ هُذَيلٍ عَاطِفَةَ الحُزنِ الَّتِي تُسَيطِرُ عَلَيهِ، بِسَبَبِ هَذَا التَّغَيُّرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى حَيَاتِهِ، دُونَ أَن يُجَهِّزَ نَفسَهُ لَهُ، فَتَتَّضِحُ مَعَالِمُ التَّأَثُّرِ الذَّاتِيِّ، حِينَمَا لَاحَظَ بَيَاضَ الشَّعرِ فَجأَةً فِي رَأسِهِ، حَيثُ جَاءَ الشَّيبُ، لِيُفَرِّقَ وَيُغَيِّرَ كُلَّ شَيءٍ، وَذِكرُ الشَّاعِرِ لَفظَ (الغُرَابِ) يُوحِي بِالحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي هُوَ عَلَيهَا، فَالغُرَابُ هُوَ الطَّائِرُ الَّذِي يَتَشَاءَمُ مِنهُ العَرَبُ، لِذَا جَاءَ تَصوِيرُ الشَّاعِرِ مُعَبِّرًا عَن حَالَتِهِ النَّفسِيَّةِ، وَفِقدَانِهِ الذَّاتِيِّ الَّذِي يَمُرُّ بِهِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ الشَّاعِرُ إِلَى نَظرَةِ المَرأَةِ إِلَيهِ بَعدَ حُلُولِ الشَّيبِ فِي رَأسِهِ، وَهُوَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي حُزنِهِ، وَهَذَا الأَمرُ مِن أَكثَرِ الأُمُورِ الَّتِي تُحزِنُ الرَّجُلَ، وَتُشعِرُهُ بِعَدَمِ الرِّضَا، مِمَّا يُؤَثِّرُ سَلبًا عَلَى حَالَتِهِ

[1] السَّابِقُ، ٤٣.
[2] الحُلَّةُ السِّيَرَاءُ، ابنُ الأَبَّارِ، تَحقِيقُ: حُسَين مُؤنِس، القَاهِرَةُ، الشَّرِكَةُ العَرَبِيَّةُ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشرِ، ١٩٣٦م، ١٣٠/١.
[3] التَّشبِيهَاتُ مِن أَشعَارِ أَهلِ الأَندَلُس، ابنُ الكَتَّانِي (ت٤٢٠هـ)، تَحقِيقُ: إِحسَان عَبَّاس، القَاهِرَةُ، دَارُ الشُّرُوق، ط٢، ١٩٨١م، ٢٥٦.

Faculty of Arts, Arish University

النَّفسيَّةِ، ولَكِنَّ حَبيبَتَهُ كَانَت تُهَدِّئُ مِن حُزنِهِ، وتُوَاسِيهِ بحَدِيثِهَا الَّذِي كُلَّمَا يَسمَعُهُ يَشعُرُ وكَأَنَّهُ أَصبَحَ شَابًّا، وكَانَت، أيضًا، هِيَ السَّبَبَ وَرَاءَ تَغَيُّرِ لونِ الشَّيبِ، لِيُخَفِّفَ مِن حِدَّةِ أَلَمِهِ.

يُكثِرُ شُعَرَاءُ الأندلُسِ مِنَ التَّحَسُّرِ عَلَى الشَّبَابِ وَبُكَاءِ الشَّيبِ، وَذَلِكَ لِتَعَرُّضِهِم لِكَثِيرٍ مِنَ الِابتِلَاءَاتِ مِن فَقدِ الأحِبَّةِ، أو التَّعَرُّضِ لِلمَرَضِ، أو فَقدِ الوَطَنِ أو فَقدِ المَالِ، مِمَّا يَجعَلُهُم يَلجَؤُونَ إِلَى التَّنفِيسِ عَن أَروَاحِهِم، فَيَبُثُّونَ آلَامَهُم فِي تِلكَ القَصَائِدِ المكلُومَةِ، الَّتِي تَفِيضُ بِالذَّاتِيَّةِ، فكَانَت هَذِهِ الأَشعَارُ هِيَ مَظهَرًا مِن مَظَاهِرِ الذَّاتِيَّةِ، وَنَتِيجَةً لِكُلِّ البَوَاعِثِ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، الَّتِي أَخفَاهَا الشَّاعِرُ فِي حَدِيثِهِ، فَالشَّيبُ هُوَ مَرحَلَةٌ انتِقَالِيَّةٌ، يَنتَقِلُ فِيهَا الوَاحِدُ مِنَّا مِن حَيَاةِ اللَّهوِ (الشَّبَابِ)، إِلَى التَّقوَى وَالزُّهدِ وَالخُشُوعِ.

ويَفقِدُ شَاعِرُنَا **يُوسُفُ بنُ هَارُونَ الرَّمَادِيُّ** حَبِيبَتَهُ وَهُوَ فِي سِجنِهِ، وَذَلِكَ فِي عَهدِ الخَلِيفَةِ الحَكَمِ، حِينَمَا أَمَرَ بِالقَبضِ عَلَيهِ، بِسَبَبِ مَوقِفٍ لَم يُرضِ الخَلِيفَةَ، فَوَصَفَ ظُرُوفَ القَبضِ عَلَيهِ، وَاقتِيَادَهُ إِلَى سِجنِ الزَّهرَاءِ، مُقَيَّدًا بِالسَّلَاسِلِ، فَوَصَفَ الَّذِينَ حَزِنُوا عَلَيهِ، لِدَرَجَةِ أَنَّهُم شَقُّوا أَثوَابَهُم، فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

فَوَافَوا بِنَا الزَّهرَاءَ فِي حَالِ خَلَّةٍ   ثُلائِمُ لا استِيفَائِهِم فِي التَّوَثُّقِ

وَحَولِيَ مِن أَهلِ التَّأَدُّبِ مَأتَمٌ   وَلا جُؤذَرٌ إِلَّا بِثَوبٍ مُشَقَّقِ

فَلَو أَنَّ فِي عَينِي الحِمَامَ كَرُوضِهَا   وَإِن كَانَ فِي أَلوَانِهِ غَيرَ مُشفِقِ وَنَادَى حِمَامِي

مُهجَتِي لَتَغَافَلَت   فَهَلَّا أَجَابَت وَهوَ عِندِي كَبَخنَقِي

أَعَينِيَ إِن كَانَت لِدَمعِكِ فَضلَةٌ   تُثَبِّتُ صَبرِي سَاعَةً فَتَدَفَّقِي

فَلَو سَاعَدَت قَالَت: أَمِن قِلَّةِ الأَسَى   تَبَقَّت دُمُوعِي أَم مِنَ البَحرِ تَستَقِي[1]

يَدفَعُ الرَّمَادِيَّ وُجُودُهُ فِي السِّجنِ إِلَى المَيلِ لِتَذَكُّرِ حَبِيبَتِهِ، فَيَخلِطُ مَزِيجًا بَينَ **الحُبِّ وَالسَّجنِ**، فَسِجنُ الجَسَدِ يَمتَدُّ تَأثِيرُهُ إِلَى الرُّوحِ، حَيثُ تُسجَنُ فِيهِ المَشَاعِرُ وَالأَحَاسِيسُ، فَدَائِمًا تَمِيلُ النَّفسُ الإِنسَانِيَّةُ إِلَى مَن يُوَاسِيهَا، وَإِلَى مَن يُبَادِلُهَا الحُبَّ[2]، فَيَتَخَيَّلُ الشَّاعِرُ حَبِيبَتَهُ أَمَامَهُ، ويَطلُبُ مِنهَا المُسَاعَدَةَ، وَأَسَفَهَا عَلَيهِ، بَاكِيًا عَلَى نَفسِهِ مُتَأَثِّرًا، لِدَرَجَةِ أَنَّهُ مِن كَثرَةِ البُكَاءِ، نَفِدَ دَمعُ عَينَيهِ، وَلَم يَبقَ فِيهِمَا مَا يُؤَكِّدُ صَبرَهُ، وَتَبَادُلُهُ ذَلِكَ الأَلَمَ فَتَبكِي عَلَيهِ، أَيضًا، مُتَحَسِّرَةً شَدِيدَةَ الزَّفَرَاتِ وَالحُرَقِ، وَعَلَى الرَّغمِ مِنَ المُعَانَاةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الشَّاعِرُ، فَإِنَّهُ يَتَجَلَّدُ، وَيُحَاوِلُ أَن يَظهَرَ أَمَامَ حَبِيبَتِهِ شُجَاعًا، وَلَيسَ ذَلِكَ فَقَط، بَل عَلَيهِ، أَيضًا، أَن يُهَدِّئَ مِن رَوعِهَا وَخَوفِهَا عَلَيهِ، كَمَا يَلتَمِسُ لَهَا العُذرَ، لِجَهلِهَا بِعُلُومِ الحَيَاةِ، فَهِيَ لَم تُفَتِّش فِي طَبَائِعِ الدَّهرِ وَلَم تَدرِ عَنهَا شَيئًا.

يُعَانِي **يُوسُفُ بنُ هَارُونَ الرَّمَادِيُّ** الوَحدَةَ، فَلَا يَجِدُ مَا يَستَأنِسُ بِهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مُتَسَائِلًا: [الكَامِلُ]

أَحَمَامَةً فَوقَ الأَرَاكَةِ بَيِّنِي   بِحَيَاةِ مَن أَبكَاكِ مَا أَبكَاكِ؟

أَمَّا أَنَا فَبَكَيتُ مِن حُرَقِ الهَوَى   وَفِرَاقِ مَن أَهوَى أَأَنتِ كَذَاكِ؟![3]

يَلجَأُ الرَّمَادِيُّ إِلَى الطَّبِيعَةِ، مُتَّخِذًا مِنَ الحَمَامَةِ شَخصًا أَمَامَهُ يَسأَلُهُ عَن حَالِ مَحبُوبَتِهِ، وَيَنتَظِرُ مِنهَا الجَوَابَ، وَهُوَ يَعلَمُ سَبَبَ بُكَائِهَا.

مِن سُؤَالِ الرَّمَادِيِّ لِلحَمَامَةِ، نُلَاحِظُ وَحدَتَهُ، وَنَجِدُهُ يَذكُرُهَا بِلَفظِ **(مَن)**، وَهِيَ لِلعَاقِلِ، وَلَم يَقُل (مَا)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عُمقِ قَنَاعَتِهِ بِصِدقِ حَنِينِهَا، وَمِن ثَمَّ نُلَاحِظُ الِارتِبَاطَ بَينَ نَوحِ الحَمَامِ وَالشَّوقِ وَالحَنِينِ فِي نُفُوسِ الشُّعَرَاءِ، وَتَأَثُّرِ ذَوَاتِهِمُ الحَزِينَةِ بِالفِرَاقِ وَالغُربَةِ، فَالحَنِينُ وَالشَّوقُ عِندَهُم وَاحِدٌ، مِمَّا جَعَلَهُم يَصنَعُونَ مُشَارَكَةً وِجدَانِيَّةً، تَفِيضُ بِالذَّاتِيَّةِ بَينَ ذَلِكَ الطَّائِرِ الحَزِينِ فِي نَظَرِهِم، وَمَا يَشعُرُونَ، وَاستَطَاعَتِ الحَمَامَةُ أَن تَتَحَدَّثَ لِإِجَابَتِهِ، وَهَل يَشُقُّ فُؤَادَ العَاشِقِ إِلَّا الفِرَاقُ؟

ويُكثِرُ **ابنُ شُهَيدٍ** مِن وَصفِ يَومِ الفِرَاقِ، وَمَا فِيهِ مِن قَسوَةٍ فَيَقُولُ: [الطَّوِيلُ]

---

(1) الدِّيوَانُ، 92.
(2) قَضِيَّةُ السَّجنِ وَالحُرِّيَّةِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ، أَحمَد عَبد العَزِيز، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الأَنجلُو المِصرِيَّةُ، ١٩٩٠م، ١٠١/١.
(3) الدِّيوَانُ، ٩٧. الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أَهلِ الجَزِيرَةِ، ٣٤٧/٣.

Faculty of Arts, Arish University

بَكَـــــــــــىٰ أسَفَــــــــــــا لِلبَيـــــن يَـــومَ التَّفَـرُّق وَقَـــــــد هَوَّنَ التَّوديــعَ بَعــضُ الّـذِي لَقِـــي
وَمَـــــــا لِلّذِي ولَّـــىٰ بِــــــهِ البَيـــــنُ حَسرَةٌ بَكَيـــــتُ، ولَكِـــــن حَســـرَةً لِلَّـــــذِي بَقِــــــي
وَقَـــــد شَاقَنِي الوُرْقُ السَّوَاجِعُ بَالضُّحَـى وَمَــــــن يَستَمِــــع دَاعِـــي الصَّبَابَـــةِ يَشتَق
عَلَىٰ فَنَــــــنِ مِـــــــن أيكَــــةٍ قَــــــــد تَعَلَّقت بِحَبـــــــلِ النَّوَىٰ مِــــن قَلبِــــــيَ المُتَعَلَّـــق
فَصَدَّقتُهَـــا فِي البَينِ مِــــــــن غَيرِ عَبرَةٍ وَكَـــــم مِـن كَثِيــرِ الدَّمعِ غَيرُ مُصَدَّقِ(1)

يَستَهِلُّ ابنُ شُهَيدٍ أبيَاتَـهُ بَاكِيًا، مُستَخدِمًا الفِعلَ المَاضِـيَ، وَصُـورَةَ الحِوَارِ، حَيثُ جَعَلَ حَدِيثَـهُ عِبَـارَةً عَن مَشـهَدٍ لِحظَـةِ الفِرَاقِ، فَلَا يَرَى فِي البُعدِ سِوَى الحَسرَةِ، فَيَبكِيهَا!

يُصَوِّرُ الشَّاعِرُ مَشهَدَ الفِرَاقِ، وَالدُّمُوعُ تَنهَمِرُ مِن عَينَيهِ، لَيسَ عَلَى الَّذِي انقَضَى مِن عُمُرِهِ فِي غُربَةٍ وَفُرقَةٍ، إنَّمَا عَلَـى مَا هُوَ آتٍ، وَتَأتِي لَحَظَاتُ الوَدَاعِ مُهَوِّنَةً عَلَيهِ، وَلَكِن كَيفَ يَكُونُ حَالُهُ عِندَمَا يَصِيرُ وَحِيدًا؟!

نَخرُجُ مِن هَذَا الوصفِ فِي الأبيَاتِ، أنَّ ابنَ شُهَيدٍ استَسلَمَ لِقَضَاءِ اللهِ ﷻ وَقَدَرِهِ، ولَـم يَستَطِع تَحقِيقَ مَـا ظَنَّ، فَـاكتَفَى بِبَثِّ حَنِينِهِ وَآلَامِهِ فِي كَلِمَاتِهِ، وَيَدعُو بِأن يَجمَعَ اللهُ شَملَهُمَا بَعدَ التَّفَرُّقِ، لِأنَّهُ حَمَلَ عَلَى عَاتِقِهِ أَلَمًا عَظِيمًا، وَتَحَمَّلَس مَـا لَـا يَتَحَمَّلُـهُ غَيرُهُ، حَتَّى أصبَحَ مِن بَعدِهَا مُمَزَّقَ المَشَاعِرِ، وَأصَابَهُ العِيُّ.

يُصَوِّرُ **يَحيَى بنُ هُذَيلٍ** يَومَ الفِرَاقِ، وَتَأثِيرَ اللَحَظَاتِ القَاسِيَةِ فِي نَفسِهِ، فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

شَاهَدتُهُـــــم وَأنَـــــا أخَـــــافُ عِنَاقَهُـــــــم شُحًّـــــــا عَلَـــــىٰ أجسَامِهِـــــم أن تُحـــــرَقَا
فَتَرَكـــتُ حَظِّـــــي مِـــــن دُنُوِّي مِنهُـــــــمُ وَمِـــــــنَ الوَفَـــاءِ بِأن تُحِـــبَّ فَتَصـدُقَــــا
وَأقَـــــلُّ فِعلِـــــــــي يَومَ بَانُــــوا أنَّنِـــــي قَبَّلـــتُ آثَـــــــارَ المَطِـــــيِّ تَشَـــــوُّقَــــــا
وَلَــوَ أنَّ عُـــذرَةَ شَـاهَـدَت مِـــن مَوقِفِي شَيئًـــــا لَحَـذَّرَهَـــــا بِألَّا تَـــعـــشَقَـــــــا(2)

نُلَاحِظُ أنَّ أبيَاتَ ابن هُذَيلٍ بَدَأت بِالمُشَاهَدَةِ، وَانتَهَت، أيضًا، بِالمُشَاهَدَةِ، وَذَلِكَ عَلَى عَكسِ الحَالَـةِ الشُّعُورِيَّةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا ابنُ هُذَيلٍ، لَقَد أخفَى آلَامَ الفِرَاقِ، خَوفًا عَلَى حَبِيبَتِهِ مِنَ الِاحتِرَاقِ بِنَارِ الفِرَاقِ وَاللَّوعَةِ، وَقَد ظَلَّ صَابِرًا أمَامَهَا، حَتَّى مَلَّ الصَّبرُ مِن صَبرِهِ، فَهُوَ يَنتَظِرُ الفُرصَةَ الَّتِي يُصبِحُ فِيهَا وَحِيدًا، فَيُعَبِّرُ عَمَّا تَكِنُّهُ نَفسُهُ مِن آلَامٍ وَحَسرَاتٍ، وَذَلِكَ مَا يُؤَكِّدُهُ البَيتُ الثَّالِثُ، (وَأقَلُّ فِعلِي يَومَ بَانُوا...)، لَقَد نَزَلَ وَقَبَّلَ آثَارَ قَدَمَيهَا عَلَى الرِّمَالِ، لَيسَ فَقَط ذَلِكَ، بَل يُكمِلُ قَائِلًا: إن لَزِمَ الأمرُ لَقُمتُ بِتَقبِيلِ قَدَمَيهَا نَفسَيهِمَا، لَيسَ آثَارَهِمَا لَيسَ غَرِيبًا مَا فَعَلَهُ ابنُ هُزَيلٍ فَفِي وَاقِعِنَا نَتَعَجَّبُ حِينَمَا نَجِدُ الرَّجُلَ الغَربِيَّ يَفتَحُ بَابَ السَّيَّارَةِ لِزَوجَتِهِ، وَنَسِينَا أنَّنَا -المُسلِمُون- أوَّلَ مَنْ أوجَدْنَا الرُّومَانسِيَّةَ فِي الإسلَامِ، حِينَمَا وَضَعَ الرَّسُولُ ﷺ فَخِذَهُ الشَّرِيف عَلَى الأرضِ، لِتَركَبَ إحدى زَوجَاتِهِ النَّاقَةَ، يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى قُوَّةِ حُبِّ ابن هُذَيلٍ وَقُدرَتِهِ عَلَى إخفَاءِ الأَلَمِ، وَإظهَارِ الأنسِ وَالبَشَاشَةِ، فَكَانَ بَارِعًا مُوَفَّقًا فِي هَذَا العَرضِ، وَحُبُّهُ الشَّدِيدُ وَصِدقُ تَجرِبَتِهِ مَعَ حَبِيبَتِهِ، أعطَى جَمَالًا لِلقَارِئِ وَالمُتَلَقِّي.

الزَّمَنُ وَأغرَاضُهُ عِندَ أبِي إسحَاقِ الإلبِيرِيِّ:

يَبدَأُ الِاستِسلَامُ مِن دَاخِلِ أعمَاقِ الإنسَانِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى صُنعِ المُعجِزَاتِ، لَكِنَّ الكَسَلَ يُعطِي إيحَاءً بِالعَجزِ وَالِاستِسلَامِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أبُو إسحَاقِ الإلبِيرِيُّ: [الوَافِرُ]

تَفُــــــــــتُّ فُؤَادَكَ الأيَّـــــــــــامُ فَتَّـــــــــــا وَتَنحِـــــتُ جِسمَـــــكَ السَّاعَـــاتُ نَحتَـــــا
وَتَدعُـــوكَ الـمَنُــــــــونُ دُعَـــــاءَ صِـــدقٍ ألَا يَـــــــا صَـــاحِ: أنــتَ أُرِيـدُ أنتَـــــا!(3)

(1) الدِّيوَانُ، ١٣٢- 133.
(2) جَذوَةُ المُقتَبَس فِي تَارِيخ وِلَاةِ الأندَلُس، ٥٦٦.
(3) الدِّيوَانُ، 24.

Faculty of Arts, Arish University

يُصَوِّرُ الإلبيريُّ الزَّمَنَ وَمَا فَعَلَ بِهِ، فَجَعَلَهُ مُستَسلِمًا، لَا يَستَطِيعُ الدِّفَاعَ عَن حَالِهِ، حَتَّى أصبَحَ مُستَسلِمًا لِعَمَلِيَّةِ الهَدمِ الَّتِي تُشعِرُ بِالفَنَاءِ، ثُمَّ يَصِفُ أثَرَ الزَّمَانِ عَلَيهِ، بَعدَ أن تَأثَّرَت أعضَاؤُهُ، فَالقَلبُ أصبَحَ مُمَزَّقًا، مُقَطَّعَ النِّيَاطِ، وَأصبَحَ هَزِيلًا لَا يَقوَى عَلَى العَمَلِ، ولَم يَعُد يَرغَبُ فِيهِ أحَدٌ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى وَحدَةِ الإلبيريِّ، تَجرِيدُهُ مِن نَفسِهِ إنسَانًا يُحَادِثُهُ وَيَستَأنِسُ بِهِ، فَفِعلُ الدَّهرِ لَدَى مَفهُومِ الشَّاعِرِ قَدَرٌ مِن أقدَارِ الخَالِقِ، يُجرِيهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَبِذَلِكَ يَربِطُ بَينَ الزَّمَنِ وَالفِكرِ الإسلَامِيِّ، وَيُعَدُّ الزَّمَنَ مَخلُوقًا مِن مَخلُوقَاتِ اللهِ الكَثِيرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ.

الهَرَمُ وَالعَجزُ الجِسمِيُّ:

يَشعُرُ **الإلبيريُّ** بَعدَ استِسلَامِهِ بِالوَحدَةِ، فَلَا يَجِدُ مَن يُقَوِّمُهُ، فَيَقُولُ: [المُتَقَارِبُ]

وَقُلتُ لَهَا بَانَ عَنكِ الصِّبَا ... وَجَرَّدَكِ الشَّيبُ ثَوبَ الشَّبَابِ

وَمَا بَعدَ ذَلِكَ إلَّا البِلَى ... وَسُكنَى القُبُورِ وَهَولُ الحِسَابِ[1]

يَنتَظِرُ الإلبيريُّ السُّقُوطَ بَعدَ حُلُولِ الشَّيبِ فِي رَأسِهِ، فَيَأتِي إنذَارًا لِكُلِّ غَافِلٍ حَتَّى يَعدِلَ عَن غَيِّهِ، فَكُلُّ نِهَايَةٍ مَهمَا كَانَ مَصِيرُهَا، فَمَحتُومٌ عَلَيهَا بِالمَوتِ، ثُمَّ الحِسَابِ، فَثَوَابٌ أو عِقَابٌ، وَيَعِظُ الشَّاعِرُ نَفسَهُ بَعدَ أن عَلِمَ أنَّهُ لَا مَحَالَةَ مِنَ العَودَةِ، وَأنَّ الأمرَ أصبَحَ مَحسُومًا ضِدَّهُ، فَمَا عَلَيهِ إلَّا أن يَلتَفِتَ لِحَاضِرِهِ.

واتَّخَذَ الإلبيريُّ مِنَ الشَّيبِ صَدِيقًا لِلزَّمَنِ، فَالزَّمَنُ الَّذِي كَانَ يُمَارِسُ دَورَهُ مِن خِلَالِ الشَّيبِ، يَأتِي لِتَهمِيشِ دَورِ الإنسَانِ وَتَغيِيبِهِ، حَتَّى يُصبِحَ رَمزًا مِن رُمُوزِ الزَّمَنِ المُشَتَّتِ.

يَعِظُ الإلبيريُّ نَفسَهُ وَالآخَرِينَ، فَنَجِدُهُ يَقُولُ: [الكَامِلُ]

شَابَ القَذَالُ فَآنَ لِي أن أرعَوِي ... لَو كُنتُ مُتَّعِظًا بِشَيبِ قَذَالِ

وَلَوَ أنَّنِي مُستَبصِرٌ إذ حَلَّ بِي ... لَعَلِمتُ أنَّ حُلُولَهُ تَرحَالِي[2]

يَتَّخِذُ الإلبيريُّ مِنَ الشَّيبِ أدَاةً، وَذَلِكَ لِعَكسِ تَوَجُّهِهِ فِي الحَيَاةِ، وَبُلُوغِ الهَدَفِ الأسمَى وَهُوَ (العُدُولُ)، وَلِلشَّاعِرِ مُفرَدَاتٌ خَاصَّةٌ، حَتَّمَتهَا عَلَيهِ أحدَاثُ الحَيَاةِ، وَفَاضَت بِها قَرِيحَتُهُ، فَوَصَفَ الشَّيبَ بِالقَذَالِ، وَهُوَ "مَا بَينَ الأُذُنَينِ مِن نِهَايَةِ الرَّأسِ"[3]، بَرَعَ الإلبيريُّ فِي اختِيَارِهِ هَذَا اللَّفظِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى إلمَامِهِ بِمُفرَدَاتِ اللُّغَةِ، عَلَى الرَّغمِ مِنَ الظُّرُوفِ العَصِيبَةِ وَالضَّغطِ النَّفسِيِّ الَّذِي أدَّى بِهِ إلَى تِلكَ الحَالَةِ المُزرِيَةِ، وَعَادَةً يَبدَأُ الشَّيبُ مِن جَانِبَيِّ الرَّأسِ، فَإذَا شَابَ القَذَالُ، فَقَد استَشرَى الشَّيبُ، وَعَظِمُ الوَاعِظِ، وَتَقُولُ العَرَبُ: "فُلَانٌ أقمَرَ لَيلُهُ" أي حَلَّ بَيَاضُ الشَّيبِ فِي شَعرِهِ، وَكَأنَّ الشَّاعِرَ **عَرسَهَا** (القَذَالُ) فِي شِعرِهِ، لِتَنبُتَ فِينَا **عَرزًا** لَا يُمضَضُ إلَى الآنَ (الفِردَوسُ المَفقُودُ، عِزُّ المُسلِمِينَ وَمَجدِهِمُ الضَّائِعُ)، فَالغَرسُ بِحَرفِ السِّينِ، لِمَا يَنبُتُ كَالبَذرِ وَنَحوِهِ، أمَّا الغَرزُ بِحَرفِ الزَّايِ، فَلِمَا لَا يَنبُتَ كَالشَّوكَةِ وَالسِّكِّينِ وَنَحوِهِمَا، أيضًا، نَلمَحُ صُورَةً تَنَاصِّيَّةً يَدخُلُ الإلبيريُّ فِيهَا مَعَ قَولِ ابنِ شُهَيدٍ، فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

فَأقُولُ مَا لَكِ عِندَهَا سَيفُ الرَّدَى ... يُستَلُّ مِن شَعرِ القَذَالِ الأشيَبِ[4]

قَالَهَا ابنُ شُهَيدٍ فِي فَقدِ شَبَابِهِ، كَمَا قَالَها الإلبيرِيُّ، أيضًا، فِي فَقدِ نَفسِهِ بِالشَّيبِ، نَستَنتِجُ مِن هَذَا، أنَّ التَّنَاصَ جَاءَ مُتَطَابِقًا، لِمَا فِيهِ مِن تَوَافُقٍ بَينَ النَّصَّينِ.

وَتُصبِحُ المَوعِظَةُ مِن أهَمِّ المُرتَكَزَاتِ الَّتِي يَعتَمِدُ عَلَيهَا الإلبيريُّ فِي شِعرِ الفَقدِ، فَنَجِدُهُ يَستَحضِرُ مَا حَلَّ فِي القُرُونِ الأُولَى، وَأخَذَ العِبرَةَ مِن تِلكَ الأيَّامِ، فَيَقُولُ: [الكَامِلُ]

أيـــنَ الجَبَابِرَةُ الأُلَى وَرِيَاشُهُم؟ ... قَد بَاشَرُوا بَعدَ الحَرِيرِ تُرَاكِ

---

(1) السَّابِقُ، 73.
(2) السَّابِقُ، 45.
(3) لِسَانُ العَرَبِ، مادة (ق ذ ل).
(4) الديوان، 91.

Faculty of Arts, Arish University

ولَطـالَمَــــــــــــا رَدُّوا بأردِيَـــــــــــــةِ البَهَـــــا فتَعَـــوَّضُـــــــوا مِنهَـــــــــــــا رداءَ رَدَاكِ[1]

يَستَهِلُّ الإلبيريُّ قَولهُ مُستَفهمًا عَن حَالِ أُولَئِكَ الجَبَابِرَةِ فِي حَادِثِ عَهدِهِم، وكَيفَ أصبَحُوا بَعدَ أن جَارَ الزَّمَانُ عَلَيهِم؟، فمُستَقَرُّهُمُ التُّرَابُ، نُلَاحِظُ أنَّ الإلبيريَّ **لَا يُغَيِّبُ دَورَ الآخَر** فِي حَدِيثِهِ عَنِ الشَّيبِ، ويَأتِي دَورُ المَرأةِ فِي تَحَوُّلِهَا بَعدَ حُلُولِ الشَّيبِ، مِمَّا يُعَمِّقُ ذَلِكَ الإحسَاسَ المُتَثَاقِلَ بِفِعلِ الزَّمَنِ.

بَعدَ مَوتِ زَوجَةِ **أبِي إسحَاقَ الإلبيريِّ**، فَقَدَ نَفسَهُ ولَم يَجِد فِي الحَيَاةِ مَا يُعَوِّضُهُ عَنهَا، فلَا عَزَاءَ لَهُ سِوَى الشِّعرِ، فيَقُولُ: [الكَامِلُ]

أخلِـــق بِمِثلِــــــــي أن يُـــــرَى مُتَطَلِّبًـــــا حَـــــــوراءَ ذَاتَ غَـــدَائِـــــــــــــرٍ وأسَـــاوِرِ

مَقصُــــــورَةً فِــــــــــي قُبَّـــــةٍ مِـــــــــن لُـؤلُـؤٍ دُخِـــرَت ثَوَابًـــــا لِلمُصَـــابِ الصَّابِـــــرِ

لخَلَـــت ذِرَاعِـــــي وانفَـــرَدتُ فَـــإن أكُـــن تَاجَـــرتُ فِيهَـــــا كُنــــتُ أربَـــحَ تَـــاجِــرِ ولَئِـــن حُرِمــتُ ولَـــــم يَفُز قِدحِي بهَـــا فَـــأنَـــا لعَمـــــــرُ اللهِ أخسَـــــرُ خَاسِــــرِ

مَــــن جَــاوَزَ السِّتِّينَ لَــــم يَجمُـــــل بِهِ شُغُــــــــلٌ بجُمـــــلٍ والرَّبَــابِ وغَــــادِرِ[2]

يَبدُو تَحَسُّرُ الإلبيريِّ عَلَى نَفسِهِ وَاضِحًا، إذ يَنعَى عُمُرَهُ الَّذِي صَحَا، فوَجَدَهُ قَد مَرَّ دُونَ أن يُدرِكَهُ، وهُنَا هَمَّشَ دَورَ الزَّوجَةِ ورَاحَ يُمَنِّي ذَاتَهُ، عَسَى أن يَجِدَ مَا يُعَوِّضُهُ عَن فُقدَانِ أيَّامِ شَبَابِهِ، فَقَد لَا تُجدِي نَفعًا آهَاتُهُ وحَسَرَاتُهُ الَّتِي يُطلِقُهَا، وكَأنَّهُ يَقُولُ:

"بَكَيتُ إلَــــى الشَّبَابِ بِدَمـــــــع عَينِــــــي فلَــم يُغـــــنِ البُكَاءُ ولَا النَّحِيـــــــــــــــبُ"[3]

يَفتَقِدُ الإلبيريُّ زَوجَتَهُ غَيرَ مُكتَرِثٍ لِرِثَائِهَا، ويُفَكِّرُ بِنَفسِهِ، فِي إشَارَةٍ مِنهُ إلَى ذِكرِ أسمَاءِ نِسَاءٍ فِي قَولِهِ (... بِجُملٍ والرَّبَابِ وغَادِرِ)، دَلِيلًا عَلَى تَعَلُّقِ النِّسَاءِ بِهِ.

اِستَهَلَّ الإلبيريُّ شِعرَهُ فِي الفَقدِ بِألفَاظٍ فِيهَا طَاقَةٌ إيحَائِيَّةٌ عَالِيَةٌ تَضمَنُ مُتَابَعَةَ القَارِئِ، وهِيَ تُمَثِّلُ بِدَايَةَ جِسرٍ رَابِطٍ بَينَ لَحظَتَي الصَّمتِ والكَلَامِ، وتَجمَعُ الشَّاعِرَ والقَارِئَ، وعَن طَرِيقِهَا يَتِمُّ الِانتِقَالُ مِنَ الاستِطرَادِ إلَى النَّصِّ[4].

مَا بَينَ الشَّيبِ والشَّبَابِ:

فُقدَانُ الشَّبَابِ لَا يُعَوَّضُ، فَفِي فَقدِ **ابنِ شُهَيدٍ** شَبَابَهُ وتَحَسُّرِهِ عَلَيهِ، يَقُولُ: [الكَامِلُ]

لَا تَبكِيَـــــــنَّ مِـــــــنَ اللَّيَـــالِـي أنَّهَــــا حَرَمَتـــكَ نَغبَـــةَ شَـــارِبٍ مِـــــــن مَشرَبِ

فأقَـــــلُّ مَـا لَـــــكَ عِندَهَـــا سَيـــفُ الرَّدَى يُستَــلُّ مِـــــن شَعَـــــرِ القَـذَالِ الأشيَـــــبِ

ورَحِيـــــلُ عَيشِــــكَ كُلَّ رِحلَـــةِ سَاعَةٍ وفَنَـــاءُ طِيبِـــكَ فِـــي الزَّمَانِ الأطيَبِ فَـــإذَا بَكَيــتَ فَبَـــكِّ عُمـــرَكَ، إنَّــــهُ زَجِـــلُ الجَنَـــاحِ يَمُــــرُّ مَـــرَّ الكَوكَبِ[5]

يَجعَلُ ابنُ شُهَيدٍ مِن نَفسِهِ إنسَانًا آخَرَ يُحَدِّثُهُ، بَل يُهَدِّئُ مِن بُكَائِهِ عَلَى الشَّبَابِ الَّذِي فَاتَ وانقَضَى، لَقَد حَرَمَتهُ الحَيَاةُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وأفنَى عُمُرَهُ فِيمَا لَا يُسعِدُهُ، ولَكِنَّ الحَيَاةَ لَم تَكتَفِ بِذَلِكَ القَدرِ مِنَ الحِرمَانِ، بَل أتَت بِالشَّيبِ الَّذِي لَا خِيَارَ فِيهِ، وكَأنَّ الحَيَاةَ تُخبِرُهُ أنَّهُ قَد أوشَكَ عَلَى الرَّحِيلِ مِن دُنيَاهُ، ولَا مَجَالَ لِلشُّعُورِ بِالسَّعَادَةِ أوِ الرَّاحَةِ، وابنُ شُهَيدٍ حِينَمَا اتَّخَذَ مِن نَفسِهِ إنسَانًا يُخَاطِبُهُ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى فَرطِ فَقدِهِ، ووَحدَتِهِ بَعدَ أن تَقَدَّمَ بِهِ العُمُرُ ولَم يَعُد مَرغُوبًا بِهِ، ويَشعُرُ كَأنَّ الحَيَاةَ حَرَمَتهُ مِن كُلِّ

[1] السَّابِقُ، ٣٧- ٣٨.
[2] الدِّيوَانُ، ٩١.
[3] شَرحُ أبيَاتِ مُغنِي اللَّبِيبِ، عَبدِ القَادِرِ بنُ عُمَر البَغدَادِي، تَحقِيقُ: عَبدِ العَزِيزِ رَبَاح، أحمَد يُوسُف دَقَّاق، بَيرُوت، دَارُ مَأمُون لِلتُّرَاثِ، 1414ه/ 1993م، 163/5.
[4] يُرَاجَعُ، تَمَثُّلَاتُ المَوتِ فِي الرِّوَايَةِ العِرَاقِيَّةِ، فارس نَايف الفَايز، بَيرُوتُ، الرَّافِدَين لِلطِّبَاعَةِ والنَّشرِ، 2018م، ١٨٧- ١٨٨.
[5] الدِّيوَانُ، ٩١.

Faculty of Arts, Arish University

شَيءٍ، وَقَد أفنَى عُمُرَهُ فِيمَا لَا يُسعِدُهُ، ولَم تَكتَفِ بِذَلِكَ القَدر، بَل شَيَّبَتهُ وَفَاجَأتهُ بِذَلِكَ المَشِيبِ، وَكَأنَّ الحَيَاةَ أوشَكَت عَلَى الرَّحِيلِ، ولَا مَجَالَ لِلسَّعَادَةِ وَالرَّاحَةِ.

تَأسَّفَ ابنُ شُهَيدٍ عَلَى مَا حَرَمَتهُ مِنهُ الحَيَاةُ، وَعَلَى مَا فَاتَهُ مِنهَا، فَبَكَى مُتَنَدِّمًا عَلَى مَا فَاتَ وَانقَضَى مِن عُمُرِهِ (الشَّبَابُ)، ولَكِن هَيهَاتَ، قَد ولَّى الشَّبَابُ بِغَيرِ رَجعَةٍ، فَأصبَحَ الدَّمُّ هُوَ المُسَيطِرَ عَلَى حَالِهِ.

إنَّ فَقدَ الذَّاتِ هُوَ لَونٌ مِن أَلوَانِ الفَقدِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا شُعَرَاءُ الفَقدِ الأندَلُسِيِّ فِي أشعَارِهِم، وَذَلِكَ نَتِيجَةً لِتَعَدُّدِ دَوَافِعِهِم وَأغرَاضِهِمُ الشِّعرِيَّةِ، فَيُعَبِّرُونَ عَمَّا بِدَاخِلِهِم فِي شَكلِ قَصَائِدَ تُلهِبُ الأنفَاسَ، وَتَلفِتُ انتِبَاهَ المُتَلَقِّي.

لَقَد أَبَانَ شِعرُ الفَقدِ، مُتَمَثِّلًا فِي فَقدِ الذَّاتِ عِندَ الشُّعَرَاءِ الأندَلُسِيِّينَ، مَلَامِحَ مُهِمَّةً مِن تَجرِبَتِهِمُ الشِّعرِيَّةِ بِشَكلٍ خَاصٍّ، وَحَيَاتِهِم بِوَجهٍ عَامٍّ، فَالشَّوَاهِدُ الَّتِي ذُكِرَت فِي المَبحَثِ كَانَت بَاعِثًا فِي وُجُودِ نَصِّ الفَقدِ فِي دَوَاوِينِهِم، اِستَطَاعَت هَذِهِ القَصَائِدُ أن تَعكِسَ لَنَا جَوَانِبَ مُتَعَدِّدَةً مِن تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِمُ الَّتِي تَجَاذَبَتهَا أبعَادٌ مُختَلِفَةٌ، مَا بَينَ نَفسِيَّةٍ وَصِحِّيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ وَأُخرَى اجتِمَاعِيَّةٍ، تِلكَ الأبعَادُ الَّتِي مَثَّلَت فِي ظَنِّي نَافِذَةً جَدِيدَةً لِقِرَاءَةِ نِتَاجِهِمُ الأدَبِيِّ وَتَحلِيلِ مَضَامِينِهِ، لا سِيَّمَا الشِّعرِيُّ مِنهُ.

أمَّا السِّمَاتُ المَوضُوعِيَّةُ وَالفَنِّيَّةُ الَّتِي ظَهَرَت فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الشِّعرِ عِندَ الشُّعَرَاءِ الأندَلُسِيِّينَ وَفِي ثَنَايَا أعمَاقِهَا، فَقَدِ استَطَاعَت دراستي أن تُؤَكِّدَ لَنَا أَنَّنَا بِإزَاءِ شُعَرَاءَ لَا يَنضَبُ مَعِينُ إبدَاعِهِم، فَقَد حَوَّلُوا المَأسَاةَ الَّتِي عَانَوا مِنهَا إِلَى عِقدٍ مِنَ الإبدَاعِ الفَنِّيِّ الَّذِي يَنتَظِمُ فِي سِلكٍ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالمَعَانِي وَالصُّوَرِ وَالأخيِلَةِ ذَاتِ الدَّلَالَاتِ المُعَبِّرَةِ وَالأبنِيَةِ المُمَيَّزَةِ، كَمَا تُؤَكِّدُ الدِّرَاسَاتُ البَحثِيَّةُ فِي الوَقتِ نَفسِهِ أنَّ شِعرَ فَقدِ الذَّاتِ يَحتَاجُ إِلَى المَزِيدِ مِنَ القِرَاءَاتِ الفَنِّيَّةِ وَالدَّلَالِيَّةِ، لِتَعمِيقِ الرُّؤيَةِ، وَتَرسِيخِ الِاعتِقَادِ.

تَنَوَّعَت أصنَافُ صُوَرِ الفَقدِ وَتَعَدَّدَت، فَشَمِلَتِ الإنسَانَ مِن أهلٍ وَأقَارِبَ وَأصحَابٍ وَعِلِيَةِ قَومٍ وَغِلمَانٍ، ولَم يَقتَصِر عَلَى ذَلِكَ فَحَسبُ، بَل شَمِلَ، أيضًا، الأحدَاثَ السِّيَاسِيَّةَ وَسَارَ مَعَهَا جَنبًا إِلَى جَنبٍ.

الخَاتِمَةُ

حَاوَلتُ فِي هَذِه الدراسة أن أُعطِيَ صُورَةً وَاضِحَةً لِشِعرِ الفَقدِ الأندَلُسِيِّ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، فَخَرَجتُ بِالنَّتَائِجِ الآتِيَةِ:

1- عَاشَتِ الأندَلُسُ عَصرَ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ حَيَاةً مَرِيرَةً وَمُعَانَاةً شَدِيدَةً، أثَّرَت عَلَى شُعَرَاءِ الفَقدِ فِي تِلكَ الفَترَةِ، فَمَا كَانَ أَمَامَهُم سِوَى التَّعبِيرِ عَن تِلكَ الحَسَرَاتِ بِقَولِ الشِّعرِ، فَبَرَعُوا فِي هَذَا الفَنِّ بَرَاعَةً مَشهُودَةً، وَذَلِكَ لِصِدقِ عَوَاطِفِهِم، وَانتِمَائِهِمُ الصَّادِقِ.

2- أصبَحَ الفَقدُ سَبَبًا قَوِيًّا مِن أسبَابِ الحُزنِ، بَل هُوَ السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي أَلَمِ الشُّعَرَاءِ الفَاقِدِينَ، تَعَدَّدَت صُوَرُ الفَقدِ، حَيثُ يُعَدُّ المَوتُ مِن أبرَزِ عَلَامَاتِ الفَقدِ، فَلَيسَ مِنَ السَّهلِ أن يُعَبِّرَ الشَّاعِرُ الفَاقِدُ بِالمَوتِ مَا يَكِنُّ صَدرُهُ بِعِبَارَاتِ الأسَى وَالحُزنِ، فِي شَكلِ قَالِبٍ شِعرِيٍّ حَالَ سُقُوطِ النَّكبَةِ أو المُصِيبَةِ، وَلَكِن نَجِدُ الشَّاعِرَ يُطلِقُ عِنَانَ فِكرِهِ وَلِسَانِهِ لِيَجُودَ بِعِبَارَاتِ التَّحَسُّرِ الَّتِي تَحمِلُ كُلَّ مَعَانِي الصِّدقِ وَالوَدَاعِ.

3- نَظَمَ شُعَرَاءُ الفَقدِ قَصَائِدَهُم فِي أغرَاضِ فَقدِ المَوطِنِ، وَالأهلِ، وَالأقَارِبِ، وَالأبَاعِدِ، وَالمَحبُوبَةِ، وَالذَّاتِ، وَالمُلُوكِ، وَالمُدُنِ، فَتَفَاوَتَت قَصَائِدُ الفَقدِ مِن شَاعِرٍ لِآخَرَ، حَسَبَ التَّجرِبَةِ وَالمَوهِبَةِ، وَعَلَاقَةِ الشَّاعِرِ بِالمَفقُودِ، فَمِنهُم مَن كَانَت قَصَائِدُهُ ذَاتَ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ فِي التَّعبِيرِ، يُظهِرُ فِيهَا حُزنًا حَقِيقِيًّا عَلَى الفَقِيدِ، وَمِنهُم مَن كَانَت قَصَائِدُهُ وَاضِحَةَ الصَّنعَةِ، وَبَارِزًا فِيهَا اشتِغَالُ الشَّاعِرِ عَلَيهَا وَتَنقِيحُهَا.

4- أشرَكَ الشُّعَرَاءُ الأندَلُسِيُّونَ الطَّبِيعَةَ الصَّامِتَةَ فِي شِعرِهِم، لِيُؤنِسُوا وَحدَتَهُم، فَكَثِيرًا مَا أسقَطَ شُعَرَاءُ الفَقدِ أحزَانَهُم عَلَيهَا، وَحَكَوا مُصَابَهُم لَهَا.

5- نُلَاحِظُ كَثِيرًا تَأثُّرَ الشُّعَرَاءِ الأندَلُسِيِّينَ فِي شِعرِهِم، بِالتُّرَاثِ العَرَبِيِّ المَشرِقِيِّ، كَمَا ظَهَرَ التَّأثُّرُ الوَاضِحُ بِالقُرآنِ الكَرِيمِ فِي أكثَرَ مِن قَصِيدَةٍ، لَدَى شُعَرَاءَ مُختَلِفِينَ.

Faculty of Arts, Arish University

6- تَجلَّت مُعَانَاةُ الذَّاتِ، وَصِدقُ التَّجربَةِ فِي **فُقدِ المَوطِنِ وَالأهل**، وَهَذَا النَّوعُ مِنَ الفَقدِ أَشَدُّ مِنَ الفَقدِ بِالمَوتِ، لِأَنَّ المَيتَ مَصِيرُهُ مَعلُومٌ، فَمُستَقَرُّهُ القَبرُ، أَمَّا فَقدُ المَوطِنِ وَالأهل، فَيَجعَلُ الشَّاعِرَ فِي حَالَةٍ مِنَ الشَّتَاتِ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ بِلَا وَطَنٍ وَأَهلٍ كَالطَّائِرِ بِلَا عُشٍّ، وَيَتَمَيَّزُ الشَّاعِرُ الأندَلُسِيُّ بِاتِّصَالِهِ الوَطِيدِ مُنذُ صِغَرِهِ بِوَطَنِهِ، وَالِانتِمَاءِ لِأَهلِهِ وَقَبِيلَتِهِ، فَلَا يَنسَاهُ أَبَدًا مَهمَا بَعُدَتِ المَسَافَاتُ، فَنَجِدُهُ يُقَدِّمُ بَرَاعَةً فِي قَولِ الشِّعرِ، وَاصِفًا حَالَهُ وَحَالَ أَهلِهِ بَعدَ فُقدَانِهِم، بِكُلِّ مَعَانِي الوَفَاءِ وَالتَّضحِيَةِ.

7- تَضَاعَفَ الفَقدُ لِيَشمَلَ **فُقدَ المَحبُوبَةِ**، فَهِيَ ظَاهِرَةٌ لَافِتَةٌ لِلنَّظَرِ، فَعَلَى الرَّغمِ مِنَ النَّكَبَاتِ الَّتِي مَرَّت بِهَا الأندَلُسُ فِي عَصرِ الدَّولَةِ الأُمَوِيَّةِ، مِن سَفكِ دِمَاءٍ وَتَخرِيبٍ وَتَهجِيرٍ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ المُحِبَّ لَم يَنسَ فِي هَذِهِ الأَحدَاثِ مَحبُوبَتَهُ، لِأَنَّهَا هِيَ المَلَاذُ الأَسَاسُ فِي حَيَاتِهِ، فَيَفتَقِدُهَا فِي شِعرِهِ بِقَلبٍ حَارٍّ نَابِضٍ، مِمَّا يُوَضِّحُ انصِرَافَ مَشَاعِرِهِ تُجَاهَ المَرأَةِ، مَهمَا حَلَّ بِهِ مِن حَسَرَاتٍ وَآلَامٍ.

8- تَنَوَّعَت صُوَرُ الفَقدِ، ابتِدَاءً مِن فَقدِ الذَّاتِ، وَهُوَ أَن يَفقِدَ الشَّاعِرُ نَفسَهُ بِالمَوتِ أَو المَشِيبِ، أَو السَّجنِ، كُلُّ هَذِهِ الصُّوَرِ تَجعَلُ الشَّاعِرَ يُعَبِّرُ عَن حِرمَانِهِ مِنَ الحَيَاةِ، وَدُنُوِّ أَجَلِهِ، فَجَاءَت أَشعَارُهُ مَمزُوجَةً بِأَلَمِ الذَّاتِ، فَجَعَلَتِ الدُّنيَا مِنهُ شَاعِرًا لَا يَرغَبُ فِي الحَيَاةِ، فَيَعِيشُ بَينَ النَّاسِ مَيِّتًا حَتَّى وَإِن كَانَ بَينَ النَّاسِ حَيًّا.

9- إِنَّ صُوَرَ الفَقدِ السَّابِقَةِ اعتَمَدتُ فِي دِرَاسَتِهَا عَلَى **التَّحلِيلِ وَالدِّرَاسَةِ**، فَصَنَّفتُ فِيهِ أَنوَاعَ شِعرِ الفَقدِ، وَفَسَّرتُ جَمَالِيَّاتِ النُّصُوصِ الشِّعرِيَّةِ، وَوَضَّحتُ مَا فِيهَا مِن قِيَمٍ جَمَالِيَّةٍ، وَذَلِكَ مَا يَخُصُّ **الفَصلَ الأَوَّلَ** مِن مَوضُوعِي.

قَائِمَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ[1]

أَوَّلًا: المَصَادِرُ:

1. **تَارِيخُ الأَدَبِ الأَندَلُسِيِّ (عَصرُ سِيَادَةِ قُرطُبَةَ)**، إِحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، دَارُ الثَّقَافَةِ، ط2، ١٩٦٩م.
2. **بُلُوغُ المَرَامِ مِن أَدِلَّةِ الأَحكَامِ**، الحَافِظُ بنُ حَجَرٍ العَسقَلَانِيُّ (ت٨٥٢ه)، تَحقِيقُ: مَاهِر يَاسِين الفَحل، القَاهِرَةُ، دَارُ القُدس، ١٤٣٥ه/٢٠١٤م.
3. **التَّشبِيهَاتُ مِن أَشعَارِ أَهلِ الأَندَلُس**، ابنُ الكَتَّانِي(ت٤٢٠ه)، تَحقِيقُ: إِحسَان عَبَّاس، القَاهِرَةُ، دَارُ الشُّرُوق، ط٢، ١٩٨١م.
4. **جَذوَةُ المُقتَبَسِ فِي تَارِيخِ عُلَمَاءِ الأَندَلُس**، أَبُو عَبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ فُتُّوح بن عَبدِ اللهِ الحُمَيدِيُّ، (ت٤٨٨ه)، تَحقِيقُ: بَشَّار عَوَّاد مَعرُوف، وَمُحَمَّد بَشَّار عَوَّاد، تُونِسُ، دَارُ الغَربِ الإِسلَامِيِّ، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م.
5. **الحُلَّةُ السِّيرَاءُ**، ابنُ الأَبَّار، تَحقِيقُ: حُسَين مُؤنِس، القَاهِرَةُ، الشَّرِكَةُ العَرَبِيَّةُ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشر، ١٩٣٦م.
6. **دِيوَانُ ابنِ الحَدَّادِ**، جَمعُ وَتَحقِيقُ: يُوسُف عَلِي الطَّوِيل، بَيرُوتُ، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، 1990م.
7. **دِيوَانُ ابنِ حَزمِ الظَّاهِرِي**، تَحقِيقُ: صُبحِي رَشَاد عَبد الكَرِيم، طَنطَا، دَارُ الصَّحَابَةِ لِلتُّرَاثِ، ١٤١٠ه/١٩٩٠م.
8. **دِيوَانُ ابنِ دَرَّاجٍ القَسطَلِي**، حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيهِ وَقَدَّمَ لَهُ: مَحمُود عَلِيّ مَكِّي، بَيرُوتُ، المَكتَبُ الإِسلَامِيُّ، ط٢، 1389هـ.
9. **دِيوَانُ ابنِ زَيدُونَ وَرَسَائِلُهُ**، تَحقِيقُ: عَلِي عَبد العَظِيم، القَاهِرَةُ، دَارُ نَهضَةِ مِصرَ، 1957م.
10. **دِيوَانُ ابنِ شُهَيدٍ**، تَحقِيقُ: يَعقُوب زكي، رَاجَعَهُ: مَحمُود عَلِي مَكِّي، القَاهِرَةُ، دَارُ الكَاتِبِ العَرَبِيِّ، (د.ت).
11. **دِيوَانُ ابنِ عَبدِ رَبِّهِ**، جَمعُ وَتَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ١٣٩٩ه/١٩٧٩م.
12. **دِيوَانُ أَبِي إِسحَاقَ الإِلبِيرِي**، تَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، دَارُ الحِكمَةِ، ١٤١١ه/١٩٩١م.
13. **دِيوَانُ مُحَمَّدِ بنِ عَمَّارٍ الأَندَلُسِي**، تَحقِيقُ: صَلَاح خَالِص، بَغدَادُ، مَكتَبَةُ الهُدَى، ١٩٥٧م.

[1] رَتَّبتُ المَصَادِرَ، وَالمَرَاجِعَ تَرتِيبًا هِجَائِيًّا (الأَلِفبَائِي)، بِالنَّظَرِ إِلَى اسمِ الكِتَابِ، وَالمُؤَلِّفِ.

Faculty of Arts, Arish University

14. **دِيوَانُ يَحيَى بن الحَكَمِ الجَيَّانِيِّ**، تَحقِيقُ: مُحَمَّد رِضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةُ، ١٤١٣ه/١٩٩٣م.

15. **الذَّخِيرَةُ فِي مَحَاسِنِ أهلِ الجَزِيرَةِ**، أبُو الحَسَن عَلِيُّ بنُ بَسَّام الشَّنتَرِينِي (ت٥٤٢ه)، تَحقِيقُ: إحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، دَارُ الغَربِ الإسلَامِي، ق١، 1981م.

16. **السُّنَنُ**، التِّرمِذِيُّ (ت٢٩٧ه)، تَحقِيقُ: بَشَّار عَوَّاد مَعرُوف، بَغدَادُ، دَارُ الفَرَاهِيدِي، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّبرِ عَلَى البَلَاءِ، ١٩٩٦م.

17. **شَرحُ أبيَاتُ مُغنِي اللَّبِيبِ**، عَبدِ القَادِرِ بنُ عُمَر البَغدَادِيِّ، تَحقِيقُ: عَبدِ العَزِيزِ رَبَاح، أحمَد يُوسُف دَقَّاق، بَيرُوت، دَارُ مَأمُون لِلتُّرَاثِ، 1414ه/ 1993م.

18. **شَرحُ مَقَامَاتِ جَلَالِ الدِّينِ السُّيُوطِيّ** (ت٩١١ه)، تَحقِيقُ: سَمِير مَحمُود الدُّرُوبِي، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةُ، ١٩٨٩م.

19. **الشِّعرُ وَالشُّعَرَاءُ**، ابنُ قُتَيبَة (ت276ه)، تَحقِيقُ: أحمَد مُحَمَّد شَاكِر، القَاهِرَةُ، دَارُ الحَدِيثِ، ٢٠٠٧م.

20. **طوقُ الحَمَامَةِ فِي الألفَةِ وَالأُلَّافِ**، ابنُ حَزم الظَّاهِرِي (ت٤٥٦ه)، تَحقِيقُ: إحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشر، ط٢، ١٩٨٧م.

21. **الكُلِّيَّاتُ**، الحُسَينُ الكَفَوِي، تَحقِيقُ: عَدنَان دَرويش، مُحَمَّد المِصرِي، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ، ط٢، ١٤١٩ه/١٩٩٨م.

22. **لِسَانُ العَرَبِ**، ابنُ مَنظُور، تَحقِيقُ: عَبدِ اللهِ علي الكَبِير، مُحَمَّد أحمَد حَسَبَ اللهِ، هاشِم مُحَمَّد الشَّاذِلِي، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ١٩٨٦م.

23. **مَطمَعُ الأنفُسِ وَمَسرَحُ التَّأنُّس**، ابنُ خَاقَان (ت٥٢٩هـ)، تَحقِيقُ: مُحَمَّد عَلِي شَوَابكَة، بَيرُوتُ، مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةُ، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م.

24. **نُزهَةُ الجُلَسَاءِ فِي أشعَارِ النِّسَاءِ**، جَلَالُ الدِّين السُّيوطِيُّ (ت٩١١هأ)، تَحقِيقُ: عَبدِ اللَّطِيفِ عَاشُور، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ القُرآن، ١٩٨٦م.

25. **نَفحُ الطِّيبِ مِن غُصنِ الأندَلُسِ الرَّطِيبِ**، أحمَد بنُ المقَّرِي التِّلمِسَانِيُّ (ت1041ه)، تَحقِيقُ: إحسَان عَبَّاس، بَيرُوتُ، دَارُ صَادِر، 1997م.

26. **نِهَايَةُ الأرَبِ فِي فُنُونِ الأدَبِ**، شِهَابُ الدِّين النُّوَيري، تَحقِيقُ: يَحيَى الشَّامِي، بَيرُوتُ، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، 1424هـ.

27. **الوَافِي بالوَفَيَاتِ**، صَلَاحُ الدِّين الصَّفَدِيُّ (ت٧٦٤ه)، تَحقِيقُ: أحمَد الأرنَاؤُوط، تُركِي مُصطَفَى، بَيرُوتُ، دَارُ إحيَاءِ التُّرَاثِ العَرَبِي، ١٤٢٠ه/٢٠٠٠م.

ثانِيًا: المَرَاجِعُ:

28. **الأدَبُ الأندَلُسِيُّ**، جَودَت الرِّكَابِي، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ٢٠٠٦م.

29. **الأدَبُ العَرَبِيُّ فِي الأندَلُس**، عَبدُ العَزِيز عَتِيق، بَيرُوتُ، دَارُ النَّهضَةِ العَرَبِيَّةِ، ١٩٩٥م.

30. **الأسلُوبُ (دِرَاسَةٌ بَلَاغِيَّةٌ تَحلِيلِيَّةٌ لِأُصُولِ الأسَالِيبِ الأدَبِيَّةِ)**، أحمَد الشَّايب، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ النَّهضَةِ، ط٨، ١٩٩١م.

31. **تَارِيخُ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ (عَصرُ الطَّوَائِفِ وَالمُرَابِطِينَ)**، إحسَان عَبَّاس، عَمَّانُ، دَارُ الشُّرُوق، ١٩٩٧م.

32. **تَارِيخُ الأدَبِ الأندَلُسِيِّ (عَصرُ سِيَادَةِ قُرطُبَة)**، تَحقِيقُ: إحسَان عَبَّاس، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، 1959م

33. **تَحَوُّلَاتُ الشِّعرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ**، صَلَاح فَضل، بَيرُوتُ، دَارُ الآدَابِ، ٢٠٠٢م.

34. **تَمَثُّلَاتُ المَوتِ فِي الرِّوَايَةِ العِرَاقِيَّةِ**، فَارِس نَايف الفَايز، بَيرُوتُ، الرَّافِدَين لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشر، 2018م.

35. **دِرَاسَاتٌ أندَلُسِيَّةٌ فِي الأدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالفَلسَفَةِ**، تَحقِيقُ: الطَّاهِر أحمَد مَكِّي، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ط٣، ١٩٨٧م.

Faculty of Arts, Arish University

36. **دَلِيلُ النَّاقِدِ الأَدَبِيِّ**، مِيجَان الرُّوِيلِيِّ وَسَعد البَازعِيِّ، المَغربُ، المَركَزُ الثَّقَافِيُّ العَرَبِيُّ، ط٤، ٢٠٠٥م.

37. **دَولَةُ الإِسلَامِ فِي الأَندَلُس (الخِلَافَةُ الأُمَوِيَّةُ وَالدَّولَةُ العَامِرِيَّةُ)**، مُحَمَّد عَبدُ اللهِ عَنَان، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الخَانجِي، ط٤، ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

38. **رِثَاءُ الأَبنَاءِ فِي الشِّعرِ العَرَبِي**، مِخيِمَر صَالِح، عَمَّانُ، مَكتَبَةُ المَنَار، ١٩٨٠م.

39. **رِثَاءُ النَّفسِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِي**، مِقدَاد رَحِيم، عَمَّانُ، جُهَينَةُ لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيع، ١٤٣٣ه/٢٠١٢م.

40. **الشِّعرُ الأَندَلُسِيُّ (بَحثٌ فِي تَطَوُّرِهِ وَخَصَائِصِهِ)**، غرثيه غومث، تَرجَمَةُ: حُسَين مُؤنِس، القَاهِرَةُ، دَارُ المَعَارِفِ، ط3، 1963م.

41. **عَلَى السَّفُّودِ**، مُصطَفَى صَادِق الرَّافِعِيُّ، القَاهِرَةُ، مُؤَسَّسَةُ هِندَاوِي، ١٩٣١م.

42. **فَضَاءَاتُ النَّقدِ الثَّقَافِيِّ مِنَ النَّصِّ إِلَى الخِطَابِ**، سَمِير الخَلِيل، بَيرُوتُ، دَارُ وَمَكتَبَةُ البَصَائِر، ٢٠١٥م.

43. **فَنُّ الأَدَبِ الأَندَلُسِيِّ**، مُحَمَّد رضوَان الدَّايَة، بَيرُوتُ، دَارُ الفِكرِ المعاصر، ١٤٢١ه/٢٠٠٠م.

44. **قَضِيَّةُ السَّجنِ وَالحُرِّيَّةِ فِي الشِّعرِ الأَندَلُسِيِّ**، أَحمَد عَبد العَزِيز، القَاهِرَةُ، مَكتَبَةُ الأَنجِلُو المِصرِيَّةُ، ١٩٩٠م.

45. **القِيمَةُ الرُّوحِيَّةُ مِنَ الشِّعرِ العَرَبِيِّ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ**، ثُرَيَّا عَبد الفَتَّاح مِلحِس، بَيرُوتُ، دَارُ الكِتَابِ اللُّبنَانِي، ١٩٥٠ه.

46. **مَدَامِعُ العُشَّاقِ**، زَكِي مُبَارَك، القَاهِرَةُ، مَنشُورَاتُ المَكتَبَةِ المِصرِيَّةِ، ط٢، 1353هـ.

47. **المَرأَةُ فِي الشِّعرِ الجَاهِلِي**، عَلِي هَاشِم، بَغدَادُ، مَطبَعَةُ المَعَارِفِ، ١٩٦٠م.

48. **المُعجَمُ الأَدَبِيُّ**، جَبُّور عَبد النُّور، بَيرُوتُ، دَارُ العِلمِ لِلمَلَايِين، ١٩٧٩م.

49. **مُعجَمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ**، أَحمَد مُختَار عُمَر (ت1424ه)، القَاهِرَةُ، عَالَمُ الكُتُبِ، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م.

50. **مُعجَمُ المُصطَلَحَاتِ الأَدَبِيَّةِ المُعَاصِرَةِ**، سَعِيد عَلُّوش، بَيرُوتُ، دَارُ الكِتَابِ اللُّبنَانِي، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.

51. **مُعجَمُ المُصطَلَحَاتِ العَرَبِيَّةِ فِي اللُّغَةِ وَالأَدَبِ**، مَجدِي وَهبَة، كَامِل المُهَندِس، بَيرُوتُ، مَكتَبَةُ لُبنَانَ، ط٢، ١٩٨٤م.

52. **المُعجَمُ المُفَصَّلُ فِي الأَدَبِ**، مُحَمَّد التُّونجِي، بَيرُوتُ، دَارُ الكُتُبِ العِلمِيَّةِ، ط٢، ١٤١٩ه/١٩٩٩م.

53. **المَوتُ فِي الفِكرِ الغَربِيِّ**، چاك شورُوك، تَرجَمَةُ: كَامِل يُوسُف حُسَين، مُرَاجَعَةُ وَتَقدِيمُ: إِمَام عَبدِ الفَتَّاح إِمَام، الكُوَيتُ، عَالَمُ المَعرِفَةِ، ١٩٨٤م.

54. **المَوتُ وَالخُلُودُ فِي الأَديَانِ المُختَلِفَةِ**، عِزَّت زَكِي، القَاهِرَةُ، دَارُ النَّشرِ لِلكَنِيسَةِ الأُسقُفِيَّةِ، ١٩٧٣م.

55. **النَّقدُ الأَدَبِيُّ الحَدِيثُ**، مُحَمَّد غُنَيمِي هِلَال، القَاهِرَةُ، دَارُ نَهضَةِ مِصرَ، ١٩٩٧م.

ثَالِثًا: الدَّورِيَّاتُ وَالمَجَلَّاتُ:

56. **تَلَقِّي رِثَاءِ ابنِ العَسَّالِ لِطُلَيطِلَةَ بَينَ التَّفَهُّمِ وَالإِنكَارِ**، مَلِيكَة حِيمَر، الجَزَائِر، جَامِعَة مَنتُورِي قُسَنطِينَة، مَجَلَّةُ العُلُومِ الإِنسَانِيَّةِ، ع٤٧، ٢٠١٧م.

رَابِعًا: الرَّسَائِلُ الجَامِعِيَّةُ:

57. **بَوَاعِثُ البُكَاءِ وَدَلَالَاتُهُ الفَنِّيَّةُ وَالمَوضُوعِيَّةُ فِي الشِّعرِ العَرَبِيِّ قَبلَ الإِسلَامِ**، سَمِير جَعفَر يَاسِين الدُّورِي، رِسَالَةُ مَاچستِير، جَامِعَةُ بَغدَادَ، كُلِّيَّةُ الآدَابِ، 1998م.

58. **تَطَوُّرُ فَنِّ الرِّثَاءِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ بَينَ المَشرِقِ وَالأَندَلُسِ**، خَالِدَة مُحَمَّد إِبرَاهِيم الشَّايِقِي، رِسَالَةُ مَاچستِير، الخُرطُومُ، جَامِعَةُ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالعُلُومِ الإِسلَامِيَّةِ، كُلِّيَّةُ الدِّرَاسَاتُ العُلْيَا، ٢٠٠٠م.

Faculty of Arts, Arish University

59. **تَمَنِّـي المَـوتِ فِـي الشِّـعرِ الأندَلُسِـي**، مَـروَة شِحَاتَة مُحَمَّد الشَّـرقِي، رِسَـالَةُ مَـاجِستير، جَامِعَـةُ دَمَنهُـور، كُلِّيَّـةُ الآدَابِ، ٢٠١٦م.

60. **رِثَـاءُ الأَهلِ وَالأَصدِقَاءِ، فِي شِعرِ مُخَضرَمِي الدَّولَتَينِ، الأُمَويَّةِ وَالعَبَّاسِيَّةِ**، صَالِح عَلِي سلِيم، رِسَالَةُ مَاجِستير، عَمَّانُ، جَامِعَةُ اليَرمُوكِ، ١٩٨٦م.

61. **شِعرُ التَّعَازِي وَالقُبُورِ فِي الأَندَلُسِ (المَحَاوِرُ وَالسِّمَاتُ الفَنِّيَّةُ)**، أنوَر يَعقُوب زَمَان، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، الرِّيَاضُ، جَامِعَـةُ أُمِّ القُرَى، 1432ه/2011م.

62. **الشِّعرُ العَرَبِيُّ فِي رِثَاءِ الدُّوَلِ وَالأَمصَارِ حَتَّى نِهَايَةِ سُقُوطِ الأَندَلُس**، شَاهِر عَوَض الكفاوين، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، الرِّيَاضُ، جَامِعَةُ أُمِّ القُرَى، كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، ١٤٠٤ه/١٩٨٤م.

63. **شِعرِيَّةُ الفَقدِ (قِرَاءَةٌ نَقدِيَّةٌ فِـي مَرثِيَّـةِ إِبرَاهِيم بن المَهدِيِّ لِابنِـهِ)** (ت224ه)، أحمَد رزق المِتوَلِّي، رِسَالَةُ دُكتُورَاه، جَامِعَةُ المَنصُورَةِ، ٢٠٢٢م..

Faculty of Arts, Arish University